محتويات العدد

أبحاث ودراسات

أبحاث ودراسات بلغات أجنبية

العربية : الاعتبار القومي والبعد الأممي

محمد ديداوي
منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية
(اليونيدو)

خلاصة

لا شك أن العربية تتأرجح عند أبنائها بين الحب والتعلق من جانب المطلع عليها والعارف بأصولها ومن يغار على الاسلام ويسعى بالتالي إلى صون لغة القرآن الكريم، وبين المهانة من جانب من يجهلها أو يزدريها بسبب عدة عوامل، منها العامل الاجتماعي. ولقد استطاعت العربية أن تصل إلى بر الأمان رغم ما لقيته من عراقيل وما أصاب ألفاظها من ضعف تسبب فيه مريدوها أيضا، من حيث لم يحتسبوا.

ومن فضل المحفل الدولي على العربية أنه يعطيها دفعة إلى الأمام، على أنها يجب ألا تنفصم عن ماضيها التليد. وهي الآن تسعى إلى تدقيق المصطلح خدمة للمعنى والمفهوم. وما المصطلح إلا وسيلة للافهام، علما أن المعنى والمفهوم قد يكونان جديدين تماما على العربية وأن العقلية وراء النص المراد نقله غير عربية، إذ يكون مكتوبا بالانجليزية في الغالب الأعم، وهذا ما يضمن الفصل بين *اللغة والفكر* والخروج عن داء الانشغال بالألفاظ الذي طبع النص العربي ردحا من الزمن.

إن النص العربي (المترجم) في الأمم المتحدة هو عربي المبنى لكنه عجمي المعنى، وقد كان ذلك واضحا تماما في الوثائق الأولى التي صدرت بُعَيْدَ دخول العربية الأمم المتحدة وكانت وكأنها نصوص عربية مكتوبة بالانجليزية نظرا لما كان يتخللها من الحرفية الشديدة، التي ذكرت من قبل والتي كان لها ما يبررها. وإن المبنى المتماسك ملائم لروح العصر والمعنى الجديد مفيد للعرب.

كما أن حسن الاستعمال يحافظ على اللغة ويعزز التفاهم الدولي.

العربية : الاعتبار القومي والبعد الأممي*

«لابد من الشعور بالنقص ولا بد من علاجه ولا بد من الثقة المستعادة عن علم أو عن بينة علمية، نعرف بها الحقيقة لننتفع بمعرفتها ولا نبتغي بها أن نسوقها مساق الفخر الذي لا سند له غير أنه يرضينا»

عباس محمود العقاد
(أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف)

جميل أن نذكر مآثر علماء العرب وفضلهم الذي لا ينكر على حضارة هذا العصر، إذا كان لهم السبق في عدة ميادين.

ورائع أن يلتفت العربي إلى لغته ويرى أن الأمة العربية هي الأمة الوحيدة التي نزلت فيها معجزة لغوية محكمة البنيان بديعة البيان متينة الأركان صامدة أمام الزمان، ألا وهي القرآن الكريم، مما يدل على عظمة هذه اللغة واتساعها للمعجزات. لكن هل انتفع العربي على مر العصور بتراثه وهل مازال العربي اليوم يحافظ على هذه اللغة وهل يرقى استعماله لها إلى أنسب الدرجات ؟

ثم أن دخول العربية الأمم المتحدة في عام 1973 كان حدثا هاما. فماذا تستفيده هذه اللغة من هذا الوضع ؟

(*) إن الآراء الواردة في هذه الورقة آراء شخصية.

1 – العربية والعقلية العربية

1 – 1 التركة العربية

إن عقلية العرب متجلية في لغتهم، كغيرهم من الأمم مع لغاتها. وفي هذا الموضوع كتب الكثير وقيل الكثير. وفي الوقت الحاضر، «تتميز العربية باستعصائها على المقارنة في لسانيات اللغات السامية نظرا لنحوها [الكامل بأتم معنى الكلمة] الذي يكاد يكون هيئة الجبر، كالشأن في الأوزان والصرف[1].

ومن ناحية أخرى، فإنه إذا كانت الفلسفة هي «معجزة» اليونان فإن علوم العربية هي «معجزة» العرب[2]. وقد انتشرت العربية من المحيط الأطلسي حتى حدود الصين. كما أنها كانت «اللغة العالمية الأولى منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت جامعاتها الكبرى قبلة طلاب الثقافة العالمية في أنحاء الأرض»[3].

«وإن جل ما كتب في العربية هو كتابات علماء ... وهناك ترجمات جليلة وهامة من الناحية التاريخية قام بها علماء في القرون الوسطى من اليونانية إلى العربية؛ ومؤلفات تاريخية ذات طابع عام وخاص؛ وتشكيلة من المؤلفات المستوحاة من الدين؛ وكتب في النحو والأسلوبيات والآداب والفلسفة.»[4]

ومن فرط غيرة العرب والمسلمين على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث والشريعة الاسلامية ، هبوا للدفاع عنها وصونها من كل شائبة أو مكروه ، لا سيما وقد بدأ اللسان العربي يخالطه التحريف الأعجمي وتعتوره لكنة غريبة عنه ويتزعزع بنيانه وتركيبه بعد أن امتدت رقعة الامبراطورية الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها والتقى العربي بالعجمي .

وقد أفضى ذلك إلى الحفاظ على العربية فأبقى على رونقها وروعتها وخلد ذكرها على مر العصور والدهور ، وإن أصابها شيء من السقم في عصور الانحطاط ، لا لعيب فيها وإنما لتقصير عند أهلها ولتواطؤ عند من يناوؤونها لشتى الأسباب . وقد امتدح العربية مستشرقون منهم لويس ماسينيون ويوهان فك وأربري ووليم مرسيه وميليه وريجستير بلاشير وبروكلمان وجورج سارطون – وغوستاف غرونيباوم وأرنست رينان وجورج بوست وفان ديك وفيلا سبازا[5].

و «كان النحاة [العرب] أيضا على يقين من أن إلمامهم الكبير ببنية النحو العربي كان له أهمية قصوى في الحفاظ على جمال الأدب [العربي] الذي يعتز به العرب وغير العرب»[6]

ولعبت العربية دورا في تحرير البلدان العربية من الاستعمار لاقترانها بالاسلام وبالهوية الوطنية .

وقد عرفت الأمة العربية علماء يعدون من العمالقة نبغوا في شتى فروع المعرفة معا وجمعوا بين حسنات كثيرة، فأضافوا إلى المعارف المنقولة عن اليونان أساسا ، ونشط بيت الحكمة الذي أسسه المأمون فأثرى التراث العربي وطعمه. إلا أن هؤلاء العلماء، وإن كانوا يقومون بتجارب منعزلة للوقوف على خفايا الأمور واستنباط النتائج ، فقد ظلت ممارسة العلم عندهم «تجري على الهامش بدون ضجة وبصورة فردية ومتقطعة»[7] «وظل العلم العربي، علم الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم، خارج مسرح الحركة في الثقافة العربية فلم يشارك في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه وفحص قبلياته ومسبقاته، فبقي الزمن الثقافي العربي هو هو ممتدا على بساط واحد من عصر التدوين إلى عصر ابن خلدون، وركد هذا الزمن وتخشبت موجاته منذ عصر ابن خلدون إلى «النهضة» العربية الحديثة التي لم تتحقق بعد»[8].

وكان هذا على عكس الثورة الصناعية

والتكنولوجية التي شهدها ويشهدها الغرب والتي شملت كل مناحي الحياة وداهمت بيوت الناس، فالعالم جزء لا يتجزأ من المجتمع يعيش عصره ومع عصره، يؤثر على غيره ويتأثر بهم.

ويمكن القول أن غير العرب قد استفادوا من علماء العرب أكثر مما فعله العرب. فهؤلاء العلماء كانوا يزاولون نشاطا فكريا وعلميا حبا في العلم ولوجه المعرفة، لالتسخيره لخدمة المجتمع آنئذ ورقيه، إلا قليلا. وكانوا بذلك بعيدين عن الواقع.

ومن الأندلس، خصوصا، عبرت هذه العلوم إلى الغرب، فنقلوها ودرسوها واستغلوها.

وفي المقابل، ازدهرت علوم اللغة والكلام والمنطق عند العرب، وعمت المجتمع تيارات لغوية هدفها النهائي تفسير القرآن الكريم والتأويل أو التشيع لمذهب. وقد وضعت مصنفات ذات شأن في اللغة والعلوم المرتبطة بها وظهر علماء كبار مثل الغزالي وابن حزم وابن رشد وابن طفيل والفارابي وأبو بشر متى بن يونس وابن السراج والجاحظ وابن وهب والقاضي عبد الجبار وابن جني وابن فارس وابن هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وأبو عبيدة والغراء، وغيرهم كثير.

واهتم العرب بالبيان وبالدلالة وأنواع تركيبها وبالفصاحة ومناهجها والبلاغة وأسبابها وضروبها. وانشغل الفقهاء ورجال الدين باللغة مثلما انهمكوا في أمور الدين، خدمة لهذه الأمور. ولقد ميزوا بين أنواع الخطاب، وبين التبين والفهم والتلقي والتبيين والافهام والتبليغ. وكان في كلامهم دقة وإمعان. واهتموا بالخطاب وصنفوه إلى صنفين «أحدهما يتصل بنفس الخطاب وموضوعه» [منظومة الخطاب] و«الآخر بما يدل عليه من الأحكام العقلية والسمعية» [معقول الخطاب](9).

وفيما يلي طائفة من أقوالهم تدل على مدى هذا الاهتمام ومدى الدقة والامعان :

«اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة»
(القاضي عبد الجبار)

وإن «الكلام يرجع في نهاية التحليل إما إلى إخبار المتكلم السامع عن شيء وإما إلى طلب شيء منه : الخبر والطلب».
(أبو يعقوب السكاكي في مفتاح العلوم)

و «أما علم البيان فهو معرفة إيراد المعني الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»
(أبو يعقوب السكاكي في مفتاح العلوم)

و «إن مدار الأمر على البيان والتبين وعلى الافهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم»
(الجاحظ، البيان والتبيين)

ويحتاج البيان إلى «تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة» و «إلى تمام الآلة وأحكام الصنعة»
(أبو عثمان الجاحظ)

و «لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضهم ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»
(عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز)

نرى إذن أن بعضهم ممن اهتم باللغة لم يفهم ما للفهم والافهام من أهمية وأن الكلام لا بد أن يكون موزونا ذا معنى.

لكن شدة الولوع بالنص قد جعلت النص محورا للتفكير العربي. ومما «يثير الاستغراب حقا أن لا يصادف المرء بين تلك الأبحاث والمناقشات الواسعة المتشعبة التي تزخر بها كتب اللغة والفقه والكلام والبلاغة حول أصل اللغات والمفاضلة بين اللفظ والمعنى وتحديد العلاقة بين نظام الخطاب ونظام العقل إلخ .. أي اهتمام بعلاقة اللغة بالفكر، هكذا بصورة أشمل وأعم، ولا أي اهتمام بدور اللغة في عملية التفكير. والسبب في هذا واضح أن غياب الاهتمام بعلاقة اللغة بالفكر راجع هنا إلى غياب الاهتمام بعملية التفكير ذاتها مستقلة عن الألفاظ واللغة. فلم يكن البيانيون، على اختلاف نزعاتهم وتنوع اختصاصاتهم، يشغلهم السؤال : كيف نفكر؟ إن السؤال الذي كان يملك عليهم كل حقل تفكيرهم هو : «كيف البيان؟»»(10).

لهذا، فإن «العقل العربي قد تكوَّن، أساسا من خلال التعامل مع النص (في التفسير واللغة والكلام)»(11)

لذا، «فتكوين العقل البياني إنما يتم عبر حفظ النص والنظر في النص وبالتالي فاهتمامه سيتركز أساسا على «نظام الخطاب» وليس على نظام العقل.»(12)

ومن المؤسف أنه لم «يكن في إمكان العقل البياني أن يتقدم أكثر مما فعل ... إن الانجاز العظيم الذي حققه في مجال اللغة والفقه لم يكن فقط عبارة عن قوانين للغة والتشريع يجب التقيد بها، بل كان أيضا عبارة عن قيود للعقل .. عن تأطير له، أعني تثبيت آليات نشاطه في إطار معين لا يجوز اختراقه. وعندما اكتمل البناء في اللغة والتشريع و لم يعد هناك مجال للمزيد اكتمل البناء أيضا في مجال التشريع للمشرع فأصبح العقل البياني العربي سجين هذا البناء الذي طوق نفسه، فلم يكن من الركود مناص ولا من «التقليد» مفر»(13).

وبعد أن انقضى عصر التدوين ووضعت المصنفات الكبرى، بدأ الاجترار وكانت «النتيجة ظهور أنواع من تراكيب الكلام لا تحمل أي معنى، ولكنها تقرأ وتسمع على أن لها معنى. وتلك هي السمة البارزة في أدبيات عصر الانحطاط في الثقافة العربية، العصر الذي بدأ مباشرة بعد السكاكي والذي اتجه فيه الاهتمام إلى المحسنات اللفظية في الثقافة العربية»(14).

ففي حين أن النحو العربي محكم التركيب ومقرون بالمنطق ومتفاعل معه، وفي الوقت الذي تزخر فيه العربية بالمفردات التي تتبع نسقا محكما ودقيقا للتعبير عن المدلولات، يلاحظ أن العرب توغلوا في متاهات النص وأغرموا بالألفاظ إلى أن أصبح اللفظ هو المبتغى وهو المراد.

وقد ساعد على ذلك أن العربية لغة موسيقية حتى «إن النغمة الموسيقية في اللغة العربية تعوض، أو تُغطي فقر المعنى، وتجعل الكلام الذي يجر معه فائضا من الألفاظ ذا معنى حتى ولو لم يكن له معنى. إن الأذن هنا تنوب عن العقل في الرفض والقبول»(15).

إلا أنه «كما يعطل السجع، وبكيفية عامة الانشغال بنظام الخطاب، الرقابة العقلية لدى المستمع يعطلها كذلك لدى المتكلم. فعندما ينشغل المتكلم بإلباس كلامه ما يستطيع من المحسنات اللفظية يكون ذهنه مسرحا لنوعين من التداعي : تداعي الألفاظ وتداعي المعاني»(16).

وهذه بالذات، الحالة التي تتخبط فيها خطب العرب ومراسلاتهم اليوم، على العموم.

ولقد كانت التقاليد صارمة إلى حد أن القارىء لا تصله سوى لمحات قليلة من أحاسيس الشاعر. وبالفعل، فإن تلك الأحاسيس كان يغربلها العقل، وكانت التجارب الشخصية تحول إلى نوع من

الزخرفة العربية المتكلفة. هكذا، أصبح الأدب [العربي] على يد بعض النظّام والكتّاب العاديين متصنعا تماما»(17).

1 - 2 القديم والجديد : صراع متجدد

القديم هو الجديد في وقت من الأوقات وكل جديد مصيره إلى القدم. لكن، كلما هم أحد بالاتيان بشيء غريب عن المألوف وأي جديد اصطدم بمن يخشى على قدميه. ولا بد من التجديد للتطور، شريطة أن يكون في الجديد تحسين وتحسن.

وبالنسبة للغة العربية ظل «الذهن العربي مشدودا، إلى اليوم، إلى ذلك العالم الحسي اللاتاريخي الذي شيده عصر التدوين اعتمادا على أدنى درجات الحضارة العربية عبر التاريخ، حضارة البدو الرحل التي اتخذت كأصل ففرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء، قوامها : الحكم على الجديد بما يراه القديم»(18).

وقد نودي بالاعتماد على الشعر الجاهلي حتى لتفسير القرآن بحكيم آياته وجليل معانيه. قال الطبري :

«إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروا في الشعر ، فإن الشعر عربي»(19).

وقال ابن عباس :

«إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب»(20).

ولقد شغل العرب بالقرآن الكريم، وعنوا بتفسيره وحياطته، وكان أساسا لكثير من علوم العربية»(21).

وحاول بعض الشعراء، مثل بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام، أن يخرجوا عن قاعدة الأقدمين فانبرى لهم النقاد، مثل ابن طباطبا وابن فارس، وهاجموهم أشد ما يكون الهجوم. لكن، بعض علماء العرب تشككوا في عصمة القدماء من الخطأ، ومن هؤلاء العلماء الجرجاني(22) والآمدي وابن قتيبة(23) الذي يقول :

«... ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه».

واشتدت الخصومة بين أنصار القديم ودعاة الجديد وفيما بين الشعراء. وكانت تلك الخصومة «شخصية بعيدة عن الأسباب الفنية أذكتها عوامل لا علاقة لها بالتقاليد الأدبية»(24) أو كانت مذهبية و «كانت سببا في كثير مما وصل إلينا من النقد اللغوي»(25)

و «لقد وقر في نفوس المتقدمين من النقاد بوجه خاص أن العربية لغة استغرقت حظها من النضج، وبلغت أعلى مراتب الكمال، فلم يبق من واجب على أهلها والمتكلمين بها إلا حمايتها والدفاع عنها وتخليصها من كل ما يندس فيها أو يطرأ عليها.»(26)

وبهذا يحكمون على العربية بأن تكون لغة قديمة إذ لا تتجدد.

1 - 3 العربية والعرب اليوم

1 - 3 - 1 القديم والجديد من جديد

في العصر الحديث، ظهر مفكرون عرب بعضهم رأى التجديد في استعمال العاميات في الكتابة والقراءة وطائفة ثارت على القديم، ومنهم طه حسين الذي دعا إلى تطوير النحو وارتأى أن «اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها»(27).

وأحمد أمين الذي كان مذهبه «أن اللغة ملك لنا ولسنا ملكا للغة»، في حين أن غيرهما يرى أن اللغة العربية لا تقبل «إصلاح قواعدها بالازالة والوضع فيها، أو الوضع فقط، لأن هذا التغيير يخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية العربية الدينية والفلسفية والعالمية»(28).

ومن الذين دعوا إلى «التجديد» ومن الذين يسميهم أنور الجندي «أعداء العربية»(29) : لطفي السيد (1913) و قاسم أمين (1912) والخوري مارون غصن (1926) وعبد العزيز فهمي (1944) والزهاوي (1910) وسلامة موسى (1926) وسعيد عقل (1961) وأنيس فريحة/ وأمين الخولي (1955) ولويس عوض (1947).

ومن المفرح حقا أن الفصحى نجت من براثن العامية، وأصبح المثقفون العرب يميلون إلى تفصيح هذه الأخيرة في كلامهم اليومي ومعاملاتهم ولقاءاتهم. وقد دخلت الفصحى البيوت أيضا بواسطة الاذاعة والتلفزة. ولا يمكن أن ينكر أن اللغة العربية قد قفزت قفزة كبيرة في أيامنا هذه انطلاقا من القرن التاسع عشر، إلا أن الوضع ما زال غير مثالي. وفيما يلي بعض وسائل العلاج المقترحة.

(أ) جودة الكتابة : من الضروري اتخاذ قرارات رسمية تقضي بتوخي الجودة في المراسلات والكتابات في البلدان العربية على غرار بعض البلدان، مثل فرنسا، حرصا على اللغة والسهر على تنفيذ تلك القرارات.

(ب) تعدد السلطات اللغوية : الملاحظ أن السلطات اللغوية في العالم العربي متعددة وأنها غير قادرة على مواجهة الوضع نظرا لضآلة ميزانياتها وشح إمكاناتها. من الضروري إذن زيادة قدرة مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وأن يشتد عضد مجامع اللغة العربية.

(ج) الانبهار بالثقافات غير العربية : هذا الاعجاب يعود إلى شتى الأسباب منها مخلفات الاستعمار والمنزلة الاجتماعية ولا عيب فيه إن لم يصاحبه حط من شأن العربية وتراثها، علما أن «الثقافة العربية في مجملها تراث هائل ومجهول وأرض مفقودة»(30) و «هل العربية من الآن لغة الماضي؟ كلا ثم كلا. إن العربية ستصبح عملية، وهي كذلك بالفعل في كثير من القطاعات»(31). لقد آن الأوان أن ينظر العربي نظرة فاحصة إلى الوراء وعليه أن يعتز بلغته. ولا ضير أن يتعلم لغات أخرى ليتفتح على حضارات وعقليات أخرى.

(د) مستوى التعليم : من الضروري رفع مستوى التعليم وزيادة تعريبه لتكون العربية لغة الاستعمال والتداول، لا سيما في مستوى الجامعي، إذ أن مرحلة البحث العلمي تستلزم الدقة والمنهجية العلمية السليمة.

(ه) النحو وتعليم العربية لغير العرب : ينبغي إعادة تبويب النحو العربي وتيسير تلقينه وكذلك تشجيع الأجانب على تعلم العربية بالوسائل السمعية — البصرية المتطورة(32).

(و) أزمة المصطلح : من اللازم زيادة التنسيق وإصدار قاموس جامع يميز بدقة بين ركام المترادفات التي أصبحت عالة على اللغة العربية كجزء من التركة اللفظية التي سبق الكلام عنها.

(ز) الصحافة العربية : يمكن أن تلعب الصحافة دورا هاما، لا سيما في تفصيح العامية أو، بمعنى آخر تبسيط الفصحى لجمهور الناس والمثقفين.

2 البعد الدولي

2 - 1 دخول العربية الأمم المتحدة

2 - 1 - 1 الفصل بين اللغة والفكر

دخلت اللغة العربية، لغة الأدب المرموق ولغة المساجلات اللفظية، الأمم المتحدة في ظرف زمني كان مواتيا لدخولها. وكان الاحتكاك اليومي باللغات الخمس الرسمية الأخرى، وهي الاسبانية والانجليزية والروسية والصينية والفرنسية. ويتميز الوضع في الأمم المتحدة بالآتي :

(أ) المواضيع علمية ومتخصصة وكثيرة التنوع ومن اللازم توخي الدقة العلمية.

(ب) المفاهيم جديدة في معظمها، إذ أن الاجتماعات تناقش قضايا الساعة.

ولا بد من مفردات جديدة للتعبير عن المدلولات الجديدة.

(ج) كانت الحرفية الشديدة تطبع وثائق الأمم المتحدة في بداية الأمر، وهذا مرده إلى ضرورة التخلص من الفوضى اللفظية التي اعتدت اللغة في عصور الانحطاط ولتحديد الفوارق تدريجيا، علما أن «من اللازم الآن أن يتسنى للمنظمة، إذ تعددت المواضيع التي يتم تناولها، أن تعطي لكل مدلول لفظا يدل عليه بالضبط»[33]، وهذا بالنسبة لكل اللغات الرسمية. ولقد ذهب البعض إلى «أن استعمال العربية في الجمعية العامة سوف يحد من تأثير العرب، ذلك أن البيانات التي يدلى بها بالانجليزية أو الفرنسية سوف تكون أنجع من الخطب التي تلقى بالعربية، والتي يضطر معظم الوفود إلى تتبعها عن طريق الترجمة الفورية»[34]. وهذا غير صحيح من ناحية ، ذلك أن هناك ترجمة فورية من الانجليزية والفرنسية أيضا، وليس فقط من العربية، وكثير من الوفود لاتجمع بين الانجليزية والفرنسية. ومن ناحية أخرى، هناك نقطتان : نوعية الخطاب العربي ونوعية الترجمة الفورية من العربية وهما مترابطتان ترابطا كبيرا. وإذا كان لا بد من أن يكون الترجمان (أي المترجم الفوري، وجمعه تراجمة) متمكنا من مهنته، فإن الخطاب هو المحور الأساسي والمنطلق. ومن المعلوم أن الترجمة الفورية ترتكز أساسا على المعنى والفحوى، فإذا كان الخطاب «لا يحمل أي معنى ولكنه يقرأ ويسمع على أنه له معنى» ، فإن نقله سيستعصي على الترجمان حتما، لأنه ستلهيه الألفاظ. بيد أن الوثائق التي تصدر بالعربية عن الأمم المتحدة تقيم الدليل على أن هذه اللغة قادرة على مسايرة اللغات الأخرى في كل الميادين، نظرا للخصائص التي تمتاز بها. ولئن دخلت العربية، في فترة ما، في متاهات لفظية، فإن اقترانها بالقرآن الكريم قد صان بنيانها وأوصلها إلينا مكتملة الأركان، رغم العيوب المذكورة آنفا.

نرى إذن أن المعنى في اجتماعات ومؤتمرات الأمم المتحدة هو الجوهر، من مواضيع اجتماعية مثل منع الجريمة ومكافحة المخدرات ومساعدة المعوقين والشيخوخة والنهوض بالمرأة، ومواضيع علمية مثل الطاقة الجديدة والمتجددة واستعمال الطاقة النووية في الأغراض السلمية، ومواضيع قانونية متخصصة في مجال القانون الدولي والقانون التجاري الدولي، إلخ.

ومع ذلك، فإن كثيرا من المناقشات العربية تدور حول الألفاظ في مؤتمرات ذات مواضيع هامة.

وإن المترجم العربي في الأمم المتحدة مبلغ للأفكار، فإذا اكتفى بالترجمة الحرفية الركيكة المجردة من المعنى فإنه يكون قد قصر. وكثيرا ما يضع الخبراء التقارير في غير لغاتهم، أحيانا في أسلوب غث، دون الاكتراث كثيرا بالنص. ومع ذلك، فلا بد أن يهتم المترجم العربي بالنص الذي يجب أن يكون مفهوما وسلسا ودقيقا في تأدية المعنى المقصود.

لذا، فإن من خاصيات الأمم المتحدة، عموما، ولا سيما في الأمور العلمية المتخصصة، *الفصل بين النص والتفكير*، أو اللغة والفكر، وإن كانت بعض الخطب في ميادين غير علمية تأخذ طابع «الاجترار» والتكرار في اللغات الست.

وفي الأمم المتحدة، لا سيما عند المترجم العربي، نوع من التحرر من العقل العربي لأن وراء النص المراد نقله تفكيرا غير عربي. وهذا من حسناتها على اللغة.

الحواشي

(1) Bernard Coorie, Major World's Languages, Croom Helm, London, 1987

(2) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987.

(3) علي عبد العظيم (عن عالمية اللغة العربية) مجلة الأزهر سنة 1392/1391 . عن أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، الموسوعة الاسلامية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(4) The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Islamic Literatures, Vol. 9 P. 954, 1984.

(5) أنظر أنور الجندي، المرجع السابق الذكر، للمزيد من التفاصيل.

(6) Encyclopaedia Britannica، المرجع السابق الذكر.

(7) م.ع. الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(8) المرجع نفسه.

(9) القاضي عبد الجبار، عن م.ع. الجابري، المرجع السابق الذكر.

(10) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1987.

(11) المرجع نفسه.

(12) المرجع نفسه.

(13) المرجع نفسه.

(14) المرجع نفسه.

(15) الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(16) الجابري، بنية العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(17) The New Encyclopaedia Britannica ، المرجع السابق الذكر.

(18) الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

اللسان العربي يحكي قصة نشأة الانسان و اللسان.

الدكتور جعفر دك الباب

أولا ــ خصائص بنية العربية تدل على أصالة اللسان العربي .

1 . 0 . حين نصف لسانا ما بالأصالة نقصد أنه يتوافر فيه عنصران هما : الايغال في القدم من ناحية ، والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى . وعليه فإن بنية اللسان الأصيل بهذا المعنى يجب أن تتمتع بجملة خصائص من حيث المفردات والأصوات والصرف والنحو تشير إلى إيغاله في القدم . ***وأول قرينة على إيغال لسان ما في القدم هي وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان والطبيعة*** ، لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة . ويؤكد بالتالي بدائية نشأة ذلك اللسان .

1 . 1 . ومن خلال استعراضنا ***لخصائص النظام اللغوي للعربية*** توصلنا إلى النتائج التالية :

(1) ــإن الخاصة المميزة للبنية الصوتية العربية (التي تتجلى في المبدأ التالي : لاوجود بشكل منفصل للصوت الصائت ــ القصير أو غير القصير أي الحركات والمدات ــ عن صوت صامت يلفظ قبله ويتصل به) تعكس طور محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة [1] ، وتؤكد بالتالي بدائية نشأة اللسان العربي .

(2) ــانعكست الخاصة المميزة للبنية الصوتية للعربية في الكتابة العربية وتجلت في أنها ليست مقطعية كما أنها ليست أبجدية تماما[2] .

(3) ــانعكست الخاصة المميزة للبنية الصوتية للعربية في طريقة تحديد أصل الكلمات في العربية . وظهر ذلك في تمتع البنية الصوتية لمعجم مفردات العربية بخاصة مميزةتجلت في أن أصل المفردات في المعجم العربي يتحدد على أساس الأصوات الصوامت التي يشتمل عليها فقط[3] . وبدا يطرح المعجم العربي سؤالا حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان والطبيعة .

ونستنتج من ذلك كله أن اللسان العربي لسان أصيل بدائي النشأة .

(*) قدم هذا البحث في المحاضرة التي ألقاها المؤلف في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق يوم 05 أيلول (سبتمبر) 1988 وعنوانها : *نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة (اللغة العربية أصل قائم بذاته)* .

1 . 2 . كتب **الأستاذ زكي الأرسوزي** عن منشأ اللسان العربي مايلي :

«اللسان العربي اشتقاقي البنيان ، ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية ـــ مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة .

ا ـــ عن الطبيعة الخارجية تقليدا للأصوات الحاصلة فيها مثال ذلك :
(قرّ) (فقّ) (خرّ) (زمّ) .

ب ـــ أو عن الطبيعة الانسانية بيانا لمشاعرها ، مثال ذلك :
(أنّ) (أهّ)»(4)

«وأما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعا إلى أصوات الطبيعة ... وفضلا عن أن اللسان العربي بدائي النشأة ، فإن كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفويا من انبثاق المعنى دون طائلة العقل . هذه الحقيقة تدل عليها أمور مختلفة ، منها أن أصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير إلى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة ، ونحن نستخلص من ذلك أن معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلا مستقلا عن اجتهاد المجتهدين . فما للذهن إلا أن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي أنشأها»(5) .

وعن خصائص اللغة العربية كتب الأستاذ زكي الأرسوزي : «إنه لمن الثابت بحكم التاريخ أن اللغات الافرنسية والايطالية والاسبانية قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية ، وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية اجتماعية . وإنه لمن الثابت بحكم التاريخ أيضا أن اللغة الافرنسية هي لهجة منطقة باريس ، المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها السياسي والثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع أمامها فتندثر .

وإنه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الأخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها إلى للغة الأم التي هي لغة سامية بائدة ، وإن ثمة لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش ، لهجة الديانة والسياسة ...

إن الكلمات العربية ذات أصول في الطبيعة ، وإن مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة . ثمة خطأ شائع بين اللغويين وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة ـــ علاقة اصطلاحية . بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط . بيد أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به إيحاء حتى أن اتجاه المعنى هو اتجاه المتغلب على اللفظة مما يجعل صاحبه أكثر استعدادا من غيره لفهم الأخلاق والديانة . إنما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه(6) .

1 . 3 . أوجد ***الأستاذ عبد الحق فاضل*** في كتابه «مغامرات لغوية (ملكة اللغات)»(7) فرعا جديدا في علم اللسان سماه (الترسيس) ويميز الأستاذ فاضل دراسة أصول الكلمات أو التأثيل Etymology عن الترسيس . فالترسيس هو إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى في صورتها التي نطق بها الانسان الأول (البدائي) تقليدا لأحد الأصوات المسموعة مثل محاكاة أصوات الطبيعة أو الحيوانات ، مع تعقب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها في إحدى اللغات أما التأثيل (أي دراسة أصول الكلمات) فهو رد الكلمة إلى أمها المباشرة أو جدتها المباشرة أو القريبة .

وكان الأستاذ فاضل قد ذكر أمثلة عن الترسيس في مقالته بعنوان : «آثار حيوانية في اللغة العربية(8)» .

يرى الأستاذ فاضل «أن اللغة العربية مازالت تحتفظ بالألفاظ البدائية — الرسية — الأولى إلى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها . فهي لذلك تمكننا من إقامة علم (نشأة اللغة) على أركان وطيدة بالطريقة الترسيسية . وهي وحدها تمدنا بمادة (علم الترسيس) . بينما جميع بناتها الساميات والحاميات والآريات وغيرها من لغات بني آدم لا تكفي إلا للتأثيل[9]» .

كما يرى الأستاذ فاضل أنه «لما كان الترسيس هو الأساس الذي سيقوم عليه علم (نشأة اللغة) وما يتصل به من علوم اللغة ، وبما أن الترسيس سيهدم كذلك بعض النظريات اللغوية وتطوراتها وتفرعاتها وهجراتها ستكون الأساس المكين لعلم (فقه اللغة) العالمي العام الذي سيعاد النظر فيه بجملته ومختلف فروعه ويعاد تخطيطه وتشييد صرحه على تصميم جديد من قوانين اللغة العربية وإيحاءاتها . وسيتضح كم سيرتقي (علم اللغة) ويصحح الكثير من أخطائه ويقضي على الكثير من تلكئه هنا وتردده هناك . وبأي سرعة ، حالما يأخذون بسلوك الطريق الاستقرائي العلمي الصحيح في دراسته ابتداء من اللغة العربية[10]» .

وكتب الأستاذ عبد الحق فاضل مقالة بعنوان : «حول (المغامرات اللغوية)»[11] جاء فيها «المعروف أن اللغات البدائية هي التي يقرب الشبه بين ألفاظها والأصوات الطبيعية التي نشأت منها . أما اللغات الراقية فقد ذهبت أصواتها وبقيت الكلمات الحضارية الراقية التي تولدت منها ، لا سيما وأن الأمم المتحضرة قد تنقلت منذ أقدم العصور من مكان إلى مكان واختلطت لغاتها بغيرها . ولكن العربية وحدها تقدم لنا أرقى الكمات الحضارية والثقافية مع الحلقات المتسلسلة التي تقودنا إلى البدايات الأولى . وسبب ذلك هو الظروف الفريدة التي تلابس الجزيرة العربية ، فقد بقي وسطها الرملي المجدب محافظا على حياة البداوة والبدائية على حين راحت أطرافها المتحضرة تصنع من تلك الخامة اللغوية مفردات حضارية باذخة ، وإذ بهذه العربية تغذو لغة الراعي والفيلسوف في وقت واحد» .

وأشار الأستاذ فاضل في تلك المقالة إلى أن العلماء قرروا أن اللغة البشرية تكونت من أصول خمسة بوجه العموم نجدها كلها صريحة واضحة في العربية ، على حين أن أية لغة حية أخرى لا توجد فيها إلا بعض هذه الأصول إن وجدت . والواقع أنهم إنما توصلوا إلى هذه الأصول الخمسة من استقراء عدد غير قليل من اللغات البدائية التي لا تزال تحتفظ بجذورها الصوتية لعدم ارتقائها وابتعادها عن صورة ولادتها . وهذه الأصول الخمسة هي :

1 - محاكاة أصوات الطبيعة : وكمثل نذكر صوت الماء (شلشل) ومنه ترشرش الماء ، ثم رش ورشاش ، ثم رذ ورذاذ ، ثم رذر وذرى ومذارة وذرة ...
2 - تقليد أصوات الحيوانات : ونذكر من الأسماء التي سميت بأصواتها : البلبل واللقلق والجدجد والصرصر .
3 - تقليد الأصوات المصطنعة : أي الأصوات التي يحدثها الانسان في بعض أعماله ، مثل صوت القطع (قط) و (وضج) و (طق) .
4 - تقليد الانسان لنفسه : في الأصوات الطبيعية التي تصدر عنه تلقائيا في مختلف حالاته ، مثل (قهقه) و (قاء) و (أنّ) و (عطس) .
5 - تقليد أصوات الطفل : (لغ لغ)و (بابا) و (تاتا) و (دادا) . إننا نرى أن الأستاذ عبد الحق فاضل بنى نظريته القائلة بأن اللغة العربية (ملكة اللغات) بعد دراسة صوتية مقارنة للفظ كلمات مفردة في عديد من اللغات بالطريقة

الترسيسية . وقد سمى كتابه (مغامرات لغوية) لأن النظرية التي يقترحها تحتاج من أجل تدعيمها إلى الكشف عن حقائق في اللغة العربية نفسها تؤكد أنها اللغة الانسانية الأولى ، وتبين نشأتها ومراحل اكتمال نظامها اللغوي . دفعتنا آراء الأستاذ عبد الحق فاضل (الجريئة) – ولا نقول (المغامرة) – إلى طرح السؤال التالي : ***هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي بداية تشكل الكلام الانساني؟*** للاجابة عن هذا السؤال لابد من **دراسة نشأة الألسن دراسة موضوعية ، انطلاقا من دراسة الأصوات اللغوية وباعتماد منهج تاريخي علمي .**

ثانيا : السامية والساميون – العرب والعربية .

2 . 0 . صنف العلماء بنتيجة الدراسات المقارنة التاريخية اللغات حسب منشئها إلى أسر لغوية معروفة ، ثم قسموا الأسر إلى مجموعات وفصائل وشعب ، ولكن ما يلفت الانتباه أنه تم تمييز أسرة سميت «اللغات السامية» وأسرة أخرى سميت «اللغات الحامية» ويدمج بعض العلماء الأسرتين في أسرة واحدة يسمونها «اللغات السامية – الحامية» . وقد استخدمت تسمية «السامية» و «الحامية» استنادا إلى شجرة أنساب الأمم الواردة في التوراة والتي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث / سفر التكوين ، الاصحاح العاشر / . واعتبرت اللغة العربية فرعا من أسرة اللغات السامية . وكان العالم الألماني شلوتسر أول من استخدم تسمية «السامية» في بحث له عن الأمم القديمة عام 1781 . وقال أن معظم الشعوب والأمم التي تكلمت وتتكلم هذه اللغات هي من أولاد سام بن نوح .

وتجدر الاشارة إلى أن العماء الذين صنفوا اللغات في أسر بحسب قرابتها لم يستطيعوا أن يثبتوا تاريخيا وجود اللغة الأصل أو الأم لكل أسرة ، كما أنهم لم يتمكنوا من إثبات وجود الشعب الذي تكلم بها ، بل اكتفوا بافتراض وجود اللغة الأصل ووصف صفاتها العامة المستنبطة من التشابه بين اللغات التي تدخل في كل أسرة لغوية .

فمن خلال تحديد التشابه بين اللغات التي صنفت ضمن أسرة اللغات الهندية الأوربية مثلا ، افترض وجود لغة هندية أوربية أصل أو أم لجميع تلك اللغات . وكذا الحال بالنسبة للغات التي تدخل في الأسرة السامية – الحامية أو في بقية الأسر اللغوية .

يذكر الدكتور فيليب حتي أن «لفظة سامي مأخوذة من سام الوارد ذكره في التوراة . ولقد دخلت إلى اللغات الأوربية عن طريق الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة . إن التفسير التقليدي المألوف الذي يذهب إلى أن الساميين قد تحدروا من كبير أبناء نوح لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة . فمن هم الساميون إذن؟»(12) .

ويبين الدكتور حتي معنى لفظة / سامي / في الغرب بقوله : «ولقد أصبحت لفظة / سامي / في أوربا وأمريكا ذات مدلول يهودي قبل كل شيء ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود في هاتين القارتين» .(13)

وحول موطن الجنس السامي – الحامي يقول الدكتور حتي : «وهذا يجعل إفريقية الموطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه ، أما الهلال الخصيب فهو مرتع الحضارة السامية»(14) .

أما الدكتور جواد علي فيشير إلى أن السامية ليست عرقا ويقول : «السامية ليست رسا بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء ، أي جنس له

خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى . فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل إطلاق / الرس / عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من / علم الأجناس / ، أو الفروع العلمية الأخرى نوعا من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تباينا في داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية[15]» .

ظلت الآراء مضطربة ومختلفة حول الأصل المشترك للغات السامية ، ولم يعرف العلم الكلمة الأخيرة في ذلك . فبينما تعتبر اللغة العربية آخر لغة سامية على الاطلاق ظهرت كتابيا لا يمكن الاستغناء عنها لدى كل دراسة لغوية مقارنة . بلى هي الأساس الأول والأخير لتحديد خصائص اللغة السامية الأم التي يفترض وجودها نظريا . فما السبب ياترى؟ وهل يعني ذلك أن اللغة العربية من أقدم ما يسمى باللغات السامية على الاطلاق؟

2 . 2 . يقول الدكتور فيليب حتي : «لفظة العرب من ناحية الاشتقاق سامية معناها (البادية) أو (ساكن البادية) وهي لا تعين قومية صاحبها . وهذا هو المعنى الذي أدته في العبرانية . وفي القرآن الأعراب هم البدو . وفي سفر المكابيين الثاني جاءت كلمة (العرب) بمعنى (البدو) . وأول نص صريح لمعنى هذه اللفظة في التوراة إنما هو في / ارميا 25 : 24 / (ملوك العرب) . وغالب الظن أن (الملوك) المشار إليهم هم مشايخ الشمال وبادية الشام . وما أقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صار هذا اللفظ يطلق على ساكن الجزيرة كائنا من كان ...[16]»

ويقول الدكتور جواد علي : «وترى علماء العرب حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية . فبينما يذهبون إلى أن (يعرب) كان أول من أعرب لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي أنهم يرجعون عهده إلى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلق (يعرب) بالطبع بزمان طويل . ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل . ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاما ، وكان أول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن أربع عشرة سنة ، وإسماعيل هو جد العرب المستعربة على حد قولهم ...[17]» .

ويتابع الدكتور جواد علي فيقول : «وخلاصة ما تقدم أن لفظة (ع ر ب) هي بمعنى التبدي والاعرابية في كل اللغات السامية ، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا وهي النصوص الآشورية . وقد عنت بها البدو عامة مهما كان سيدهم أو رئيسهم . وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم . ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب توسعوا في استعمال اللفظة حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية وأن حياتهم حياة أعراب . ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم فصارت علمية عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها . وأطلق لذلك كتبة اللاتين على بلاد العرب لفظة ARABE ARABIA أي (العربية) بمعنى بلاد العرب[18]» .

ويقول الدكتور جواد علي : «اتفق الرواة وأهل الأخبار ، أو كادوا يتفقون ، على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة وعرب متعربة وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة وعرباء وهم الخلص ، والمتعربة . واتفقوا ، أو كادوا يتفقون ، على تقسيم العرب من حيث النسب إلى

قسمين : قحطانية منازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز . واتفقوا ، أو كادوا يتفقون ، على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة . فهم الأصل والعدنانية الفرع ، منهم أخذوا العربية وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل فتكلم بالعربية بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الارمية أو الكلدانية أو العبرانية على بعض الأقوال»[19] .

2 . 3 . حصلت عام 1973 على درجة الدكتوراه في علم اللغة المقارن التاريخي من جامعة موسكو ، وناقشت فيها رسالة عنوانها «مبادىء الدراسة المقارنة لترتيب الكلمات في اللغة العربية الفصحى واللغة الروسية الأدبية المعاصرة» . ولقد اتضحت لي بعض الحقائق الجديدة حول النظرية السامية منذ بدأت عام 1968 بإعداد رسالة الدكتوراه . ومنها ادعاء بعض المستشرقين أن صلة العربية الجنوبية بالعبرية أقوى من صلتها بالعربية الشمالية . ويرجع السبب في ذلك الادعاء إلى أن المستشرقين جميعا كانوا – حين يحللون الكتابات العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) – يكتبونها أولا بالأحرف العبرية ثم يترجمونها إلى لغاتهم . ثم جاء الأكاديمي كراتشكوفسكي وقرر أن من الأفضل كتابتها بالأحرف العربية لأنها أكثر ملاءمة من الأحرف العبرية لخصائص البنية اللغوية للعربية الجنوبية .

وتابعت دراسة الموضوع بعد عودتي إلى الوطن ، فنشرت عام 1981 بحثا عنوانه : «السامية والساميون – العرب والعربية»[20] أكدت فيه أن تاريخ الأمة العربية ولغتها قد تعرضا لتشويه وتزييف خطيرين . فاضطررنا لدى تدريس تاريخنا إلى الاعتراف بأن العرب من الشعوب السامية . وأخذنا نتحدث عن الهجرات السامية في أول الأمر ، ثم عمدنا إلى القول بأن العرب هم الساميون ، فصرنا نقول «العرب الساميون» ونتحدث عن «الهجرات العربية السامية» . وكذا الحال بالنسبة للغة العربية . فأخذنا ندرس طلبتنا أن اللغة العربية من أسرة اللغات السامية .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن لفظة «سامي» – كما أشار الدكتور فيليب حتي – ذات مدلول يهودي قبل كل شيء في أوربا وأمريكا ، يكشف لنا أننا كنا طوال سنوات عديدة نتبنى ونردد حقائق زائفة ليس لها أي سند علمي ، ولا تستند إلا إلى التوراة التي تعتمد عليها الصهيونية في تأييد مزاعمها حول الحق التاريخي لليهود في فلسطين وبقية الأقطار العربية . وأصبح العرب والحالة هذه في وضع شاذ غريب لا مثيل له في التاريخ . فنحن نعترف أننا ساميون وأن لغتنا العربية من اللغات السامية . ويفهم العالم وخاصة في أوربا وأمريكا أن السامي هو اليهودي . والنتيجة المنطقية عندهم هي أن الشعب اليهودي هو الشعب الأول والأصيل في «أرض إسرائيل كما يزعمون وأن اللغة العبرية هي اللغة الأم لجميع اللغات السامية .

لذا فإننا نرفض فرضية أسرة اللغات السامية لأن الشواهد التاريخية العلمية لا تؤيدها . ولا يعني ذلك أننا نرفض الاقرار بوجود شبه كبير في أصوات اللغات التي صنفت ضمن أسرة اللغات السامية ومفرداتها وصرفها ونحوها . وإنما ينصب اعتراضنا الأساسي على وصف تلك اللغات بأنها (سامية) لأن لفظة (سامي) ذات مدلول يهودي في أوربا وأمريكا . ونرفض القول بوجود (الشعب السامي) مادام يستند فقط إلى افتراض وجود لغة ساميه ـــ أصل . وندعو إلى دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام منهج

تاريخي علمي متحرر من الآراء الواردة في التوراة حول نشأة اللغات البشرية .

ثالثا : الدعوة إلى دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام منهج تاريخي علمي .

3 . 0 . ينبع المنهج التاريخي العلمي الذي ندعو إليه في دراسة اللغات من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني في (الخصائص) وعبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز في علم المعاني) في نظريتين لغويتين متتامتين[21] .

3 . 1 . بعض جوانب نظرية ابن جني التي بلورها في «الخصائص» .

أ - انطلق ابن جني من منطلق وصفي لأن بحثه في «الخصائص» كان يدور بشكل رئيسي في نطاق بنية الكلمة المفردة . فعمد إلى دراسة الأصوات التي تتألف الكلمات منها وسعى إلى اكتشاف القوانين التي تنظم العلاقة بين الأصوات في الكلمة . فبحث في الاشتقاق وأنواعه ودرس التقليبات الممكنة للكلمة الواحدة . وبين أن الأمر المشترك الذي يجمع التقليبات هو وحدة المعنى وأفضى ذلك به إلى القول بوجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول . ويعني هذا أن ابن جني لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن .

ب - اهتم ابن جني باكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي . لذا لم يتبن - لدى البحث في نشأة اللغات - نظرية التوقيف أو الاصطلاح ، بل جوزهما على حد سواء لأن ذلك لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية . ولكن ابن جني أكد بشكل حازم على أمرين :

1 - لم تنشأ اللغة في وقت واحد بل نشأت في أوقات متلاحقة .

2 - كانت اللغة باستمرار تحافظ على اتساق نظامها .

ج - بحث ابن جني في القوانين الصوتية العامة التي ترجع إلى الخصائص الفزيولوجية للانسان (وعبر عنها بحس المتكلم) . كما وازن بين لغة العرب ولغة العجم .

3 . 2 . بعض جوانب نظرية الامام الجرجاني التي بلورها في «دلائل الاعجاز في علم المعاني»

أ - انطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصفي وظيفي لأنه بحث في نظم الكلم . فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام ، انطلاقا من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض . وكان يرى أن اللغة نظام لربط الكلمات . ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام ، لم يكن الجرجاني بحاجة إلى وصفه وصفا تطوريا ، بل عمد إلى وصفه وصفا تزامنيا . وأدى ذلك به إلى القول باعتباطية الاشارة اللغوية .

ب - انصب اهتمام الجرجاني على اكتشاف القوانين للنظام اللغوي وأكد على ارتباط اللغة بالفكر . ولدى البحث في نشأة اللغات ، بين دور التفكير في نشأة اللغة . وجوز الجرجاني - كما فعل ابن جني - القول بأن اللغة تواضع أو إلهام . ولكنه أكد أن مهمة الكلمات المفردة لم تقتصر منذ بداية وضعها على (التسمية) فقط بل كانت

مهمتها مرتبطة أيضا ب (الاخبار) .

ج -بحث الجرجاني في القوانين اللسانية العامة .

وقرر ما يلي :

1 - لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى ، سواء أكان ذلك في لغة واحدة أم في لغات مختلفة .

2 - الخبر معنى بين شيئين ، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل .

إنني أرى أن ***نظريتي ابن جني والجرجاني متتامتان ، بل يصح القول أنهما تؤلفان جانبين لنظرية لسانية واحدة تعبر - برأيي - عن اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية*** . ويظهر التتام بين النظريتين جليا في الأمرين التاليين :

1 - ضرورة الربط بين الدراسة التزامنية للنظام اللغوي (التي تقدمها نظرية الجرجاني) والدراسة التطورية له (التي تقدمها نظرية ابن جني) .

2 - ضرورة الربط بين القول بأن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة (الذي اعتمدته نظرية ابن جني) والقول بارتباط نشأة اللغة بالتفكير (الذي اعتمدته نظرية الجرجاني) ويعني ذلك أن اللغة قد نشأت وتطور نظامها واكتمل ، بشكل مواز لنشأة التفكير الانساني وتطور نظامه واكتماله .

3 . 3 . وأرى أن **الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية** يمكن تحديدها في المبادىء التالية :

1 - الانطلاق من مفهوم منظومي للغة .

2 - اللغة ظاهرة اجتماعية ، وترتبط البنية اللغوية بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة .

3 - تلازم اللغة والتفكير .

وبما أن النظام اللغوي في حركة مستمرة ، لذا يجب أن يستخدم في دراسته منهج تاريخي علمي .

3 . 4 . **ويقوم المنهج التاريخي العلمي** - الذي استنبطناه من التتام بين نظريتي ابن جني وعبد القاهر الجرجاني - على المبادىء التالية :

1 - اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بالتفكير منذ نشأتها .

2 - يجب علينا - لدى دراسة النظام اللغوي - أن نهتم بما هو عام ومطرد دون أن نهمل الاستثناءات ، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد .

3 -يؤلف النظام اللغوي كلا واحد ، توجد المستويات المتدرجة للبنى اللغوية فيه في علاقة تأثير متبادل فيما بينها . ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات ، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى . ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات الأعلى ، في حين أن العكس ممكن .

3 . 5 . **تستهدف دعوتنا إلى استخدام منهج تاريخي علمي في دراسة المادة اللغوية للعربية اكتشاف التاريخ الحقيقي للغة العربية وبالتالي التاريخ الحقيقي للأمة العربية .**

ونبدأ في تنفيذ هذه الدعوة ***بالاجابة عن السؤال*** الذي طرحناه في الفقرة الأولى :

هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي ببداية تشكل الكلام الانساني؟

إنه ليصعب نظريا تصور استمرار وجود لغة حقيقية حتى الوقت الراهن ، تحمل مادتها عناصر تتوافر فيها الصفات الموضوعية للأصل الأول في نشأة الكلام الانساني ، ويمكن أن تكون نموذجا لبداية تشكل الكلام الانساني . إلا أنه لا يوجد برأينا ما يحرم من حيث المبدأ دراسة مادة لغوية للغة حقيقية من أجل بيان هل تقدم مادتها العناصر التي تتوافر فيها الصفات الموضوعية للأصل الأول في نشأة الكلام الانساني .

وبما أن المعاجم العربية هي التي حفظت لنا المادة اللغوية للعربية منذ النشأة الأولى للعربية وحتى يومنا الراهن ، يتوجب البحث في الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية استنادا إلى المنهج التاريخي العلمي .

رابعا : الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية

4 . 0 . قرر علماء العربية ***أن المبدأ الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي هو الأصل المجرد من حروف الزيادة*** . ويتحدد وفق قواعد الاشتقاق الصغير (في علم الصرف) كيف يتم الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة . ***فهل يعني ذلك أنهم قرروا أن الأصل في المعجم هو الأصل في الاشتقاق؟***

يوجد اتجاهان في تحديد العلاقة بين الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية :

الأول : اتجاه علماء البصرة : يقول بتمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية فبالنسبة لأصل المعجم العربي ، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل في المعجم مادة مجردة (الحروف الثلاثية الأصلية) يتم الحصول عليها بالاستنباط الصرفي وليس الأصل صيغة لغوية حقيقية . ***وبالنسبة لأصل الاشتقاق في العربية*** ، يرون أن أصل الاشتقاق هو المصدر وهو الصيغة اللغوية الأولى التي يتولد منها النظام اللغوي .

الثاني : اتجاه علماء الكوفة والمستشرقين وعلماء الساميات : يقول بعدم تمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية . ***فبالنسبة لأصل المعجم العربي*** ، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل صيغة لغوية حقيقية هي صيغة الفعل الماضي المجردة المسندة للشخص الثالث المفرد المذكر . ***وبالنسبة لأصل الاشتقاق في العربية*** ، يرون أنه الأصل المعجمي نفسه .

وكنا نتبنى الاتجاه الثاني .

4 . 1 . كتب الدكتورتمام حسان في كتابه «اللغة العربية – معناها ومبناها»(22) ما يلي :

((ومعنى الحدث مشترك بين جميع المشتقات ، ولكن كل مشتق منها يضم إلى الحدث معنى آخر ... وأما المصدر فهو اسم الحدث فقط إذ لا يدل على معنى آخر إلى جانب الحدث . ولذلك رآه البصريون أصلا للاشتقاق حين نظروا من هذه الزاوية ، وأوردوا في تدعيم ذلك مناقشات طويلة . وأما وجهة النظر الكوفية فقد نظرت إلى المشكلة من ناحية التجرد والزيادة . فالمجرد من بين هذه الصيغ هو في فهم أصحاب هذه النظرة أقرب إلى الأصالة من المزيد . وقد نظروا في صيغ الكلام فلم يجدوا أكثر تجردا من الفعل الماضي الثلاثي المجرد المسند إلى المفرد الغائب نحو (ضرب) فقالوا إن أصل المشتقات هو الفعل الماضي ، وأورد هؤلاء أيضا في تدعيم نظرتهم مناقشات ضافية)) .

ويعقب الدكتور تمام حسان على الرأيين فيقول : والواقع أن الصعوبات تقوم فعلا دون الاقتناع برأي البصريين أو برأي الكوفيين على حد سواء . فأما للرد على البصريين فأنا أساهم عن

(كان) الناقصة (وهي عندهم فعل) ألها مصدر أم لا مصدر لها؟ إن مذهبهم يقول إن كان الناقصة لا مصدر لها ومع ذلك يعتبرونها مشتقة ، فما أصل اشتقاقها؟ وأما للرد على الكوفيين فإن (يدع) و (يذر) في رأيهم لا ماضي لهما وهما مشتقان على رغم ذلك ، فما أصل اشتقاقهما إذا؟

ثم يقدم الدكتور تمام حسان رأيا ثالثا في الاشتقاق فيقول :

والذي أراه أجدى على دراسة هذه المشكلة (مشكلة الاشتقاق) أن يعدل الصرفيون بها عن طريقهم إلى طريقة المعجميين بل أن يجعلوا دراستها في دراسة علم الصرف حسبة لوجه علم المعجم : مبتعدين بها عن شكلية الصيغ أو الزوائد والملحقات ذات المعاني الوظيفية جانحين بها في اتجاه المعجم بحيث يكون (الاشتقاق) حدودا مشتركة بين المنهجين . وإذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات فينبغي لنا ألا نجعل واحدة منها أصلا للأخرى ، وإنما نعود إلى صنيع المعجميين بالربط بين الكلمات بأصول المادة فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثية أساس منهجنا في دراسة الاشتقاق . وبذلك نعتبر الأصول الثلاث أصل الاشتقاق فالمصدر مشتق منها والفعل الماضي مشتق منها كذلك .

4 . 2 . بالاستناد إلى المنهج التاريخي العلمي في دراسة اللغات ، ***نرى أن اللغة الانسانية كانت منذ نشأتها الأولى عبارة عن أصوات نطقها الانسان بشكل واع لاستخدامها وسيلة لابلاغ الآخرين أغراضه وفهم أغراضهم في عيشه المشترك معهم من ناحية ، ولاستخدامها من ناحية أخرى وسيلة يصوغ بوساطتها أفكاره ويعبر عن مشاعره . وتحدد الأمور المشتركة بين البشر جميعا الصفات العامة للغات الانسانية*** . وتتمثل تلك الأمور المشتركة فيما يلي :

1 - البنية التشريحية الواحدة لجهاز النطق الانساني .
2 - الطرائق العامة الواحدة للتفكير الانساني .
3 - النزوع الانساني الواعي للحياة الاجتماعية .

وتتلخص هذه الأمور المشتركة في العبارة القديمة التي عرفت ***الانسان*** بأنه كائن ***ناطق مفكر اجتماعي*** .

ومن استعراض التاريخ الحضاري للانسانية يظهر أن التفكير الانساني لم ينشأ مكتملا طفرة واحدة وأن خط السير العام لتطور التفكير الانساني انطلق من إدراك المشخص المحدد (بحاستي السمع والبصر) واكتمل بالانتقال إلى المجرد العام . وقد تطورت البنية اللغوية واكتملت تدريجيا بشكل مواز لتطور التفكير الانساني واكتماله .

وبنتيجة التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام المنهج التاريخي العلمي ، تأكد لنا تمايز الأصل في المعجم العربي عن أصل الاشتقاق في العربية . وقررنا رأيا خاصا بنا بشأن العلاقة بين الأصل في المعجم وأصل الاشتقاق اللغوي ، هو التالي :

الأصل في المعجم اللغوي الانساني رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية أولى ، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . والأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي الانساني هو الصيغة اللغوية الانسانية الأولى التي ولد تطورها النظام اللغوي الانساني في جميع مستوياته .

4 . 3 . لذا نقرر أن ***الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفردات العربية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية*** . ويعني هذا أن ***الأصل في المعجم العربي ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر / كتب (هو) /*** .

ويظهر ذلك أن علماء البصرة أصابوا حين قرروا أن الأصل ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث

المفرد المذكر نفسها . ولكن علماء البصرة لم يصيبوا حين قرروا أن الأصل مادة أصلية ويقصدون بذلك الحروف المجردة أي صيغة افتراضية (مجردة) لأن الأصل الأول في المعجم اللغوي الانساني صيغة صوتية (مادية) ترتبط بالنشأة الصوتية للغة الانسانية . وسنفصل القول في ذلك بعد عرض رأينا في نشأة الكلام الانساني .

أما بالنسبة ***للأصل في الاشتقاق في العربية*** ، ***فنقرر أنه الصيغة اللغوية الانسانية الأولى . فما هي الصيغة اللغوية الانسانية الأولى؟*** ينقلنا ذلك إلى عرض رأينا في نشأة الكلام الانساني .

خامسا : رأينا في نشأة الكلام الانساني :

5 . 0 .بعد الرجوع إلى أبحاث معمقة حول الكلام الانساني ونشأته في اللسانيات العامة والتاريخ الحضاري الانساني والأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الأديان المقارن ، بلورنا ***نظريتنا في نشأة الكلام الانساني*** .

ولما كانت بنية اللغة الانسانية تتألف من جانبين : صوتي (مادي) ودلالي (معنوي) ، فمن الطبيعي أن ننطلق في البحث في نشأة اللغات الانسانية من تحليل الجانب الصوتي لننفذ من خلاله إلى تحليل الجانب الدلالي . وإننا ، إذ نتمسك بالمنهج التاريخي العلمي لدى دراسة نشأة اللغة الانسانية ، نؤكد ضرورة الربط بين الدراسة التطورية لبنية اللغة الانسانية (التي تكشف – كما قال ابن جني – وجود علاقة بين مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول بنتيجة المحاكاة) وبين الدراسة التزامنية لبنية اللغة الانسانية (التي تقول – كما أكد الجرجاني – بعدم وجود مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول وترى أن العلاقة بينهما اعتباطية حددها التواضع) .

5 . 1 . لذا نرى إدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه كان البداية الأولى في تكوين التفكير الانساني . ويعني ذلك بالضرورة أن ***الكلام الانساني قد مر في نشأته بطور أولي كان أصل المعجم اللغوي فيه عبارة عن محاكاة لأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة*** ، لأن تلك المحاكاة كانت بمثابة قرينة تساعد الانسان القديم في الادراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يشير إليه . وعقبه ***طور ثان*** انعدمت فيه محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة وظهر فيه ***أصل جديد للمعجم اللغوي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني***[23] .

5 . 2 . ولذا نعلن أننا ***نرفض رأي سوسور بأن العلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم***[24] وأنها كيان نفسي ذو وجهين : الأول – التصور أو المدلول ، والثاني – الصورة السمعية أو الدال . ***ونرى أن العلامة اللسانية كانت منذ النشأة الأولى للكلام الانساني تربط شيئا باسم*** . لقد نزع سوسور من الدال الصيغة الصوتية ، لذا اضطر إلى استخدام مصطلح (اللغة : langage) للربط بين (اللسان : langue) (والكلام : parole) . وهكذا يتحدد نطاق اللغة عند سوسور بقصرها على التداعيات القائمة في الدماغ بين معنى الكلمات وصورها السمعية ، أي في نطاق ما يسمى اللغة الداخلية . ويؤدي ذلك إلى ***الفصل بين نشأة اللغة المنطوقة وبين نشأة التفكير ، وافتراض أن نشأة التفكير أسبق من نشأة اللغة المنطوقة*** . لذا فإننا نرفض التمييز التبريري بين مصطلحي (اللسان) و (اللغة) ونرى أنهما يعبران عن شيء واحد . وعليه لا نرى فرقا بين قولنا في العصر الحديث (اللسان العربي) وقولنا (اللغة العربية) . وننقر بضرورة التمييز بين اللغة أو اللسان وبين الكلام .

5 . 3 . إن اللغة الانسانية حسب مارتينيه[25]

قابلة للتقطيع على صعيدين : الوحدات الدالة (مونيمات) على الصعيد الأول ، وبضع عشرات من الوحدات الصوتية (فونيمات) على الصعيد الثاني . والكلام الانساني وحده قابل لمثل ذلك التقطيع المزدوج . ومبدأ التقطيع المزدوج قانون أساسي من قوانين اللغة الانسانية .

صحيح أن الفونيم هو وحدة صوتية دنيا تتمتع بجملة من الصفات تميزها من وحدة صوتية دنيا أخرى في نفس النظام اللغوي . ولكنا نرى أن الفونيم وحدة صوتية افتراضية لأن التقطيع الفعلي للصيغة الصوتية للوحدة الدالة (مونيم) لا يوصلنا إلى الفونيم ، بل يوصلنا فقط إلى المقطع الصوتي (Syllable) . وعليه فإننا **لا نوافق مارتنيه في أن مبدأ التقطيع المزدوج قانون أساسي من قوانين اللغة الانسانية** . **ونرى أن القانون الأساسي في جميع اللغات الانسانية هو مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية يتألف منها الكلام الانساني** .

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن الدراسات الأنثروبولوجية قد أثبتت بشكل جازم أن حنجرة الانسان القديم (الذي انقرض) ما كانت تسمح له إلا ينطق أصوات مندمجة بعضها ببعض مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات الناطقة . ويعني ذلك أن الانسان القديم لم يكن قادرا على تقطيع الأصوات التي تتألف منها اللفظة التي حاكى فيها أصوات الحيوان إلى مقاطع صوتية متميزة . ثم تطورت البنية التشريحية للحنجرة عند الانسان الحديث فتمكن من تغيير نطق تلك اللفظة بتقطيعها إلى مقاطع صوتية متميزة . فتميز حينئذ النطق الانساني (عند الانسان الحديث) عن النطق الحيواني ، وظهرت اللغة الانسانية التي تقوم على مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية يتألف منها الكلام الانساني .

لذا فإننا نميز في الطور الأول في نشأة الكلام الانساني (الذي ظهر فيه أصل معجمي بنتيجة محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة) مرحلتين : الأولى – مرحلة محاكاة أصوات الحيوان ، والثانية – مرحلة محاكاة ظواهر الطبيعة .

أ -المرحلة الأولى : كانت مرحلة تمهيدية لنشأة الكلام الانساني . ظهر فيها الأصل المعجمي الأول الذي حاكى فيه الانسان القديم أصوات فصائل الحيوان التي تمتلك جهازا للتصويت قريبا من جهاز التصويت عنده ، لذا نطقه مثلها في مجموعة صوتية مندمجة (شحج ، نزب) .

ب -المرحلة الثانية : كانت مرحلة بداية نشأة الكلام الانساني ، بدأت بظهور الصيغة اللغوية الانسانية الأولى ، ثم ظهرت فيها أصل معجمي ثان حاكى فيه الانسان أصوات ظواهر الطبيعة .

5 . 5 . 5 . *هل كان الأصل المعجمي الأول الذي ظهر في المرحلة الأولى من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني صيغة لغوية إنسانية؟*

كنا في مقالة «نظرة جديدة إلى المعجم العربي»(26) قد ذكرنا ما يلي : «**ما هو السبب في أن نظام المعجم العربي بني انطلاقا من الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة؟ ولماذا يعتبر ذلك الأصل خوارزما رياضيا لاشتقاق كلمات وصيغ جديدة منه؟ ولماذا حافظ هذا الأصل الثلاثي على لحمته دون تغيير على مر القرون؟** لاشك أن هناك سرا يرتبط بطبيعة الأصل العربي ثلاثي الأصوات الصامتة فما هو ذلك السر؟ وكيف نكشفه؟»

وبالرجوع إلى الدراسات الصوتية في علم اللغة العربية وعلم اللغة العام وعلم اللغة المقارن قررنا أن «الأصل المؤلف من ثلاثة أصوات صامتة

(شحج ، نزب) كان الانسان البدائي يلفظه في مقطع صوتي واحد لأنه يحاكي أصوات الحيوان ، فلا تتميز في الأصل أصوات منفصلة بعضها عن بعض في مقاطع صوتية منفصلة ، بل تتصل بكل صوت صامت فتحة خفيفة لتمكن فقط من النطق به» .

ولدى التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية ، يتضح لنا أن الأصل الأول (نزب ، شحج) لم يكن يشتمل على ما يشير إلى أقسام الكلم أو الجنس أو العدد بل كان يفيد الفعل والفاعل معا ويؤدي وظيفة إبلاغ ضيقة جدا لا تتعدى – برأينا – التنبيه الصوتي الارادي بدلا من الصيحات غير الارادية التي كان الانسان القديم يصدرها . ولكن هذا الأصل لعب على الرغم من ذلك دورا هاما في بداية تكوين التفكير الانساني تجلى في إدراك العلاقة بين الصوت والشيء الذي يسميه من ناحية ، وفي تمييز الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) من ناحية أخرى . كما لعب دورا هاما آخر تجلى في الاستخدام الارادي لمجموعة الأصوات المندمجة التي حاكاها الانسان منذ البداية الأولى لنشأة الكلام الانساني .

وهكذا يظهر أن هذا ***الأصل الأول كان شبيها بصيحة تنبيه إرادية . ويعني ذلك أن الأصل الأول لم يكن بداية عملية التخاطب الانساني اللساني . بل كان تمهيدا ضروريا لها*** تجلى في الانتقال من إصدار صيحات غير إرادية إلى إصدار صيحات تنبيه إرادية لا تشتمل على تمييز الفعل من الفاعل من ناحية ولا تشتمل على تمييز الجنس والعدد من ناحية أخرى . واقتصر الأصل الأول على التعبير عن تمييز الشخص الثالث الذي كان يمثل بالنسبة للانسان القديم في تلك المرحلة كل ما يتحرك ويصدر صوتا أمكن محاكاته من دون تمييز لجنسه أو عدده . لذا لم يكن هذا الأصل الأول كلمة – جملة بالمعني اللساني لأن التخاطب الانساني اللساني لا يمكن أن يقوم إلا بعد تمييز الشخص الثاني (المخاطب) . ويعني ذلك أن ***الأصل الأول لم يكن صيغة لغوية إنسانية ، بل كان أصلا تاريخيا حيوانيا مهد لنشأة اللغات الانسانية .***

وبذل الانسان القديم قصارى جهده في السعي إلى خلخلة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة التي تألف منها الأصل الأول ، وذلك من أجل توليد ألفاظ مقطعة تسد حاجته ا لمتزايدة في الاتصال الارادي بالآخرين . ***ونجح الانسان القديم في خلخلة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة للأصل الأول حين قطعها فحصل منها على لفظة الطلب (الأمر) للشخص الثاني التي نطقها في مجموعتين صوتيتين (شْحجْ ، نْزبْ)*** . وكانت لفظة الأمر هذه أول كلمة جملة بالمعنى اللساني حملت معها بداية تشكل النظام الصوتي للعربية . كما حملت في الوقت نفسه بداية عملية الاتصال والتخاطب الانساني اللساني نتيجة لتمييز الشخص الثاني (المخاطب) من دون تمييز لجنسه أو عدده .

وحين نجح الانسان القديم في الحصول على لفظة الأمر للشخص الثاني (التي حملت في طياتها تمييز الشخص الثاني – المخاطب من ناحية أولى ، وغرضا ابلاغيا يزيد إيصاله للمخاطب من ناحية ثانية) ***بدأت عملية التخاطب الانساني اللساني .*** وصاحبت عملية التخاطب بداية تبلور الأصوات اللغوية الانسانية التي تجلت في التقطيع الارادي لمجموعة الأصوات المندمجة في الأصل الأول (التاريخي الحيواني) إلى مجموعتين صوتيتين متصلتين في لفظة واحدة (شْحجْ ، نْزبْ) .

وهكذا يظهر أن ***الأصل الأول التاريخي الحيواني (شحج ، نزب)*** الذي كان ينطق في مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض ***كان أصلا في المعجم العربي ولم يكن أصلا حقيقيا للاشتقاق في العربية ،*** بل استخدم رصيدا للأصوات اللغوية من ناحية أولى

وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وقد ظهرت من تقطيعه الصيغة اللغوية الأولى للتخاطب الانساني اللساني - صيغة الأمر للشخص الثاني (شحج) . ومن تطور هذه الصيغة اللغوية الأولى تولدت اللغة الانسانية واكتملت نظاما كاملا للأصوات والدلالات في جميع المستويات : مستوى الأصوات اللغوية ومستوى البنية الدلالية للمفردات في إطار المعجم ومستوى البنية الصرفية للكلمات المفردة والبنية النحوية للتراكيب (المستوى القواعدي) . وخضع تطور صيغة الأمر للشخص الثاني الذي ولد النظام اللغوي الانساني لقانون أساسي للتطور الصوتي . وارتبط به قانون توسع اللغة في القيام بوظيفة الاتصال من ناحية وقانون توسع اللغة في القيام بالتعبير عن الأفكار من ناحية ثانية .

وبذا نكون قد حللنا لغز طبيعة الأصل السالم الثلاثي في المعجم العربي الذي حافظ على لحمته من دون تغيير على مدى القرون وكان خوارزما رياضيا لتوليد النظام اللغوي للعربية في جميع مستوياته عن طريق الصيغة اللغوية الأولى للتخاطب الانساني اللساني - صيغة الأمر للشخص الثاني - التي أخذت منه عن طريق تقطيع مجموعة الأصوات المندمجة التي كان الأصل الأول (الثلاثي السالم) يتألف منها .

5 . 6 . ***هل كان الأصل المعجمي الثاني الذي ظهر في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني صيغة لغوية إنسانية؟***

تصدر بعض ظواهر الطبيعة بنتيجة الحركة مجموعات من الأصوات المندمجة بعضا ببعض ، ولكنها تتميز عن المجموعات المندمجة التي تصدرها فصائل الحيوان التي حاكاها الانسان في المرحلة الأولى بأن مجموعات الأصوات المندمجة الطبيعية أقصر . وكان الانسان القديم في المرحلة الأولى عاجزا عن محاكاة أصوات ظواهر الطبيعة هـذه بسبب قصرها ،لأن حنجرته لم تكن تمكنه من نطق مثل تلك المجموعات المندمجة القصيرة والتوقف عن النطق بعدها مباشرة . ولكن نجاح الانسان القديم في نطق أول صيغة لغوية إنسانية (عن طريق تقطيع مجموعة الأصوات المندمجة في الأصل الأول التاريخي الحيواني إلى مجموعتين صوتيتين متصلتين في لفظة واحدة) ***كان تطورا هاما في البنية التشريحية لحنجرة الانسان القديم حمل معه بداية انقراض الانسان القديم وبداية ظهور الانسان الحديث*** ، كما حمل معه بداية عملية التخاطب الانساني اللساني وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني .

وهكذا ***استطاع الانسان الحديث في هذه المرحلة الثانية محاكاة أصوات ظواهر الطبيعة التي تصدر مجموعة قصيرة من الأصوات المندمجة بعضها ببعض بأن عمد إلى تكرار نطق محاكاتها في لفظة واحدة متصلة*** ، ليتخلص بذلك من صعوبة التوقف عن النطق بعد محاكاة تلك الأصوات في المرة الأولى (خرْ ← خرْخرْ / صلْ ← صلْصلْ) ، وذلك على غرار ما فعله الانسان الحديث حين خلخل الوحدة الصوتية المندمجة للأصل الأول التاريخي الحيواني فقطعها إلى مجموعتين متصلتين في لفظة واحدة . ثم ***استطاع الانسان الحديث محاكاة أصوات فصائل أخرى من الحيوان تصدر مجموعات صوتية مندمجة قصيرة مماثلة لأصوات ظواهر الطبيعة*** (زق ← زق زق) .

ولدى التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية يتضح لنا أن هذا ***الأصل الثاني الطبيعي - الحيواني*** (خرْخرْ ، زقْ زقْ)- الذي ظهر في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني - كان على غرار الأصل الأول الحيواني لا يشتمل على ما يشير إلى أقسام الكلم أو الجنس أو العدد ، وكان يفيد

الفعل والفاعل معا . لذا لم يكن الأصل الثاني كلمة – جملة بالمعنى اللساني ، **أي لم يكن صيغة لغوية إنسانية ، بل كان أصلا تاريخيا طبيعيا – حيوانيا مهد للتوسع في نشأة اللغات الانسانية .**

وهكذا يظهر أن الأصل التاريخي الطبيعي – الحيواني الذي كان ينطق في مجموعتين صوتيتين متماثلتين ومتصلتين في لفظة واحدة (خرْخرْ ، زقْ زقْ) **لم يكن أصلا حقيقيا للاشتقاق في العربية ، بل كان أصلا في المعجم العربي** استخدم رصيدا للأصوات اللغوية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وبذل الانسان الحديث قصارى جهده في تغيير نطق المجموعتين الصوتيتين المتماثلتين المتصلتين في لفظة واحدة هي الأصل الثاني من أجل الحصول منه على الصيغة الأولى للتخاطب الانساني اللساني – صيغة الأمر للشخص الثاني . ونجح في ذلك حين تمكن من تغيير نطق المجموعة الثانية من الأصل التاريخي الطبيعي – الحيواني لتتمايز عن نطق المجموعة الأولى (خرْخرْ ← خرْخِـرْ ، زقْ زقْ ← زقْ زِقْ) .

وحدث تطور في التقطيع الصوتي حين تمكن الانسان الحديث من تغيير طريقة التكرار التي عرفها في الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني . وتم ذلك حين نجح الانسان في عدم تكرار نطق المجموعة القصيرة من الأصوات المندمجة بعضها ببعض التي حاكى فيها أصوات ظواهر الطبيعة ، بل عمد إلى تقطيع المجموعة الصوتية القصيرة المندمجة ونطقها في مقطعين صوتيين متصلين في لفظة واحدة هي صيغة الأمر عن طريق تكرار نطق الصامت الثاني منها . وحسب نجاح الانسان في طريقة تكرار الصامت الثاني تحدد نوع التقطيع الصوتي الذي بلغه :

(خرْ ← خُرُرْ)تقطيع إلى مقطعين صوتيين قصيرين مغلقين .

(خرْ ← خُرِر)تقطيع إلى مقطعين صوتيين الأول مغلق والثاني مفتوح .

5 . 7 . أما بالنسبة ***للطور الثاني في نشأة الكلام الانساني*** (الذي ظهر فيه أصل معجمي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني) ، فنقرر ***أن الأصل التواضعي كان الصيغة اللغوية الانسانية الأولى – صيغة الأمر للشخص الثاني*** . ونرى أن ***الطور الثاني مر بمرحلتين*** : المرحلة الأولى كان الأصل التواضعي فيها مؤلفا من صامتين نطقا في البداية في مقطعين صوتيين قصيرين الأول مغلق والثاني مفتوح (رْمِ ، سْعِ) . وفي نهاية المرحلة الأولى نطق الصامتان في مقطع صوتي واحد قصير مغلق (قُمْ ، نمْ) . ومهد ذلك للانتقال إلى المرحلة الثانية التي ظهر فيها أصل تواضعي مؤلف من صامت واحد ينطق في مقطع صوتي قصير مفتوح (قِ ، فِ) .

سادسا : نظرة صوتية جديدة إلى المعجم العربي .

6 . 0 . قررنا في الفقرة السابقة (خامسا) أن نشأة الكلام الانساني مرت بطورين ومر كل طور منهما بمرحلتين .

الطور الأول : كان الأصل المعجمي فيه محاكاة لأصوات الحيوانات والطبيعة .

أ -**المرحلة الأولى** : ظهر فيها أصل تاريخي حيواني مهد لنشأة اللغات الانسانية . كان هذا الأصل ينطق في مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض (شحج ، نزب) . ولم يكن صيغة لغوية إنسانية ، أي أنه لم يكن أصلا للاشتقاق في النظام اللغوي الانساني .

ب -**المرحلة الثانية** : ظهر فيها أصل تاريخي طبيعي حيواني مهد للتوسع في نشأة اللغات الانسانية . كان هذا الأصل ينطق في مجموعتين صوتيتين متماثلتين ومتصلتين في لفظة واحدة (خرْخرْ ، زقزقْ) ولم يكن أصلا للاشتقاق في النظام اللغوي الانساني .

هذا وقد حصل الانسان على الصيغة اللغوية الانسانية الأولى - صيغة الأمر العامة للشخص الثاني - عن طريق تقطيع نطق الأصل التاريخي الحيواني (شحج ← شْحجْ) (نزب ← نْزبْ) وعن طريق تغيير تقطيع نطق الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني (خرْخرْ ← خرْخِرْ ، زقْ زقْ ← زقزِقْ) أو عن طريق تغيير طريقة التكرار المتبعة في الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني (خرْ ← خــرُرْ ، خرْ ← خُرْر) .

الطور الثاني : انعدمت في الأصل المعجمي محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة وكانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني . وكان هذا الأصل التواضعي الصيغة اللغوية الانسانية الأولى - صيغة الأمر العامة للشخص الثاني .

أ -**المرحلة الأولى** : كان الأصل مؤلفا من صامتين ونطقا في مقطعين صوتيين (زْمِ ، سْعْ) ثم في مقطع صوتي واحد (قمْ ، نَمْ) .

ب -**المرحلة الثانية** : كان الأصل مؤلفا من صامت واحد ونطق في مقطع صوتي واحد (قِ ، فِ) .

وهكذا يظهر أن نشأة الكلام الانساني كانت خاضعة لقانون صوتي يرتبط بقدرة الانسان على التقطيع الصوتي وتطور قدرته على التقطيع . ويعني ذلك أن نشأة الكلام الانساني لم تخضع لقوانين المنطق .

6 . 1 . وكنا في مقالة ((نظرة جديدة في تأريخ نشأة اللسان العربي))[27] قد ذكرنا أن (علماء العربية الأوائل حاولوا بعد الكشف الصحيح عن خصائص بنية العربية تقديم تفسيرات لأسباب تمتع العربية بخصائصها المميزة ، فاعتمدوا المنهج المنطقي في وصف تسلسل منطقي لنشأة النظام اللغوي للعربية وتطوره ، نجم عنه تمتع العربية بخصائصها البنيوية المميزة . ولنأخذ على سبيل المثال سيبويه[28] . يرى (أن الفعل مأخوذ من لفظ أحداث الأسماء - أي المصادر - وأن الاسم قبل الصفة كما أنه قبل الفعل ، وأن النكرة قبل المعرفة ، وأن المفرد قبل الجمع وأن المذكر قبل المؤنث) . وأكدنا أن (تاريخ تطور الأصل في اللسان العربي وتشكل النظام اللغوي للعربية واكتماله لم يخضع لقوانين المنطق بل خضع لقانون أساسي للتطور الصوتي وارتبط به قانون توسع اللغة في القيام بوظيفة الاتصال (الابلاغ) من ناحية ، وقانون توسع اللغة في القيام بوظيفة التعبير عن الأفكار من ناحية أخرى . لذا يتضح أن المنهج المنطقي عاجز عن تحديد مراحل التطور ووصفها قبل اكتمال النظام الصوتي للغة ونظامها القواعدي ونظام التعبير فيها عن الأفكار المجردة العامة . كما يتضح أن المنهج الوصفي الوظيفي عاجز أيضا عن تحديد مراحل التطور ووصفها) . وقررنا أن (المنهج التاريخي العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية هو المنهج القادر على تحديد مراحل التطور ووصفها) .

6 . 2 . قررنا أعلاه (في الفقرة 4 . 3 .) أن الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) رصيد للأصوات التي تتألف منها مفردات العربية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وقلنا أن ذلك يعني أن الأصل في المعجم العربي ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر / كتب (هو) / .

كان الأصل التاريخي الحيواني (شحج ، نزب) ينطق في مجموعة صوتية مندمجة ، ثم تطور النطق الانساني لهذا الأصل بحيث صار الانسان ينطقه فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية . وبعد اكتمال النظام اللغوي للعربية الذي عكس اكتمال نظام التفكير الانساني ببلوغه المفاهيم المجردة ظهرت صيغة الاخبار للفعل العربي الخاصة بالشخص الثالث غير المشار إليه التي تميزت بأنها فارغة لا تشمل على ضمير يفيد المسند إليه الفعل . وبما أن الصيغة الفارغة (كتب 0) تتطابق مع الصيغة غير الفارغة / كتب (هو / وقع الوهم في أن صيغة الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) هي صيغة الفعل الماضي المجردة المسندة إلى المفرد الغائب / كتب (هو) / .

وفي ضوء ذلك يظهر أن الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) ليس صيغة فعلية فارغة (كتب 0) لأنه يحمل معنى الفعل والفاعل معا بينما تحمل الصيغة الفارغة معنى الفعل وحده من دون الفاعل . ولكن الأصل في المعجم بالمقابل ليس صيغة افتراضية مجردة بل هو صيغة صوتية (مادية) ترجع إلى الأصل التاريخي الحيواني لنشأة اللغة العربية الذي كان ينطق في مجموعة صوتية مندمجة ، ثم صار ينطق فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية فأصبح يتطابق صوتيا مع صيغة الفعل الماضي المجردة للشخص الثالث المفرد المذكر .

6 . 3 . وهكذا يظهر أن نظام المعجم العربي استند إلى الأصل التاريخي الحيواني لنشأة اللغة العربية الذي صار ينطق فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية ونظر إليه على أنه يتألف من ثلاثة صوامت متحركة . والسؤال الذي يبرز هنا هو التالي : ***كيف تم إدخال الأصول التي ظهرت بعد الأصل الأول (التاريخي الحيواني) في نظام المعجم العربي مع المحافظة على اتساق نظامه؟***

للاجابة عن هذا السؤال ***طرحنا نظرة جديدة في دراسة المعجم العربي . تقوم النظرة الصوتية إلى المعجم العربي على القانون التالي : الأصل الحقيقي في المعجم العربي*** (الذي هو رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفرادت من ناحية ، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية) ***هو ذلك الرصيد الذي يشتمل على الحد الأدنى من الصوامت المشترك بين جميع الكلمات التي تدخل في العنقود الاشتقاقي الواحد وبالترتيب نفسه .***

كشفت نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي ***خمسة مبادىء يقوم عليها نظام المعجم العربي***[29] هي التالية :

أ ـ اعتماد مادة تتطابق مع صيغة الفعل للشخص الثالث المفرد المذكر المؤلفة من ثلاثة صوامت متحركة (كتب) أصلا في المعجم .

ب - اعتماد مادة تتطابق مع صيغة مفترضة تتألف من ثلاثة صوامت متحركة أصلا في المعجم (مدد) بنتيجة فك الادغام في الثنائي المضعف بالنسبة لصيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر (مدَّ) .

ج - اعتماد مادة تتطابق مع الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر رباعية الأصوات الصامتة (بعثر) أصلا في المعجم .

د - اعتماد مادة تتطابق مع صيغة مفترضة - تتألف بنيتها من ثلاثة صوامت متحركة - على أنها أصل في المعجم بنتيجة رد الألف المدة في صيغة الماضي إلى أصلها الواو المتحركة أو الياء المتحركة بالنسبة لصيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر .

1 - المعتل الأجوف : قام ← قوم ، باع ← بيع

2 - المعتل الناقص : رمى ← رمي ، دعا ← دعو

3 - المعتل اللفيف المقرون : طوى ← طوي

4 - المعتل اللفيف المفروق : وق ← وقي

هـ -اعتماد مادة تتطابق مع صيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر المعتل المثال (وعد) والمهموز (أكل ، سأل ، قرأ) – وتتألف بنيتها من ثلاثة صوامت متحركة – أصلا في المعجم .

وتجدر الاشارة إلى أن هذه المبادىء تؤمن اتساق نظام المعجم العربي من ناحية ، وتعتبر من ناحية أخرى سمات تشير إلى البعد الزمني في نظام المعجم العربي .

سابعا : اللغة العربية أصل قائم بذاته .

لقد كشفت نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي أن النظام اللغوي للعربية يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني . ويثبت ذلك بشكل قاطع أن اللغة العربية أصل قائم بذاته .

ويعني ذلك أن ***المادة اللغوية للعربية المتوافرة حتى يومنا الراهن والتي حفظها لنا نظام المعجم العربي تقدم شواهد تاريخية علمية تروي قصة نشأة الانسان واللسان ، ويترتب على هذه الحقيقة العلمية الجديدة النتائج التالية :***

أ -***العرب هم عرب منذ ظهور الحياة الانسانية في وطنهم .***

ب -***اللغة العربية هي اللغة الأصلية للشعب العربي منذ بداية وجوده .***

ج -***كشف زيف فرضية (أسرة اللغات السامية) و(الشعب السامي) ويتبع ذلك بالضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي .***

د -***اكتشاف خصائص جديدة تتميز بها بنية العربية . وقد عمدنا بالاستناد إليها إلى اقتراح طريقة صوتية جديدة في وصف قواعد صرف العربية تنطلق من الأصل في الاشتقاق في العربية هو صيغة فعل الأمر العامة للشخص الثاني .***

هـ -***إغناء المعارف الانسانية*** في المجالات التالية :

1 - الكشف من كيفية ارتباط اللغة بالتفكير وتحديد المراحل والأطوار التي مرت بها نشأة الكلام الانساني .

2 - الكشف عن تاريخ ظهور الانسان العاقل ، وعن معطيات أنثروبولوجية جديدة وعن جوانب هامة في التاريخ الانساني في الفترة المسماة (ما قبل التاريخ) .

3 - ***إمكانية اقتباس اللسانيات الحديثة للمنهج التاريخي العلمي – منهج مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في نظريتين متنامتين لدى دراسة تاريخ مختلف اللغات . والاستفادة من النموذج الفريد الذي تقدمه العربية لنشأة اللغةالانسانية ومراحل تشكل نظامها اللغوي واكتماله .***

مشاكل المترجم العربي في المنظمات الدولية(*)

بقلم : الدكتور علي القاسمي
مدير التربية
المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو – الرباط

جرائم الترجمة :

قبل ثلاث سنوات فقط نشر الأستاذ جوليو – سيزار سانتويو الأستاذ بجامعة ليون كتابا بالاسبانية بعنوان (جريمة الترجمة)(1) أو كما ترجمه بعضهم إلى الأنجليزية (هؤلاء المترجمون المجرمون). والأستاذ المؤلف هو نفسه مترجم مشهود له بالكفاءة والمقدرة. ويفتتح مقدمة كتابة بالقول إنه لا يفهم لماذا لا تعج السجون بالمترجمين ولا تزخر المحاكم بهم مادام العديد منهم يقترف جرائم السرقة، والكذب، والتزوير، والجهل. ثم يعقب على ذلك شارحا : «إن مما لاشك فيه أن سمعة كثير من المؤلفين الأجانب قد نالها الأذى وأصابها الضرر من جراء الترجمات الاسبانية لأعمالهم، فقد تمت صياغة هذه الترجمات بأسلوب رديء، وأغفلت فقرات برمتها أو ترجمت بكلام لا معنى له حيث أن القارىء الاسباني لابد أن يتسائل لماذا يتمتع ذلك المؤلف الأجنبي بتلك السمعة الطيبة في بلاده ...». ويخلص المؤلف إلى القول بأن المثل الايطالي«المترجم خائن» (traduttore, traditor...) صادق تماما ويقترح أن يكتب على أغلفة بعض الكتب المترجمة (خيانة فلان) بدلا من (ترجمة فلان). ولكي يبرهن المؤلف على صحة وجهة نظره وصوابها يضرب في كتابه الذي يقع في 225 صفحة أمثلة على الأخطاء الصارخة في ترجمة الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية وفي ترجمة الأفلام السينمائية(2).

وإذا كان في حكم الأستاذ سانتويو شيء من القسوة على المترجمين فإن له ما يبرره بالنسبة للمترجمين الاسبان الذين سرد نصوصا من ترجماتهم حافلة بالأغلاط الفظيعة مليئة بالتجاوزات الشنيعة. وليس لدينا ما يرجح اختلاف الوضع في الأقطار الأخرى عنه في اسبانيا. وليس لدينا ما يشير إلى أن المترجمين الاسبان أقل براعة من نظرائهم المترجمين في بقية أنحاء العالم، ولو اضطلع بعض أساتذة الترجمة

(*) ألقيت في اللقاء العالمي حول (مشاكل الترجمة المهنية في العالم العربي وإسهام التكنولوجيا الحديثة في معالجتها) الذي نظمته مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، 1 – 3 يونيو 1989.

في البلاد العربية أو أوربا أو أمريكا بدراسة مقارنة للكتب المترجمة وأصولها كتلك التي قام بها الأستاذ سانتويو لتوصلوا إلى نتائج لا تختلف عن نتائجه كثيرا على الأرجح .

بين المترجم الأدبي والمترجم الدولي :

وفي ظني أن الخطأ الذي يقع فيه مترجم النص الأدبي (وسأشير إليه فيما يلي بالمترجم الأدبي) أقل فداحة من الخطإ الذي يرتكبه المترجم العامل في المنظمات الدولية أو المؤتمرات العالمية (وسأشير إليه فيما يلي بالمترجم الدولي) . فخطأ المترجم الأول يؤدي إلى الاساءة إلى النص الأدبي والتقليل من قيمته الجمالية وبالتالي حرمان القارئ من التمتع بالنص المترجم بنفس الدرجة التي يبلغها قارئ النص بلغته الأصلية . أما خطأ المترجم في المنظمات الدولية أو المؤتمرات العالمية فقد يتسبب في إطالة المناقشات ، أو عدم التوصل إلى اتفاق مرجو ، أو حتى إلى توتر العلاقات بين الأطراف المعنية . وكم من مرة لاحظت في المؤتمرات الدولية نقاشا يحتد وجدلا يتفاقم نتيجة عدم استطاعة الترجمان (المترجم الفوري) نقل أقوال المتكلم بأكملها ، أو بسبب نقله لمعان لم يرم إليها المتكلم ولم يقصدها بتاتا ، وقد اعتذرت إحدى الدول الأسيوية من الانضمام لاحدى الوكالات الدولية المتخصصة في منظومة المؤتمر الاسلامي لأن ميثاق تلك الوكالة المترجم إلى الأنجليزية يشير إلى «الدول الاسلامية الأعضاء» في حين أن دستور تلك الدولة ينص على أنها دولة علمانية . وفي حقيقة الأمر كان النص الأصلي في ميثاق تلك الوكالة الدولية المتخصصة المدون باللغة العربية يشير إلى «الأقطار الاسلامية الأعضاء» وعندما أوضح المدير العام للوكالة الأمر للمسؤولين في تلك الدولة تم انضمامها إلى الوكالة بعد تأخر دام أكثر من سنتين اضطر المدير العام خلالها السفر مرتين إلى تلك البلاد . وهكذا فإن خطأ ذلك المترجم أدى إلى ضياع كثير من الوقت والجهد والمال .

مشاكل المترجم العربي :

ولكن للمترجم العربي الدولي بعض العذر ، ولا يجدر بنا أن نلقي عليه اللوم كله ، وإنما ينبغي علينا تسليط الضوء على المشاكل التي يواجهها ، وتمحيصها ، وتحليلها ، والوقوف على مصادرها ، واقتراح الحلول الناجعة لها . فالمترجم العربي خليق بالدعم والمساعدة لأنه يقوم بخدمة جليلة للثقافة العربية ورقيها في داخل الوطن العربي وخارجه . وفي الصفحات القادمة سأعرض بعض هذه المشاكل مع الحلول المقترحة .

مشكلة الوقت :

من أهم العوامل التي تؤدي إلى وقوع المترجم الدولي في الخطأ هو عامل الوقت ففي حين أن المترجم الأدبي يزاول هوايته أنى يروق له ذلك وحيثما يرغب فإن المترجم الدولي مقيد بوقت محدود . وإذا كان للمترجم الأدبي أن يشرع في عمله بعد العشاء في داره المريحة وهو يتناول قهوته أثناء استشارته لعدد من المعاجم الأحادية اللغة أو الثنائية اللغة ويترجم المقدار الذي يحلو له ، فإن المترجم الدولي يشترك عادة في مكتب واحد مع عدد من المترجمين الآخرين وأحيانا مع بعض الراقنات وعليه أن يتم ترجمة مقدار محدد من الصفحات يوميا . أما زميله الترجمان (المترجم الفوري) فهو في وضع لا يحسد عليه إذ أنه يجلس في مقصورة لا تربو مساحتها على المترين المربعين وليس في استطاعته أن يعود إلى معجم أو مرجع . وفي كثير من المؤتمرات الدولية التي شاركت في تنظيمها رأيت المترجمين يمضون النهار بأكمله ويسهرون الليل حتى الصباح لاتمام ترجمة الوثائق التي ستعرض على جلسة اليوم التالي .

قدرة المترجم الانتاجية :

إن كثير من المؤسسات التي تستخدم المترجمين تطلب من المترجم حدا أدنى من الانتاج في كل يوم عمل . وقد قام المترجم الايطالي فابريزيو مجالي ، رئيس تحرير مجلة (المترجم الجديد) الايطالية بمسح إحصائي لمعرفة قدرة المترجم الانتاجية في عدد من الأقطار والمؤسسات . وقد حدد وحدته المعيارية بالصفحة الايطالية المستخدمة مقياسا للترجمة التقنية ، وهذه الصفحة تشتمل على 25 سطرا يحتوي كل سطر على 60 حرفا أو بعبارة أخرى أن الصفحة الواحدة تضم ما معدله (220) كلمة وهذا يوافق تقريبا متوسط الصفحات باللغتين العربية والأنجليزية . واستنادا إلى مصادر متعددة أفاد السيد مجالي أن معدل إنتاج المترجم الواحد في اليوم هو بين خمس وسبع صفحات (لمترجمي الحكومة الأمريكية) ، وثماني صفحات (لمترجمي منظمة الأمم المتحدة) ، وتسع صفحات (لمترجمي الشركات الألمانية الغربية)[3] .

ومن ناحية أخرى ، قامت المترجمة إيزابل ليونارد بمحاولة لقياس القدرة الانتاجية للمترجمين الأحرار ، أي الذين يعملون لحسابهم الخاص ، فوزعت استبيانا على المترجمين الأحرار الذين شاركوا في مؤتمر جمعية المترجمين الأمريكيين الذي انعقد في نيويورك عام 1984 ، وحصلت على إجابات 79 مترجما ، ووجدت أن 57% منهم يترجمون ما معدله 2900 كلمة في اليوم الواحد أي حوالي 13 صفحة بمقياس السيد مجالي . وكانت نتائجها التفصيلية كما يلي :

عدد المترجمين	نسبتهم	عدد الكلمات يوميا
1	% 1	1،000 - 0
21	% 27	1،999 - 1،000
22	% 28	2،999 - 2،000
25	% 32	3،999 - 3،000
5	% 6	4،999 - 4،000
4	% 5	5،999 - 5،000
1	% 1	6،999 - 6،000
0	% 0	7،999 - 7،000
2	% 3	8،999 - 8،000
المجموع : 79	(103% بسبب تقريب الأرقام)[4]	

العوامل المؤثرة في قدرة المترجم الانتاجية :

ولا شك في أن قدرة المترجم الانتاجية تتوقف على عدد من العوامل أهمها :

1) **صعوبة النص** : هل يتناول النص قضايا الجينات في الكيمياء الحيوية ، أم خبرا عن زيارة يقوم بها وزير الخارجية لدولة صديقه مثلا ؟

2) **الهدف من الترجمة** : هل المقصود من الترجمة مجرد اطلاع المسؤولين على الموضوع أم أنه معد للنشر في صحيفة ، أو للنشر في كتاب أدبي ؟

3) **وسائل المترجم** : هل يكتب المترجم الترجمة بنفسه ، أو يرقنها على آلته الكاتبة ، أو يمليها على كاتبة اختزال ، أو يستخدم الحاسوب في ذلك ؟ ومن ناحية أخرى هل يستخدم المعاجم العادية وسيلة معينة أم يستخدم المعاجم والمعلومات المخزونة في الحاسوب ؟

4) **خبرة المترجم** : هل للمترجم خبرة طويلة في الترجمة ؟ وهل له خبرة في ترجمة نصوص في حقل الاختصاص ذاك ؟

5) **اللغة التي يترجم إليها** : هل يقوم المترجم بنقل النص الأجنبي إلى لغته الوطنية ، أم بنقل النص إلى اللغة الأجنبية ؟

6) **الضوضاء الخارجية** : والمقصود هنا بالضوضاء الخارجية عدد المرات التي يقاطع فيها المترجم أثناء عمله ، وهل يعمل في المكتب لوحده أم يشترك مع آخرين قد يشوشون عليه ؟

ويصرف النظر عن هذه العوامل التي سنعرض لبعضها بعد قليل ، فإن المشكلة التي يواجهها معظم المترجمين العرب في المنظمات الاقليمية والدولية في البلاد العربية ، تتمثل في النقص في عدد المترجمين بحيث يضطر المترجم إلى العمل بصورة متواصلة وتحت ضغط الوقت لاتمام العمل المطلوب ، ولا تكمن مشكلة المترجم الدولي أثناء المؤتمرات في عدد الصفحات التي ينبغي عليه ترجمتها وإنما في التعديلات والتحريرات المتكررة التي يجري إدخالها بصورة مستمرة على النصوص وضرورة ترجمتها وإدخالها في بقية النصوص ، وكذلك في مطابقة النص بلغات عمل المؤتمر المختلفة فالتعديلات والتغييرات التي تجري على الصفحة قد تستغرق وقتا أطول من ترجمة الصفحة ذاتها . وخليق بنا أن نزيد عدد المترجمين وننظم عملهم بطريقة تضمن الراحة لهم بصورة منتظمة ، وخاصة أثناء انعقاد المؤتمرات إذ يجب أن يكون هنالك فريقان من المترجمين أحدهما يعمل أثناء النهار والآخر يعمل أثناء الليل بعد أن نال قسطا من الراحة .

مشكلة تأهيل المترجمين وتخصصهم :

من الممكن جدا أن تكون شاعرا مفلقا أو مترجما بارعا دون أن تحصل على أية شهادة جامعية . وكان المترجمون في السابق يحترفون مهنتهم دون إعداد متخصص وإنما كان معظمهم من دارسي اللغات الأجنبية الذين نمّوا لديهم مهارات الترجمة بالممارسة . أما اليوم فإن معظم المترجمين قد حصلو على تأهيل رسمي متخصص في الترجمة . ففي الولايات المتحدة لاتتجاوز نسبة المترجمين الذين لم يتموا تكوينهم الجامعي في الترجمة إلى 30% ، وتنخفض هذه النسبة في بريطانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة إلى 10% . أما في البلاد الاسكندنافية فيكاد أن يكون هذا النوع من المترجمين معدوما(5) .

وفي داخل معاهد الترجمة الحديثة في أوربا يتخصص الطالب بالترجمة التجارية ، أو الصناعية ، أو العلمية ، أو القانونية ، وقد أقدمت جامعة دسلدورف الألمانية على منح شهادة في الترجمة الأدبية . وهذا أمر تفرضه الفروق المعرفية واللغوية القائمة بين نصوص تنتمي إلى حقول المعرفة المتباينة .

ولكن معاهد الترجمة في الوطن العربي لا تتعامل مع تخصصات الترجمة المختلفة وتعد طلابها إعداد عاما موحدا . فأحدث هذه المعاهد (مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة) يقدم لطلابه بالاضافة إلى دروس اللغات ، والترجمة ، والمصطلحية ، موضوعات أخرى : مبادىء في الاقتصاد ، ومدخل إلى دراسة القانون ، والعلاقات الدولية ، والقانون الدولي العام ، ومنظمات جهوية (إقليمية) ودولية ، وقضايا الساعة(6) . وهذا يعني أن المدرسة تعد طلابها ليصبحوا مترجمين في منظمات دولية مثل منظمة الأمم المتحدة . ولكن المنظمات الدولية ليست كلها منظمات سياسية مثل منظمة الأمم المتحدة في نيويورك ، فمعظم منظمات منظومة الأمم المتحدة هي منظمات متخصصة مثل منظمة

الصحة العالمية بجنيف ومنظمة التنمية الصناعية بفينا ومنظمة التغذية والزراعة بروما ، وغيرها . أضف إلى ذلك أن سوق العمل بالمنظمات الدولية السياسية محدود وأنه لابد لمعظم خريجي معاهد الترجمة العربية أن يطرقوا أبواب الشركات الصناعية والتجارية العالمية والوطنية .

ولهذا كله يتحتم على معاهد الترجمة في الوطن العربي أن تفتح المجال لطلابها لاختيار التخصصات المختلفة فهذا ييسر للمتخرجين الحصول على عمل كما يحقق لهم النجاح في عملهم لتوفرهم على التدريب اللازم في اللغة المتخصصة ذاتها

مشكلة المعجم العربي :

إن أهم وسيلة من وسائل المترجم هي المعجم الثنائي اللغة سواء أكان يدويا أم إلكترونيا . فكلما كان المعجم جيدا دقيقا شاملا كلما كان عمل المترجم سهلا أمينا سريعا . وقد دلت نتائج استبيان وزعته مجلة (اللغة الشهرية) على قرائها من المترجمين في أوربا وأمريكا أن الأغلبية الساحقة منهم تفضل المعاجم الثنائية اللغة على المعاجم الأحادية اللغة والمعاجم المتعددة اللغة ، وذلك لدقة المعاجم الثنائية اللغة وشموليتها ، ولأن إيجاد المعنى المطلوب فيها يستغرق وقتا أقصر مما في المعاجم الأحادية اللغة . ولكن المعجم العربي الثنائي اللغة حديث العهد لا يتجاوز عمره القرن الواحد من الزمن فهو لا يتوفر

ـب الخبرة التي تجمعت لشقيقه المعجم العربي ا:حادي اللغة خلال قرون طويلة من النمو يعد بـضلها عميد المعاجم في العالم . ويعاني المعجم ا:ربي الثنائي اللغة من مشكلتين أساسيتين هما :

ا) تكديس أشباه المترادفات في مقابل الكلمة الأجنبية الواحدة : ففي معجم المنهل (فرنسي – عربي) الذي يعد أكثر المعاجم الفرنسية – العربية انتشارا في العالم العربي نجد مثلا ما يلي :

«Tombeau sm.	ـمس ، لحد ، ضريح ، قبر
Tombe sf.	ـريح
Fosse sf.	ـد ، ضريح
Mausolée sm.	ضريح ، قبر ضخم »(٠)

فهنـــا نجد أن المعجمـــي يستخـــدم الكلمات : رمس ولحد وضريح وقبر ، وكأنها مترادفات كاملة الترادف ، أو كأن الكلمة الأجنبية (Tombeau) تعني تلك الكلمات العربية جميعا . وواقع الأمر لا هذا ولا ذاك . فاللغتان العربية والفرنسية تفرقان تفريقا واضحا بين الجدث والرمس والقبر والضريح . فالجدث هو الحفرة التي تحفر لوضع الميت فيها ، وعندما يوضع الميت فيها ويحثى عليها التراب وتتساوى مع الأرض تصبح (رمسا) ، وعندما ينصب عليها الشاهد تصبح (قبرا) وعندما يبنى حوله مسجد أو بناء كبير يكون (ضريحا)(٠) . ولما كانت اللغة الفرنسية تتوفر على الفروق ذاتها تكون المقابلات على الوجه التالي :

fosse sf	trou creusé pour l'inhumation des morts	جدث
tombe sf	endroit où un mort est enterré	رمس
tombeau sm	monument élevé sur les restes d'un mort	قبر
mausolée sm	monument funéraire ayant les dimensions d'un bâtiment.(8)	ضريح

وبذلك يمكن أن نصف المعجم بالدقة لأنه يعطي كل كلمة أجنبية مقابلا واحدا يسهل على المترجم استعماله ، أما معاجمنا العربية الثنائية اللغة فغالبا ما تكدس أشباه المترادفات أمام اللفظ الواحد

(٠) مع ملاحظة أن (قبر) لفظ عام، وأن الاستعمال القديم خصص كلمة (لحد) للشق في جانب الحفرة وكلمة (ضريح) للشق في وسط الحفرة، كما يدل لفظ (رمس) على التراب الذي يحثى على القبر كذلك.

والأمثلة على ذلك غزيرة :

2) خلط مفردات الحقل الدلالي الواحد : وهي مشكلة ثانية ذات صلة بالمشكلة السالفة التي يعاني منها المعجم العربي الثنائي اللغة وتؤدي إلى زيادة نثر الأشواك في طريق المترجم العربي .

وتمتاز هذه الظاهرة - إضافة إلى تكديس أشباه المترادفات - بالخلط بين العام والخاص بحيث يستخدم لفظ عام مقابلا لعدد من المفردات الأجنبية المنضوية تحت حقل دلالي واحد . ولنعد إلى معجم المنهل ذاته للنظر في المفردات التالية مع مقابلاتها المنتمية إلى حقل دلالي واحد :

accord sm	***اتفاق*** ، وفاق ، تراض ، تفاهم . ميثاق ، معاهدة
charte sf	قانون ، دستور ، شرعة
compromis sm	تسوية ، صك تراض ، **اتفاق التحكيم**
concordance sf	انسجام ، ***اتفاق*** ، توافق
concorde sm	ألفة ، ود ، وفاق
convention sf	***اتفاق*** ، مشارضة ، تعاقد
entente sf	***اتفاق***
pacte sm	ميثاق ، عهد ، ***اتفاق*** ، عقد
traité sf	معاهدة ، ***اتفاق***[9]

يتبين لنا أن المعجمي قد استخدم كلمة ***اتفاق*** كمقابل وحيد أو أحد المقابلات في جميع المفردات التي سردنا تقريبا . كما اختارها مقابلا رئيسيا لثلاث كلمات من الكلمات التسع . وهو بذلك مصيب ومخطئ في الوقت نفسه . وعلى أية حال فإجراؤه لا تقره مبادئ الصناعة المعجمية الحديثة ، فكلمة ***اتفاق*** لفظ ينضوي تحته كثير من الألفاظ الخاصة المنتمية إلى الأسرة الاشتقاقية ذاتها أو الحقل الدلالي نفسه . فكل (معاهدة) وكل (حلف) هي اتفاق ولكن ليس كل (اتفاق) هو (معاهدة) أو (حلف) . ولو رجعنا إلى أقسام الترجمة في منظومة الأمم المتحدة لوجدناها تستخدم المقابلات التالية بصورة تكاد تكون منتظمة :

accord	اتفاق
charte	ميثاق
compromis	توافق
concordance	انسجام
concorde	وئام
convention	اتفاقية
entente	وفاق
pacte	عهد
traité	معاهدة

ومعلوم أن الكلمة الفرنسية لا تترجم إلى اللغة العربية بمقابل ثابت دائما لا يتغير وإنما ينال معناه شيء من التحوير والتبديل طبقا للسياق الذي ترد فيه والاستعمالات الاصطلاحية للكلمة في لغة الأصل . ومن هنا يضطر المعجمي أن يورد المقابلات الأخرى . ويستطيع أن يفعل ذلك بطريقتين : الأولى بأن يضع المقابلات المحتملة بعد المقابل الأساسي للكلمة ، مثلا :

Pacte : عهد ، ميثاق ، عقد ، وعد ، دستور

والثانية أن يضع المقابل الأساسي فقط متبوعا بمقابلات الاستعمالات الاصطلاحية للكلمة ، مثلا :

Pacte	عهد
Pacte de préférence (Droit)	وعد بالتفضيل
Pacte fédéral (Suisse)	دستور سويسرا الاتحادي
Pacte de Varsovie	حلف وارشو
Pacte de la ligue des Etats arabes	ميثاق جامعة الدول العربية

وقد يجمع بين الطريقتين فيضع المقابل الأساسي متبوعا بالمقابلات المحتملة ثم يدرج الاستعمالات السياقية والاصطلاحية للكلمة مع مقابلاتها العربية .

إن المترجم العربي الدولي بحاجة إلى معجم

جيد دقيق يسهّل عمله ويوفّر عليه كثيرا من الجهد والعناء .

مشكلة ميكنة الترجمة :

إن معظم الشركات المتعددة الجنسيات تستخدم الحاسوب وسيلة مساعدة للترجمة ، ويملك بعضها بنوكا للمصطلحات مثل شركة سيمنز بألمانيا التي يضم بنك مصطلحاتها أكثر من أربعة ملايين مصطلح في تسع لغات . ودل مسح إحصائي أجري في أنجلترا عام 1986 على أن أكثر من 50% من المترجمين يستعينون بمعدات إلكترونية في عملهم ، كما أعرب كثير غيرهم عن أملهم في حيازة مثل تلك المعدات في القريب العاجل .

ولا تتجاوز نسبة المترجمين الذين يقدمون ترجماتهم بخط اليد 6،9% في فرنسا و 2،4% في الأراضي المنخفضة و 3،8% في بريطانيا، وجميع هؤلاء المترجمين تزيد أعمارهم على 35 عاما(10)

والمعدات الالكترونية التي يستعين بها المترجم الغربي تحقق له السرعة وتيسّر عمله ، وهي كثيرة منها الحاسوب الذي يستخدمه لمعالجة النصوص وقد يكون مزودا بمدقق التهجئة ومدقق القواعد ، أما الترجمة الآلية بواسطة الحاسوب فيمكنها ترجمته 300.000 كلمة في الساعة (ماعدا وقت الادخال والاخراج) ، ويستطيع المحرر المكلف بمراجعة الترجمة الآلية أن ينتج 6000 كلمة في اليوم . ولكن معظم المترجمين في البلاد العربية لم يحصلوا بعد على التجهيزات الالكترونية المساعدة التي تدخل ضمن ما يسمى اليوم بالصناعات اللغوية(11) .

دليل المترجم الدولي :

إذا كان المترجم الأدبي يكتفي بالمعجم الأحادي اللغة والمعجم الثنائي اللغة ومعجم المترادفات لاختيار ألفاظه وانتقاء عباراته ، فإن المترجم الدولي يحتاج إلى معلومات لا تتوفر عليها تلك المعاجم ، فهو يحتاج مثلا إلى مسميات الوزارات والمؤسسات والتقسيمات الادارية ، بل وحتى المصطلحات الحضارية التي تختلف مع الأسف من قطر عربي لآخر . فلو كان على المترجم مثلا أن يترجم رسالة موجهة إلى وزارات التربية في البلاد العربية فلا يكفي أنه يعرف معنى عبارة Ministère de l'éducation nationale إذ أن هذه الوزارة تختلف تسميتها من قطر عربي لآخر حتى في تلك الأقطار التي تبنت تلك التسمية الفرنسية ففي المغرب هي وزارة التربية الوطنية وفي تونس وزارة التربية القومية وفي موريطانيا وزارة التهذيب الوطني . كما أنه لا يكفي معرفته لمعنى (Ministry of Education) إذ أن هذه الوزارة تتباين تسميتها من دولة عربية لأخرى حتى في تلك الدول التي تبنت تلك التسمية الأنجليزية ففي مصر وزارة التعليم وفي السعودية وزارة المعارف وفي سوريا وزارة التربية وفي الأردن وزارة التربية والتعليم وهكذا . فالمترجم العربي إذن بحاجة إلى دليل يشتمل على تسميات تلك المؤسسات ليختار التسمية المناسبة لكل قطر .

والمترجم الدولي يحتاج كذلك إلى قائمة بمقابلات الأسماء المختصرة ، فجميع المنظمات الدولية واللجان المتفرعة عنها والصناديق المتشعبة منها تستخدم حروفا قليلة بدلا من أسمائها الطويلة مثل :

ISESCO : Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة

والمترجم الدولي لا يمكن أن يحفظ تلك التسميات عن ظهر قلب لأنها تبلغ الآلاف ، وهي غير مدرجة في المعاجم ، ومن هنا أصبح المترجم

الدولي بحاجة إلى دليل يضم هذه المختصرات وما يقابلها سواء أكان هذا الدليل يدويا أو إلكترونيا .

ولفترة طويلة كانت المكتبة العربية تفتقد مثل هذا الدليل حتى استطاعت وحدة الترجمة العربية التي يرأسها السيد محمد الديداوي في منظمة التنمية الصناعية في فينا من إخراج هذا الدليل[12] .

الهوامش

J.C. Santoyo, *El delito de traducir* (Léon : Universidad de Léon, 1985) 225 pp. (1)

Wendy Williams, «Those Criminals the translators» in *Language Monthly*, 29 (1986) 8. (2)

Fabrizio Megale, «Metodo di calcolo della produttività d'un traduttore» in *Language Monthly*, 21 (1985) 9 - 10 (3)

Isabel Leonard, «How Many Words does a Translator Produce in a Day ? in *Language Monthly*, 21 (1985) 11. (4)

Margaret Grindod, «Portrait of a Profession», in *Language Monthly*, 29 (1986) 9 - 10 (5)

(6) البرنامج الدراسي لمدرسة الملك فهد العليا للترجمة ــ طنجة، 1989

(7) الدكتور جبور عبد النور والدكتور سهيل ادريس، *المنهل* (بيروت : دار العلم للملايين الطبعة التاسعة 1986).

(8) التعاريف الفرنسية مأخوذة من معجم لاروس للتدليل على أن اللغة الفرنسية تفرق بين معاني الكلمات الأربع
Petit Larousse Illustré (Paris : Librairie Larousse, 1983)

(9) معجم *المنهل*، مصدر سابق

«Translators going electronic», in *Language Monthly*, 29 (1986) 7. (10)

Pierre Auger, «Les métiers langagiers et les industries de la langue : Presentation». *L'actualité terminologique*, Vol. 22 no. 3 (1989) 1 - 2 (11)

(12) منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية، دليل المترجم (فينا : اليونيدو، 1986).

الخلاصة :

لقد استعرضت في الصفحات القليلة التي مرت بعض الصعوبات والمشكلات التي تؤثر في قدرة المترجم العربي الدولي الانتاجية ودقته وسير عمله بشكل عام ، وأهم هذه المشكلات عدم صلاحية الاعداد والتدريب المتوفران له ، وحجم العمل الملقى على عاتقه ، وقلة الوسائل الالكترونية الموضوعة تحت تصرفه ، وسوء المعاجم العربية الثنائية اللغة التي يستخدمها وعدم توفر الأدلة المتخصصة للمترجمين ، كما اقترحت بعض الحلول لها .

الأسلوب

دراسة لغوية إحصائية

د . مازن الوعر
جامعة دمشق

مدخل

(الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية) هو عنوان الكتاب الذي ألفه الباحث اللساني العربي الدكتور سعد مصلوح[1] ونشرته دار الفكر العربي بمصر عام 1984 .

يطرح الكتاب منهجا حديثا في الأسلوبيات يمكن أن يعتبر بديلا لسانيا للنقد الأدبي المعروف . وهذا ما يجعل المؤلف يوضح الأسباب التي دعت لصياغة مثل هذا المنهج الأسلوبي فيدرس ماهية الأسلوب القديم والحديث ويبين الحاجة الماسة إلى تطبيق المعايير العلمية الدقيقة على دراسة الأنواع الأدبية ولا سيما استخدام علم الاحصاء .

وبعد أن يصوغ المؤلف المنهج الأسلوبي الحديث يحاول تطبيقه على بعض النماذج النثرية المعاصرة سواء أكان ذلك في المسرح أم في الرواية .

تطمح الدراسة الحالية إلى إعطاء فكرة واضحة ومكثفة لهذا المنهج الأسلوبي الجديد وتبيان كيفية تطبيقه على الأنواع الأدبية النثرية ... ثم تبيان الجوانب الايجابية والجوانب السلبية التي يتسم بها هذا المنهج .

1 . الحاجة إلى منهج

(1) يميز المؤلف هنا بين تذوق الأدب وبين دراسته دراسة علمية موضوعية . فالقارىء المتمرس يميز في صبر وحذق بين مختلف الأساليب . وهذا التمييز التلقائي سلاحه «الحدس» و «الذوق» وكلاهما لا يكون من فراغ ، ولكنه محصلة خبرات طويلة .

وليس بنادر أن تجد مثل هذا القارىء ينفر من أسلوب ما ، لأنه يتسم في رأيه بالجفاف أو الرتابة أو الصعوبة والتعقيد وينعطف إلى أسلوب آخر ، لأنه يتصف في ميزانه بالثراء والتنوع أو اليسر والتشويق أما دارس الأدب فلا ينبغي له أن يكون مجرد قارىء متذوق لا يختلف عن سائر القراء إلا في الدرجة . بل إن عليه أن يتمتع بازدواجية تمكنه من أن يكون حين يشاء قارئا متذوقا ، وحين يشاء دارسا محللا . والحقيقة إن الفرق بين الموقفين هو الفارق ما بين ذاتية المتلقي وموضوعية الباحث .

(2) يعتقد المؤلف أن الأدب فن ولكن دراسة الأدب ينبغي أن يكون علما منضبطا . والعلم المنضبط يحتاج إلى أن تكون له فلسفة وموضوع

ومنهج يشتمل على معايير موضوعية للقياس والوصف والاستنباط . ومن ثم لابد لدراسة الأدب من استيفاء هذه الشروط لكي تكون جديرة بأن تحتل مكانها بين العلوم . ولكن المذاهب النقدية خضعت في نشأتها وتطورها لتأثيرات الاتجاهات والمدارس الفلسفية المختلفة ومن ثم حملت معها عيوب الفلسفة ومزاياها . ومن أخص هذه العيوب الاتفاق على عدم الاتفاق . والذي نلاحظه دائما أن دائرة الخلاف كثيرا ما تتسع كلما بعدنا عن «النص الأدبي» وخضنا بالحديث في بيئة النص وعصره وحياة مؤلفه على ما هو سائد في النقد التاريخي . أما حين يكون النص هو محور الاهتمام . وموضوع الدراسة فإن حديثنا يصبح أكثر التزاما بموضوعية العلم .

(3) المذهب الشكلي في النقد - حسب رأي المؤلف - يكاد يكون أقرب المذاهب النقدية إلى روح العلم . فقد استمد هذا المذهب فلسفته النظرية من الوضعية المنطقية وعبر عن نفسه أوضح تعبير في مؤلفات الناقد الشهير ايفور ريتشاردز . ولما كان فلاسفة الوضعية المنطقية يعتبرون اللغة كلها رمزا وجعلوا الدراسة الرمز اللغوي علما خاصا أطلقوا عليه مصطلح «السيميولوجيا» أو «السيميائيات» لذلك انعكس هذا كله في دراسة النقاد الشكليين فبرزت فيها أهمية التحليل اللغوي الذي قام على أساس من التمييز الواضح بين لغة العلم ولغة الأدب .

فهم لم يستعينوا بسيرة الشاعر ولا اعتمدوا على التاريخ ، ولا استندوا إلى علم الاجتماع وعلم النفس التحليلي في فهم العمل الأدبي وتقويمه . لقد عزفوا عن الدراسة التاريخية التي كانت تدور حول النص ، وانكبوا على النص ذاته .

وهكذا فإن المذهب الشكلي في النقد كان من أهم الاتجاهات التي نبهت إلى دراسة لغة النص ، ومهدت بذلك لاثارة اهتمام علماء اللغة الخلص بقضية الأسلوب وإقامة الجسور ما بين علم اللغة ودراسة الأدب .

(4) وهكذا فإن المؤلف يدعو إلى ضرورة العمل على إرساء منهج لساني في نقد الأدب العربي يكون فيه النص أولا وقبل كل شيء موضوع الدراسة ويكون منهج الدراسة فيه لسانيا بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح .

لقد نشأت الدراسات اللسانية المعاصرة بمختلف اتجاهاتها تحت تأثير فكرة أساسية هي البنيوية . واستطاعت هذه الدراسات اللسانية - على اختلاف اتجاهاتها - أن تطور من أدواتها وأن تولي جانبا من همومها النظرية والتطبيقية لدراسة العمل الأدبي باعتباره نمطا متميزا من أنماط الاستعمال اللغوي وأن تنتقل بوسائلها المنهجية من العمل في إطار «نحو الجملة» - وهو النحو الذي يعتبر الجملة أكبر وحدة في التحليل اللغوي - إلى محاولة ترسيخ نمط جديد من التحليل اصطلح على تسميته «نحو النص» وهو النمط الذي يعتبر النص كله وحدة التحليل .

وفي رأي المؤلف ، ما تزال دراسة الأدب العربي بعيدة كل البعد عن الافادة من إنجازات الدرس اللغوي المعاصر في هذه السبيل . وهو أمر لا يثير دهشة ، إذ أن المدرس اللساني المعاصر نفسه ما يزال محدود التأثير على دراسة العربية .

(5) يتحدث المؤلف بعد ذلك عن الثمرات التي يمكن أن نجنيها باستخدامنا هذه المناهج اللسانية الحديثة في وصف النص الأدبي .

أول ثمرة هي الوقوف في وجه طوفان المصطلحات الذي تهدر به الدراسات الأدبية المتداولة ، إذ إنه من المستحيل إخفاء الصفة العلمية على أي دراسة لا تستعمل مصطلحات محددة المدلول .

ويتساءل المؤلف هنا هل يزيد القارىء العربي معرفة بزيد أو عمرو من الكتاب أو الشعراء أن يُقال له : إنه جزل الألفاظ ، متين السبك ، سلس الأفكار : عذب الموسيقى ، محلق الخيال ، قوي العاطفة ، أو أن يقال له – على عكس ذلك – أن أسلوبه يمتاز بالركاكة والضعف والجفاف وخمود العاطفة . ؟

إن شيوع هذه الألقاب في كتب التراث لا تسوغ للمعاصرين استعمالها دون تحديد ، فلا شك أن دلالاتها عند علماء السلف كانت واضحة . وحسب رأي المؤلف ، ليس من التجاوز أن نقول : إن غالبية الأحكام النقدية التي تنتشر في مؤلفات طه حسين هي من هذا القبيل .

وليست هذه الدراسات عند جمهرة من نقادنا المتأثرين بالثقافات الأجنبية بأوفر حظا من الدقة في هذا المضمار . ذلك أن أكثر هذه الدراسات تفر من مواجهة مشكلات البنية اللغوية في النصوص لتناقش مضامين مجردة عن أزمة الانسان المعاصر ، وقضايا العبث والغثيان والقلق والمخاض ، حتى إذا رجع إلى معالجة لغة النصوص وجدناه يستخدم التعبيرات الذاتية المرنة التي لا ترقى إلى أن تكون مصطلحات علمية ، أو يقع قريبا منها :

هذه المناقشة تقود المؤلف لأن يطرح السؤال التالي : ترى هل نعني بذلك أن «الأسلوبيات» هي البديل الموضوعي للنقد الأدبي؟ والجواب حسب رأيه أن ذلك قد يكون وقد لا يكون فهو من مسائل الخلاف . لكننا نحسب أن من الأمور التي ينبغي أن تكون موضع اتفاق لقربها من بداهة العقل أن التفسير والتقويم تاليان للوصف والتحليل . والأسلوبيات هي المرجوة لأداء مهمة الوصف والتحليل على خير وجه ممكن . وهكذا فإن الأسلوبيات ليست النقد كل النقد بل هي أساس لابد منه لتقويم العمل الأدبي تقويما موضوعيا .

(6) الواقع هناك معايير موضوعية كثيرة لتحليل النص الأدبي .. ولكن المؤلف يخص كتابه كله لنوع واحد من هذه المعايير الموضوعية هو القياس الكمي أو التحليل الاحصائي للنصوص الأدبية . أي أن النص الأدبي يمتاز عادة باستخدام سمات لغوية معينة من بينها :

1 . استخدام وحدات معجمية معينة .
2 . الزيادة أو النقص النسبيان في استخدام صيغ معينة أو نوع معين من الكلمات (صفات ، أفعال ، ظروف ... إلخ)
3 . طول الكلمات المستخدمة أو قصرها .
4 . طول الجمل .
5 . نوع الجمل .
6 . إيثار تراكيب أو مجازات معينة

فهذه السمات اللغوية حين تحظى بنسبة عالية من التكرار وحين ترتبط بسياقات معينة على نحو له دلالته تصبح خواص أسلوبية تظهر في النصوص بنسب (Ratios) وكثافة (Density) وتوزيعات (Distributions) مختلفة .

يطلق على هذا النوع من الدراسة مصطلح «الأسلوبيات الاحصائية» وهي إحدى مجالات الدراسة اللسانية الأسلوبية المعاصرة .

2 . ماهية الأسلوب

(1) يبحث المؤلف هنا في المادة اللغوية المدروسة ليبين كيف يمكن أن تتلون وتتسم بطرائق مختلفة من أجل التعبير ... تلك الطرائق المختلفة المسماة بـ «الأساليب» .

إن العمل الأدبي هو رسالة موجهة من المنشىء إلى المتلقي تستخدم فيها نفس الشفرة اللغوية

المشتركة بينهما . ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموعة الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكون نظام اللغة المشتركة . ولكن كيف يتميز هذا المنشىء أو ذاك بأسلوبه الخاص في استعمال اللغة؟

(2) يرى بعض الباحثين أن اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الامكانات المتاحة للتعبير ومن ثم فإن الأسلوب يمكن تعريفه بأنه ***«اختيار» أو «انتقاء»*** يقوم به المنشىء لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين .

وكون الأسلوب عند هؤلاء الباحثين اختيار لا يعني أن كل اختيار يقوم به المنشىء لابد أن يكون أسلوبيا ، إذ علينا أن نميز بين نوعين مختلفين من الاختيار :

ا – اختيار محكوم بالموقف أو المقام (context of situation) وهذا الانتقاء هو انتقاء نفعي ربما يؤثر فيه المنشىء كلمة أو عبارة على أخرى لأنها أكثر مطابقة في رأيه للحقيقة أو لأنه يريد أن يضلل سامعه أو يتفادى الاصطدام بحساسية تجاه عبارة أو كلمة معينة .

ب – اختيار محكوم بمقتضيات التعبير الخالصة . وهذا الانتقاء هو انتقاء نحوي . والمقصود بالنحو في هذا المصطلح قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجملة . ويكون هذا الانتقاء حين يؤثر المنشىء كلمة على كلمة أو تركيبا على تركيب لأنها أصح عربية أو أدق في توصيل ما يريد . ويدخل تحت هذا النوع من الانتقاء كثير من موضوعات البلاغة المعروفة كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف .

ويتحدد الشكل النهائي للنص بهذين النوعين من الاختيار ، أعني الاختيار النفعي والاختيار النحوي . والقول بأن الأسلوب اختيار ربما كان موافقا لما هو معلوم بالضرورة عن عملية الابداع ، واشتمالها بحكم طبيعتها على سلسلة من الاختيارات .

(3) وقد أولى فريق آخر من رواد الدراسة الأسلوبية اهتماما أكبر إلى ما يتولد عن الرسالة (أو النص) من ردود فعل لدى المتلقي ، ومن ثم أقام تعريفه للأسلوب على إبراز هذه الخاصية فيه . ويرى ميشيل ريفاتير أحد أعلام هذا الاتجاه – أن الأسلوب قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارىء بواسطة «إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام ، وحمل القارىء على الانتباه إليها بحيث إن غفل عنها تشوه النص» .

ويرى المؤلف هنا وجود وشائج قوية بين مفهوم الأسلوب عند ريفاتير ونظرية التخييل الشعري التي استنبطها الفلاسفة المسلمون من شرحهم لكتاب الشعر الأرسطي ، ووصلت ذروة نضجها عند البلاغي العربي أبي الحسن حازم القرطاجني صاحب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» .

(4) وثمة رؤية أخرى للأسلوب ترى فيه مفارقة أو انحرافا عن نموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه نمط معياري .

إن سوغ المقارنة بين النص المفارق والنص النمط هو تماثل السياق في كل منهما .

إن أداة التحليل الأسلوبي عند أصحاب هذا الرأي هي المقارنة بين الخصائص والسمات اللغوية في النص النمط مرتبطة بسياقاتها وبين ما يقابلها من خصائص وسمات في النص المفارق .

(5) والأسلوب – من وجهة نظر رابعة – ليس اختيارا ، ولا قوة ضاغطة ينبغي البحث عنها في ردود فعل المتلقي ، ولا انحرافا عن نمط معياري .

وإنما الأولى أن يعتبر إضافة . وتفترض هذه النظرة ابتداء وجود تعبير محايد لا يتسم بأي سمة أسلوبية محددة يمكن أن يسمى بالتعبير غير المتأسلب أوتعبير ما قبل التأسلب ، ثم تكون السمات الأسلوبية إضافة إلى هذا التعبير المحايد لكي تنحو به منحى خاصا موافقا للعبارة عن سياق بعينه .

وتقتضي مهمة الباحث عند أصحاب هذا المفهوم القيام بعملية تجريد أو تعرية للعبارة المتأسلبة بغية الوصول إلى الجوهر المجرد قبل أن تكسوه هذه السمات الأسلوبية المعينة .

(6) أما وجهة النظر الخامسة فتميل إلى القول بأن الأسلوب تضمين (connotation) . وهذا يعني أن كل سمة لغوية تتضمن في ذاتها قيمة أسلوبية معينة ، وأنها تستمد قيمتها الأسلوبية من بيئة النص أو الموقف . وهذه القيمة قابلة للتغير بتغير البيئة التي توجد فيها والموقف الذي تعبر عنه .

(7) ويمكن رد الخلافات النظرية حول تعريف الأسلوب إلى مبادىء ثلاثة :

أولها : أن من ركز من الدارسين على العلاقة بين المنشىء والنص راح يلتمس مفاتيح الأسلوب في شخصية المنشىء . وانعكاس ذلك في اختياراته حال ممارسته للابداع الفني . وبذلك رأى أن الأسلوب اختيار .

ثانيها : أن من اهتم منهم بالعلاقة بين النص والمتلقي التمس مفاتيح الأسلوب في ردود الأفعال والاستجابات التي يبديها القارىء أو السامع حيال المنبهات الأسلوبية الكامنة في النص .

ثالثها : أن أنصار الموضوعية في البحث أصروا على عزل كلا طرفي عملية الاتصال وهما المنشىء والمتلقي ، ورأوا وجوب التماس مفاتيح الأسلوب في وصف النص وصفا لغويا .

وقد اختلف هؤلاء في الزاوية التي يتم الانطلاق منها إلى وصف النص على النحو الذي سبق بيانه ، فمنهم من قال بأنه انحراف عن نمط ومنهم من رأى بأنه إضافات إلى تعبير محايد ومنهم من رأى أنه خواص متضمنة في السمات اللغوية تتنوع بتنوع البيئة والسياق .

والحق أن هذه المناهج الموضوعية الثلاثة كما يقول اينكيفت إنما هي مناهج متكاملة أكثر من كونها بدائل .

(8) يتضح مما سبق أن الخلاف النظري هنا حول تعريف الأسلوب ليس من قبيل الخطأ والصواب : إن أي تعريف من التعريفات السابقة قابل لأن يكون أساسا للبحث وأن الطرز النحوية جميعها ــ بما في ذلك الطراز التقليدي ــ قابلة من حيث المبدأ لأن تشكل أساسا منهجيا للبحث الأسلوبي . فالجرجاني استطاع أن يصل إلى نظريته الأسلوبية التي عرفت بنظرية النظم من خلال استخدامه النحو العربي التقليدي أساسا لتمييز الأساليب .

وقد اتفقت المدرسة البنيوية والمدرسة التوليدية التحويلية على ظاهرة واحدة هي إعراضهما في أول الأمر عن تبني دراسة الأسلوب . ومرد ذلك إلى اهتمامها بالجملة باعتبارها أكبر وحدة قابلة للتحليل في المادة اللغوية . ولما كانت دراسة الأسلوب لا تكتفي بتحليل الجملة بل تتجاوزها إلى تحليل النص باعتباره هو في ذاته أكبر وحدة للتحليل وليس باعتباره مجرد سلسلة متتابعة من الجمل ، لذا فقد أحجم اللغويون في بادىء الأمر عن دراسة الأسلوب .

ولكن حيوية المشكلة الأسلوبية وطرافتها ، وصلتها الوثيقة باللغة كظاهرة وبدراستها كعلم

ما لبث أن اجتذبت اهتمام اللغويين من سلوكيين وتحويليين ، وظهرت ثمرة هذا الاهتمام عند تلامذة بلومفيلد من أمثال بلوخ وزيليغ هاريس وكينيث بايك . كما أعطت بعض الفرضيات عند التحويليين مثل فرضية القدرة اللغوية (Competence) والأداء (performance) وفرضية البنية الظاهرة والبنية الباطنة وفرضية الجملة النواة والجملة المحولة وفرضية القاعدة الجبرية (الملزمة) والقاعدة الاحتمالية وغيرها مجموعة التصورات المنهجية التي أعانت على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية وموضوعية .

3 . الاحصاء ودراسة الأسلوب

(1) البعد الاحصائي في دراسة الأسلوب هو من المعايير الموضوعية الأساسية التي يمكن باستخدامها تشخيص الأساليب ، وتمييز الفروق بينها .

وترجع أهمية الاحصاء هنا إلى قدرته على التمييز بين السمات أو الخصائص اللغوية التي يمكن اعتبارها خواص أسلوبية وبين السمات التي ترد في النص ورودا عشوائيا . وبيان ذلك أنه ليس كل انحراف جديرا بأن يعد خاصة أسلوبية هامة ، بل لابد لذلك من انتظام الانحراف في علاقاته بالسياق .

لقد مر استخدام الاحصاء في دراسة اللغة بمرحلتين ، ساد في أولاهما اتجاه يهدف إلى قياس الخصائص العامة (أو المشتركة) في الاستعمال . أما في المرحلة الثانية فقد ساد اتجاه مقابل هدفه التوصل إلى الخصائص الفارقة (أو المميزة) بين الأساليب والحق أن الاتجاهين يتكاملان في دراسة الأسلوب لا يتسغنى بأحدهما عن الآخر .

(2) ومن الأسئلة المطروحة في مجال الأسلوب ودراسته سؤال عن مدى ارتباط المصطلح «أسلوب» بالمصطلح «أدب» . أو بعبارة أخرى : هل الأسلوب صفة مميزة للغة الأدب فحسب أو للغة الأدب والعلم إذا شئنا شيئا من التوسع؟ أم أن جميع أنواع الاستعمال اللغوي على اختلافها قابلة لأن تصنف باعتبارها أساليب ؟

هنا تبرز – على حد رأي المؤلف – إحدى ثمرات الارتباط بين دراسة الأسلوب واللسانيات حيث يتخذ منظور الأسلوب آفاقا أكثر رحابة توسع من محدودية النظرة القديمة . إن كثيرا من الدراسات الأسلوبية وإن كانت تولي عناية كبرى للغة الأدب — ترى أن الأسلوبية صفة يمكن إسباغها على أي نص من نصوص اللغة

وبهذا المفهوم توجد وجوه شبه قوية بين الأساليب واللهجات ولا سيما اللهجات الاجتماعية حتى ليمكن القول بأن الأساليب إنما هي أنواع خاصة من اللهجات الاجتماعية . وينشأ عن ذلك أن مفهوم الأسلوبيات يمكن أن يكون أشمل من أن يقتصر على دراسة لغة الأدب .

وينبغي أن يكون واضحا أننا إزاء هذا النوع من الأساليب الجماعية لا نهتم بالفروق الفردية بين الأساليب وإنما نهتم بما يميز الأسلوب الأدبي من الأسلوب العلمي أو من الأسلوب الرسمي والأسلوب المستخدم في العبادات والشعائر الدينية ، وذلك بنفس الطريقة التي نميز بها بين اللهجات المهنية ولهجات المثقفين ولهجات اللصوص والخارجين على القانون .

إن هذه الانتماءات يصنفها المشتغلون باللسانيات الاجتماعية إلى صنفين رئيسين : أولهما الانتماء المتجانس أو المتوحد وثانيهما الانتماء المتعارض أو المتعدد .

وقد نجحت الجغرافية اللغوية – وهو العلم الذي يدرس اختلاف اللهجات في المكان – نجاحا

ملحوظا في رسم الحدود بين اللهجات وذلك بابتكار فكرة خط التوزيع (Isograph) وهو الخط الذي يفصل بين منطقتين متباينتين في نطق ما . وشجع هذا النجاح على استخدام فكرة خطوط التوزيع في تمييز الحدود اللهجية بين اللهجات الاجتماعية في منطقة واحدة ، وكذلك في تحديد الأساليب .

وتتنوع خطوط التوزيع إلى خطوط التوزيع المعجمي (isolexics) وخطوط التوزيع الصوتي (isophonics) وخطوط التوزيع الصرفي (isomorphics) وخطوط التوزيع النغمي (isotonics) وخطوط التوزيع النحوي (isogrammatics) .

وبعد رصد العلاقات المختلفة بين الاستعمالات اللغوية على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية يتم رسم خطوط التوزيع الخاصة بكل مستوى .

(3) ويقود هذا المؤلف لأن يحدد العلاقة بين ما هو أسلوبي وما هو إحصائي عند دراسة أساليب الأعمال الأدبية . وحسب رأيه فإن الدراسة الأسلوبية تستعين بالاحصاء في المجالات الآتية :

أولا : المساعدة في اختيار العينات اختيارا دقيقا بحيث تكون ممثلة للمجتمع المراد دراسته .

ثانيا : قياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أو عند كاتب معين . فإذا أردنا على سبيل المثال قياس كثافة الجمل الاسمية (أو الفعلية) في نص معين قمنا بحساب عدد مرات تكرار الجمل الاسمية (أو الفعلية) في النص ثم نقسمها على طول النص (مقدرا بعدد الجمل الأخرى) وبذلك يمكننا تحديد كثافة الجمل الاسمية .

ثالثا : قياس النسبة بين تكرار خاصة أسلوبية وتكرار خاصة أخرى للمقارنة بينهما . ويتم حساب النسبة بإحصاء عدد مرات تكرار الخاصة الأولى وعدد مرات تكرار الخاصة الثانية في نص من النصوص وقسمة حاصل جمع تكرار إحداهما على حاصل جمع تكرار الأخرى .

ويمكن بهذه الطريقة حساب نسبة الجمل الاسمية إلى الجمل الفعلية أو نسبة الأفعال إلى الصفات ، أو نسبة الجمل الطويلة إلى القصيرة .

رابعا : قياس التوزيع الاحتمالي لخاصة أسلوبية معينة . إن التوزيع الاحتمالي كما يراه المؤلف يصف الاحتمال (أو التوقع) الذي تتكرر به ظاهرة ما في مجموعة من العينات .

خامسا : يخدم الاحصاء أيضا في التعرف إلى النزعات المركزية في النصوص . وبيان ذلك أن تميز نص باستخدام جمل طويلة مثلا لا يعني انعدام الجمل القصيرة في ذلك النص . بل كل ما يعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبة إلى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة .

(4) وطبقا لرأي المؤلف فإن هذه الاستخدامات المتنوعة لعلم الاحصاء تفيدنا في دراسة ومعالجة عدد كبير من قضاياه . إنها – بالاضافة إلى المعايير الموضوعية الأخرى – تسهم في تمييز الأساليب وتشخيصها على فرض تعاصر هذه الأساليب وهي ما يسمى بالدراسة السنكرونية كما أن استخدامها في تمييز التطور التاريخي للأساليب ليس بأقل جدوى ويسمى هذا النوع من الدراسة بالدراسة الدياكرونية .

(5) وتمتد الافادة من الاحصاء إلى منطقة تتصل اتصالا وثيقا بنقد الأدب ، وتغطي دائرة واسعة من المسائل النقدية مثل لغة الأدب ونقد الأسلوب بتمييز خصائصه كالتنوع أو الرتابة والسهولة أو الصعوبة والطرافة أو الأملال . ذلك لأن هذه الأحكام الذاتية التي يصدرها القراء وطائفة من النقاد الذين يحتكمون إلى أذواقهم المدربة ترتبط

بوجود منبهات هي في معظم الأحيان سمات لغوية معينة ترد في النصوص بتكرار معين ونسب وكثافات وتوزيعات معينة .

(6)هناك ميدان هام حقق فيه القياس الكمي نتائج طيبة ، ونعني به ميدان ترجيح نسبة النصوص مجهولة المؤلف أو المشكوك في نسبتها إلى مؤلفين بأعيانهم . وتشتد الحاجة إلى الاستعانة بالمنهج الاحصائي عندما تنعدم الشواهد التاريخية أو الوثائقية النصية التي يمكن الاعتماد عليها لترجيح قول على قول .

(7) ولا تنحصر أهمية القياس الكمي للأسلوب في مجالات الدراسة الأدبية عامة ، ونقد الأدب خاصة بل تتجاوزها إلى دائرة واسعة من العلوم الانسانية التي تهتم بعملية الاتصال اللغوي . ويأتي علم النفس اللغوي أو اللسانيات النفسية في مقدمة هذه العلوم ، حيث تستخدم هذه القياسات كمؤشرات هامة في التعرف إلى القدرات ودراسة كثير من الجوانب المتصلة بالشخصية والأسس النفسية للابداع القولي .

4 . قضايا أساسية في دراسة لغة الأدب

يعرض المؤلف هنا للاستفادات التي يمكننا أن نجنيها أن من الأسلوبيات عندما نطبقها على دراسة لغة الأدب بأنواعه المختلفة .

(1) أولى هذه الاستفادات حل الاشكال بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي . ويعرض بهذا الشأن لكتاب الأسلوب لأحمد الشايب الذي ميز بين الأسلوبين العلمي والأدبي بما يلي :

فالشايب يعتمد أولا على تقرير العقل الرزين مصدرا ، وعلى الافادة وخدمة المعرفة غاية الأسلوب العلمي . كما يعتمد على تقرير الانفعال (أو العاطفة) مصدرا ، وعلى الاثارة إلى جانب الافادة غاية الأسلوب الأدبي .

والشايب يضفي ثانيا على العبارة في الأسلوب العلمي صفة الدقة والتحديد والاستقصاء والسهولة والوضوح . على حين يصف العبارة في الأسلوب الأدبي بأنها تعرض الحقائق رائعة جميلة ، وأنها تمتاز بالجزالة والقوة والكلمات الموسيقية .

ويرى المؤلف أن جل ما ذكره صاحب كتاب الأسلوب ربما كان صادقا تمام الصدق من زاوية حساسية القارىء المثقف المتمرس تجاه النصوص ، ولكن جميع التصورات والمصطلحات المستخدمة عصية جدا على التقنين العلمي ، فكل أولئك مفاهيم نسبية مرنة إلى حد كبير . وأنى لنا – حسب رأي المؤلف – أن نميز على وجه الدقة مقدار السهولة أو الوضوح أو الجزالة أو القوة وغير ذلك من المصطلحات ما لم نستند في التحديد إلى معايير موضوعية تتخذ أساسا للحكم .

وحين لاحظ الباحثون وجود درجات متفاوتة من الأسلوب تتدرج ما بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي ظهرت فكرة تعترف بوجود قسيم ثالث شاعت تسميته بالأسلوب العلمي المتأدب .

(2) ثاني هذه الاستفادات هو التمييز بين لغة الشعر ولغة النثر وذلك التمييز الذي هو أيسر على القارىء والباحث . وهذا حق إذا قبلنا معيار الشكل وهو الوزن والقافية أساسا للتمييز على حد تعريف قدامة بن جعفر .

ولكن وجود خصائص شعرية على درجات متفاوتة في بعض النثر وغياب هذه الخصائص الشعرية في بعض ما هو موزون مقفى دفعت بعض المنشئين العرب إلى أن يستحدثوا تحت تأثير الآداب الأوربية ما سمي بقصيدة النثر أو الشعر المنثور .

وينشأ عن هذه المناقشة على حد رأي المؤلف أننا إذا نحينا الاطار الشكلي من الوزن والقافية جانبا ـــ وجدنا أنفسنا أمام مشكلة حقيقية حين نريد أن نميز لغة الشعر من لغة النثر . وهذه مسألة أخرى تضاف إلى مسألة التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب . ولا شك ـــ حسب رأي المؤلف ـــ أن أفضل حل لهاتين المسألتين لا يتأتى إلا بمحاولة تحليل لغة النصوص كما أسلفنا .

(3) هناك مسألة ثالثة يمكن أن يلتمس حلها في تحليل لغة النصوص من الوجهة الأسلوبية وهي تنوع الأساليب بتنوع الأجناس الأدبية . ولعل من أهم الأفكار المستنيرة التي سبق إليها صاحب كتاب «الأسلوب» دعوته إلى اعتبار دراسة الأسلوب بديلا للبلاغة القديمة وإلى أن تشتمل هذه الدراسة فيما تشتمل على دراسة ما تتميز به فنون الأدب المختلفة كالمقالة والمقامة والخطبة والجدل والمناظرة وغيرها .

والسؤالان الواردان هنا هما : هل يتميز كل جنس من أجناس الأدب بسمات أسلوبية مميزة ؟ وهل تتنوع السمات الأسلوبية داخل العمل الأدبي الواحد تبعا لاختلاف المؤثرات التي تكيف البنية اللغوية والفنية للنصوص ؟ .

(4) من الطبيعي أن يكون لعلاج «لغة الأدب» منظوران : أحدهما «لغوي» والآخر «أدبي» وأن نتوقع من اللغويين والنقاد عملا دائبا نشطا في محاولة تشخيصها . ويبرز النقد الشكلي كواحد من أهم الاتجاهات النقدية التي أولت عنايتها لتحليل لغة العمل الأدبي ، وهذا ما عبر عنه الناقد الانكليزي أيفور رتيشاردز بنصه الشهير في كتابه «مبادىء النقد الأدبي» تحت عنوان «الوظيفة المزدوجة للغة : الوظيفة العلمية والوظيفة الانفعالية» .

وبالرغم من دعوى رتيشاردز أن التمييز بين الاستعمالين بسيط لم تحض أفكاره هذه بلا معارضة حتى بين النقاد أنفسهم ، وكان من بين معارضيه الناقد ج . رانسوم والناقدة إيزابيل هانجرلاند .

وقد أدى الجدل النقدي حول التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب إلى تزايد اهتمام اللغويين بها وحفزهم على إنضاج مفاهيمهم وتصوراتهم المنهجية وتحسين وسائل الدراسة . وبذلك محاولة هامة للانتقال من دراسة قواعد تركيب الجملة إلى قواعد تركيب النص (أو الخطاب) .

5 . معادلة بوزيمان

(1) يحاول المؤلف هنا تقديم بديل موضوعي يمكن على أساسه تمييز الأساليب وحل القضايا التي أسلف الحديث عنها . وهي :

ا . تمييز لغة الأدب من لغة العلم .
ب . تمييز لغة الشعر من لغة النثر .
ج . تمييز اللغات المستخدمة في الأجناس الأدبية .

تعرف المعادلة التي تستخدم لقياس هذه الخصائص وتشخيص لغة الأدب تشخيصا كميا باسم معادلة بوزيمان نسبة إلى العالم الألماني أ . بوزيمان .

وخلاصة الفرض الذي وضعه أن من الممكن تمييز النص الأدبي بواسطة تحديد النسبة بين مظهرين من مظاهر التعبير : أولهما التعبير بالحدث أي الكلمات التي تعبر عن حدث أو فعل . وثانيهما التعبير بالوصف أي الكلمات التي تعبر عن صفة مميزة لشيء ما .

ويتم حساب هذه النسبة ـــ بإحصاء عدد الكلمات التي تنتمي إلى النوع الأول وعدد كلمات النوع الثاني ثم إيجاد حاصل قسمة المجموعة الأولى على المجموعة الثانية . ويعطينا حاصل القسمة قيمة عددية تزيد وتنقص تبعا لزيادة ونقص عدد كلمات

المجموعة الأولى على المجموعة الثانية ، وتستخدم هذه القيمة باعتبارها دالا على أدبية الأسلوب فكلما زادت كان طابع اللغة أقرب إلى الأسلوب الأدبي ، وكلما نقصت كان أقرب إلى الأسلوب العلمي .

وانتهت بحوث بوزيمان إلى ملاحظة أخرى حول العلاقة بين اللغتين المنطوقة والمكتوبة تتلخص في القول بأن اللغة المنطوقة تمتاز بزيادة النسبة المذكورة على حين تمتاز اللغة المكتوبة بانخفاضها .

وبما أن معدل السرعة في الكتابة أكثر بطئا منه في النطق — لذا فإن الفواصل الزمنية بين تدوين الكلمات تؤدي إلى إتقان عملية تجسيد الأفكار وتحديدها ويؤدي هذا بدوره إلى مزيد من استخدام الصفات على حساب استخدام الأفعال .

وبالرغم من ملاحظة بوزيمان زيادة نسبة الأفعال (الحدث) في الأسلوب الأدبي عنها في الأسلوب العلمي ، وفي الكلام المنطوق عنها في الكلام المكتوب نجده يقرر في دراساته الأولى أن هذه النسبة ثابتة في أسلوب الفرد . بيد أنه عدل في دراساته اللاحقة من دعواه الأولى .

وواضح من عرضنا للفرض الذي وضعه بوزيمان والمعادلة التي اقترحها أن نظرية بوزيمان قد تشكلت ملامحها في إطار البحوث السيكولوجية التي تهتم بدراسة الشخصية أو على وجه الدقة في إطار اللسانيات النفسية . وقد أسفر تطبيق المعادلة عن إمكانات كبيرة لقياس درجة الاستقرار العاطفي عند الأفراد وخاصة في بحوث علم نفس الطفل ، كما اكتشف أيضا وجود ارتباط مرتفع بين زيادة هذه النسبة واتصاف الشخصية بخصائص معينة مثل الحركية والعاطفية وانخفاض درجة الموضوعية والعقلانية وعدم توخي الدقة في التعبير .

(2) على الرغم من صحة هذه الفرضية إلا أن الباحثين قد لاحظوا غموض المصطلحين اللذين استخدمهما في صياغة معادلته وهما : الحدث والوصف . ورأوا أن تطبيقهما على النصوص اللغوية يوقع في الكثير من الحيرة والارتباك وأن تحديد انتماء الكلمات إلى أي من هذين النوعين يتم أحيانا بقدر غير قليل من التخمين مما يؤثر على انضباط المقياس وموضوعيته .

وإذا كانت هذه الملاحظة صائبة بالنسبة للغة الألمانية فإنها صادقة إلى حد كبير على اللغة العربية ، فنحن نعلم أن اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة باسم الفاعل ، كل أولئك وصف يعمل عمل الفعل ومن ثم فإن تحديد انتماء أيها إلى كلمات الحدث أو كلمات الوصف يبدو مشكلة ليست يسيرة الحل .

وإحساسا بضرورة استعمال مصطلح واضح المفهوم يمكن التعرف على ما طوره عالم النفس الألماني نويباور والباحثة انسبروك لتبسيط المعادلة وتدقيق صياغتها وذلك باستخدام عدد الأفعال بدلا من قضايا الحدث ، واستخدام عدد الصفات بدلا من قضايا الوصف وبذلك اتخذت المعادلة الشكل الآتي :

$$\text{نسبة الفعل إلى الصفة} = \frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}}$$

(3) وزيادة في تدقيق المقياس جرى تحديد المصطلحين «فعل» و «صفة» في الدراسات التي أجريت علي الانكليزية والألمانية . وقد شملت فصيلة الأفعال جميع الأفعال باستثناء الأفعال المساعدة . وأما «الصفات» فقد شملت جميع الكلمات الواقعة صفة في التعبير صفة + موصوف بما في ذلك الأسماء الجامدة إذا استخدمت كصفات .

أما بالنسبة للغة العربية فإننا نستثني من الاحصاء الأنواع الآتية :

١ . الأفعال الناقصة .

ب . الأفعال الجامدة .

ج . أفعال الشروع والمقاربة .

أما بالنسبة لعدد الصفات فقد أخرج المؤلف منها الجملة التي تقع في النحو التقليدي صفة . وفيما عدا ذلك فقد شمل الاحصاء جميع الأنواع الأخرى من الصفات بما في ذلك الجامد المؤول بالمشتق كالمصدر الواقع صفة والاسم الموصول بعد المعرفة . والمنسوب ، واسم الاشارة الواقع بعد معرفة .

(4) يتناول المؤلف هنا أثر صياغة العمل الأدبي على نسبة الفعل إلى الصفة (ن ف ص) ليخرج بالمقولات التالية :

ا . الكلام المنطوق يمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الكلام المكتوب .

ب . نصوص اللهجات تمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النصوص الفصحى .

ج . النصوص الشعرية تمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النثر .

وحسب رأي المؤلف تختلف (ن ف ص) ارتفاعا وانخفاضا باختلاف فنون القول في الشعر والنثر على النحو التالي :

ا . تمتاز الأعمال الأدبية (القصة والقصيدة والرواية والمسرحية) بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الأعمال العلمية .

ب . يمتاز النثر الأدبي بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النثر الصحفي .

ج . ترتفع (ن ف ص) في قصص الجنّيات وتتناقص في الحكايات الشعبية .

د . يمتاز الشعر الغنائي بارتفاع (ن ف ص) في مقابل الشعر الموضوعي (المسرحي مثلا) .

ومن أهم مؤثرات الصياغة طريقة العرض . وقد استظهر أنتوش من دراسته لبعض الأعمال الروائية في الألمانية أربعة أنواع من طرق العرض هي :

ا . الحوار الطبيعي .

ب . المونولوج .

ج . الكتابة السردية والوصفية الخالصة .

د . الأحاديث المتناثرة في الأجزاء السردية من النص .

وقد دلت المؤشرات الاحصائية في بحث أنتوش على مايلي :

أولا : أن نسبة (ن ف ص) في السرد والوصف أقل منها في المونولوج وفي المونولوج أقل منها في الحوار .

ثانيا : أن نسبة (ن ف ص) مع السرد تكون أعلى إذا كان السرد من وجهة نظر شخصية منها إذا كان السرد مجرد وصف مباشر على لسان المؤلف نفسه .

(5) النوع الثاني من المؤثرات التي تؤدي إلى ارتفاع قيمة (ن ف ص) أو انخفاضها هو ما سماه المؤلف بمؤثرات المضمون . ومن أهم هذه المؤثرات :

ا . العمر : إن نسبة (ن ف ص) في الطفولة والشباب هي عالية وتتجه إلى الانخفاض في الكهولة .

ب . الجنس : تميل نسبة (ن ف ص) إلى الارتفاع عند النساء في مقابل ميل واضح إلى انخفاضها عند الرجال .

(6) وحسب رأي المؤلف فإن الارتفاع والانخفاض في قيمة (ن ف ص) هو نسبي وليس مطلقا . وهذا الارتفاع والانخفاض النسبي مرتبط بعدد من المؤثرات التي عالجناها من قبل . وهذه المؤثرات سواء أكانت مؤثرات صياغة أو مؤثرات مضمون تمارس تأثيرها على قيمة (ن ف ص) في اتجاهات مختلفة ، فبعضها ينحو بها نحو الارتفاع وبعضها ينحو بها نحو الانخفاض . وقد تجتمع في

النص الواحد مؤثرات من نوع واحد أي تعمل في اتجاه واحد إما نحو الارتفاع وإما نحو الانخفاض . كما قد نجد في أحيان أخرى بعض النصوص مشتملا على مؤثرات تعمل في اتجاهات متعارضة بحيث يكون الأثر المتوقع لبعضها رفع قيمة (ن ف ص) ، والأثر المتوقع لبعضها الآخر هو خفض قيمة (ن ف ص) . وتكون النتيجة إما أن يضعف بعضها بعضا أو أن يلغي أحد الاتجاهين أثر الاتجاه المضاد ، كما قد يؤدي ذلك إلى تحييد دلالة (ن ف ص) في بعض الأحيان .

6 . أمثلة تطبيقية من الأساليب النثرية

يطبق المؤلف هنا معادلة بوزيمان على ثلاثة كتب أدبية وفكرية وهي : «مستقبل الثقافة في مصر» لطه جسين ، و «الأيام» أيضا لطه حسين ثم كتاب «حياة قلم» لعباس محمود العقاد .

وهو من خلال هذاالتطبيق يعقد مقارنة بين أسلوب «مستقبل الثقافة في مصر» وبين أسلوب «الأيام» ويتوصل إلا أن نسبة (ن ف ص) في الكتاب الأول (مستقبل الثقافة) هي (0 و 2) أما في الكتاب الثاني (الأيام) فهي (6 و 4) .

ويبرر المؤلف لهذه النتيجة بأن التوقعات من السيرة الذاتية باعتبارها جنسا أدبيا قوامه القص والسرد الشخصي والحديث عن الذكريات والمواقف المؤثرة على الكاتب ـــ أن تتميز باتجاه (ن ف ص) فيها نحو الارتفاع (6 و 4) في مقابل النصوص التي يكتبها الكاتب ليعالج بها قضية علمية أو اجتماعية . فعلى حين ينتمي «الأيام» إلى فن السيرة الذاتية يتناول الكتاب الثاني اراء طه حسين في نظام التعليم ، وطرق إصلاحه في مصر وتحديد الانتماء الثقافي لها .

وبعد ذلك يعقد المؤلف مقارنة بين كتاب «حياة قلم» لعباس محمود العقاد وبين كتاب «الأيام» لطه حسين . وقد وجد المؤلف أن حساب (ن ف ص) في الكتابين يؤدي إلى فروق ذات دلالة :

أولها : أن أسلوب «الأيام» أقرب إلى الطابع الأدبي والانفعالي على حين يبدو الطابع الذهني العقلاني أكثر ظهورا في أسلوب «حياة قلم» .

ثانيها : تنوع الموضوع عند طه حسين في «الأيام» أثر على قيمة (ن ف ص) فرفعها في حين أن عدم تنوع الموضوع عند العقاد في «حياة قلم» أضعف قيمة (ن ف ص) .

ثالثها : أن أسلوب العقاد في كتابته أسلوب كتابي خالص ، أما أسلوب طه حسين فيقع وسطا ما بين أسلوب الحديث وأسلوب الكتابة . إذ أن أسلوب الحديث يرفع من قيمة (ن ف ص) . حتى أن العقاد نفسه التفت إلى هذه الخاصية عند طه حسين فقال عنه «إنه يكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، ويتحدث ولا ينسى أنه يكتب» .

وقد اختار المؤلف أيضا بعض النماذج من لغة الصحافة المعاصرة لحساب قيمة (ن ف ص) . ومن هذه النماذج : جريدة «الندوة» السعودية وجريدة «الشرق الأوسط» .

وقد استنتج أن نسبة (ن ف ص) هي نسبة منخفضة في الأسلوب الصحفي إذا ما قورنت بالأسلوب الأدبي .

7 . الأسلوب في المسرحية

(1)يكتسب استخدام مقاييس بوزيمان في تشخيص أسلوب المسرحية حسب رأي المؤلف أهمية خاصة ، وذلك لما تتميز به المسرحية من تعقد من حيث اللغة المستخدمة فيها ، ونماذج الشخصيات وتنوع الحوادث والحوار .

وهنا تبرز فرضيتان : أولاهما أن الكلام المنطوق يمتاز بارتفاع قيمة (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الكلام المكتوب .

وثانيتهما أن النصوص الشعرية تمتاز بارتفاع قيمة (ن ف ص) في مقابل النصوص النثرية.

وإزاء هاتين الفرضيتين تبرز قضيتان هامتان عند دراسة الأسلوب في المسرحية حول طبيعة هذا الأسلوب من حيث ارتفاع قيمة (ن ف ص) أو انخفاضها، ذلك أن المسرحية تكتب لينطق بها الممثلون على المسرح وإذن فهل تكون طبيعة الأسلوب فيها أقرب إلى الكلام المكتوب أم إلى الكلام المنطوق؟

أما القضية الثانية فتطرح المشكلة نفسها ولكن بالمقارنة بين المسرحية الشعرية والمسرحية النثرية في الأدب العربي، ذلك أننا إذا افترضنا أن المسرحية النثرية أكثر قربا من الكلام العادي فإن معنى ذلك أن تسجل (ن ف ص) في المسرحية النثرية قيمة أعلى من قيمتها في المسرحية الشعرية. أما إذا نظرنا إلى المشكلة من زاوية التمييز بين الشعر والنثر فإن النتيجة ستكون عكس ما ذكرنا تماما، أي أن قيمة (ن ف ص) في المنرحية الشعرية ستكون أعلى من قيمتها في المسرحية النثرية بسبب ما تتميز به النصوص الشعرية من خاصية ارتفاع قيمة (ن ف ص) فيها بالنسبة للنصوص النثرية.

(2) وفي محاولة لاستخدام المقياس (ن ف ص) لتحليل الأساليب في المسرحيات العربية قام المؤلف بإحصاء شامل لقيمة (ن ف ص) في مسرحيات أحمد شوقي. وقد خرج بنتائج حساب قيمة (ن ف ص) في كل مسرحية من المسرحيات التالية:

- مصرع كليوباترا : ن ف ص = 6 و 7
- مجنون ليلى : ن ف ص = 8 و 7
- الست هدى : ن ف ص = 9 و 10
- أميرة الأندلس : ن ف ص = 0 و 5

وقد استنتج المؤلف من هذه الأرقام نتائج عدة ذات دلالة تدعم استخدام العملية الاحصائية بشكل عام ومعادلة بوزيمان بشكل خاص في تحليل الأساليب في الأنواع الأدبية كافة.

8. الأسلوب في الرواية

(1) الرواية من أهم الأجناس الأدبية وأحدثها تاريخا في أدبنا العربي وهي بحكم كونها بنية فنية معقدة تتيح للدراسة الأسلوبية مجالا من أخصب مجالات التطبيق وتتعدد مداخل دراسة الرواية بنيويا وأسلوبيا. لذلك حاول المؤلف هنا معالجة لغة الرواية من المنظور الاحصائي الأسلوبي متناولا على وجه التحديد كيفية استخدام دلالة (ن ف ص) على تشخيص أساليب الرواية وتحديد نوع العلاقة التي تربط بين الكاتب وشخصيات روايته، وقياس الأبعاد الدرامية لهذه الشخصيات.

(2) وفي محاولته للافادة من مقاييس بوزيمان في دراسة الرواية العربية اختار المؤلف للمقارنة نموذجين من كتاب الرواية لا يكاد يشك قارىء أو ناقد في تباينهما تباينا كبيرا سواء في الاتجاه أو الأسلوب أو فنية البناء الروائي وهما محمد عبد الحليم عبد الله في روايته «بعد الغروب». ونجيب محفوظ في روايته «ميرامار».

وقد استنتج المؤلف من المقارنة أن الحوار في رواية «ميرامار» حوار طبيعي أي من النوع المسرحي المركز وليس كذلك الحوار في رواية «بعد الغروب». ويستنتج المؤلف أيضا أن أسلوب نجيب محفوظ أكثر اتساقا مع المعايير المميزة للغة السرد من لغة الحوار.

إن إتقان نجيب محفوظ وبصره بالأساليب قد انعكس واضحا في المقياس الذي استخدمه المؤلف

على هيئة انتظام في العلاقة بين السرد والحوار وأن اختلاط الأسلوبين عند محمد عبد الحليم عبد الله انعكس واضحا أيضا في اضطراب هذه العلاقة .

ويعتبر المؤلف أن استخدامه لمعادلة بوزيمان في تشخيص أسلوب نجيب محفوظ قد بين سرا من أسرار عظمة الكتابة التي يكتبها هذا الرجل .

9 . النتيجة التي توصل إليها المؤلف

إن الفكرة الأساسية التي قام عليها كتاب «الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية» كما يذكر المؤلف هي استخدام النسبة بين الصفات والأفعال في النصوص مؤشرا إحصائيا يتم على أساسه تشخيص الأساليب وسير العلاقة بين الكاتب وأبطال عمله المسرحي أو الروائي ، وقياس البعد الدرامي للشخصية .

ويحاول المؤلف هنا إيجاز المجالات المتعددة التي يمكن أن تستخدم في علاجها المعادلة التي تعرف بمعادلة بوزيمان وهذه هي :

أولا : في اللسانيات النفسية

(1) قياس درجة الانفعال .
(2) قياس درجة التوازن العاطفي .
(3) قياس الحركية .
(4) قياس دقة التعبير ودرجة موضوعيته .

ثانيا : بالنسبة للمؤلف

(1) يمكن تمييز شخصية المؤلف حين يتحدث عن نفسه حديثا مباشرا .
(2) يمكن تمييز جنس المؤلف (من حيث الذكورة والأنوثة) .
(3) يمكن تحديد مراحل عمر المؤلف من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة .

ثالثا : بالنسبة للأعمال الأدبية

(1) يمكن تمييز الأعمال العلمية من الأعمال الأدبية .
(2) يمكن تمييز الشعرية من النثرية .
(3) يمكن تمييز اللغة المنطوقة من المكتوبة .
(4) يمكن تمييز نصوص الفصحى من اللهجات .
(5) يمكن تمييز الحكايات الشعبية من القصص والروايات معروفة المؤلف .
(6) يمكن تمييز المسرحيات كجنس أدبي على أساس علاقتها باللغة المنطوقة أو المكتوبة وبنوعية اللغة المستخدمة فيها فصحى أو لهجات .
(7) يمكن تمييز فنون الشعر المختلفة .
(8) يمكن تمييز أساليب وطرق العرض في المسرحية والرواية مثل :
ا . المونولوج (كلام الفرد) .
ب . الديالوج (الحوار) .
ج . السرد والوصف .
د . الأحاديث الطويلة .
هـ . الأحاديث القصيرة .
و . الشخصيات في المسرحية أو الرواية .
ز . درامية الموقف .
ح . ربط تغير قيمة (ن ف ص) بالتطور الدرامي في المسرحية أو الرواية .

ويتم تفسير هذه العوامل على أساس تصنيفها إلى :

(1) عوامل تنزع بقيمة (ن ف ص) نحو الارتفاع .
(2) عوامل تنزع بقيمة (ن ف ص) نحو الانخفاض .
(3) وقد يتفق للعمل الأدبي أن تجتمع فيه بعض المؤثرات التي تعمل في اتجاه واحد (سواء نحو الارتفاع أو الانخفاض) .

وقد تجتمع فيه مؤثرات متضاربة ، وتكون المحصلة هي نتاج عمل هذه المؤثرات باتجاهاتها المختلفة .

10 . نقد الكتاب وتحليله

لاشك في أن كل دراسة منهجية لظاهرة من الظواهر الانسانية أو الطبيعية لابد أن تثمر عن نتائج معينة سواء أكانت هذه النتائج إيجابية أم سلبية أم إيجابية وسلبية في الوقت نفسه . ويبدو لي أن معطيات النتائج إنما تتحدد بمعطيات المنهج من ناحية وبكيفية استخدام هذا المنهج من ناحية أخرى . ونعني بكيفية استخدام المنهج الأدوات المستخدمة في عملية التحليل كالتفكير العلمي والعملية التحليلية نفسها ، أضف إلى ذلك بناء الفرضيات والنظريات القائمة على وصف الظاهرة المدروسة .

من هنا سأعالج الكتاب من خلال بعدين اثنين الأول : البعد المنهجي والثاني البعد البراغماتي النفعي . على أنني لن أتوقف كثيرا عند البعد الأول والوسائل التقنية المستعملة فيه ذلك لأنه مهما اختلفت هذه الوسائل التحليلية فلن تؤثر على تقييم العمل لأنه كما يقال العبرة في النتائج . وهكذا فإن نقد الكتاب وتحليله سيعالجان الجوانب الايجابية والجوانب السلبية للمنهج وللنتائج التي توصل إليها المؤلف .

الجوانب الايجابية

تميز الكتاب بسمات إيجابية عدة يمكن أن نجملها بما يلي :

(1) إن إثارة موضوع «الأسلوبيات» ولفت انتباه القارىء العربي لهذا الموضوع الجديد في حقل الثقافة العربية المعاصرة تعد عملا رائدا في هذا المجال ، ذلك لأن الذين بحثوا في هذا الموضوع قلائل جدا في الوطن العربي[2] فالدكتور سعد مصلوح تناول الأسلوبيات من ثلاثة أبعاد رئيسية تصف كل علم من العلوم الانسانية والطبيعية بها وهي حد الأسلوبيات (أي تعريف ماهيتها) والموضوعات التي تناولها ثم الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها وبهذا فقد قدم خدمة جلى للقارىء العربي الذي لم يألف مثل هذه الدراسات العلمية الدقيقة للأساليب الأدبية واللغوية والاجتماعية .

وقد كانت المعلومات التي قدمها الباحث جديدة وطازجة وذلك بسبب ثقافته العربية التأثيلية الأصيلة ثم لغته الأجنبية التي فتحت الأبواب أمامه لينهل من هذا العلم الجديد مادة ومنهجا . وهكذا فقد جاءت هذه المعلومات الأسلوبية (العربية و الأجنبية) في إطار واضح وسهل وممتع لا لبس فيه ولا غموض .

(2) إن هذه المعلومات الأسلوبية العربية والأجنبية (القديمة منها و المعاصرة) تقودنا إلى صفة ثانية تمتع بها الباحث الدكتور سعد مصلوح وهي الجمع بين الثقافة العربية التراثية المتعلقة بالدراسات الأسلوبية وبين الثقافة الغربية المعاصرة التي طورت الدراسات الأسلوبية بحيث أصبحت علما قائما بنفسه له قوانينه ومبادئه ونظرياته ومناهجه .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خاصة مهمة لفكر الباحث وهي أنه أراد لكتابه أن يتميز بسمتين اثنين هما سمة التنظير وسمة التطبيق . أما عن السمة التنظيرية الأولى فقد استطاع المؤلف أن يقدم للقارىء العربي المبادىء والقوانين الهامة في الأسلوبيات وأن يعقد في الوقت نفسه مقارنة بينها وبين تلك المبادىء والقوانين البلاغية والنقدية التي أتى بها العرب القدامى ، كلما احتاج السياق إلى ذلك . فعلى سبيل المثال لا الحصر يعقد المقارنة التالية (ص 27) :

«ونحب أن نقرر هنا وجود وشائج قوية بين مفهوم الأسلوب عند ريفاتير ونظرية التخييل الشعري التي استنبطها الفلاسفة المسلمون من شرحهم لكتاب الشعر الأرسطي ووصلت ذروة

نضجها عند البلاغي العربي أبي الحسن حازم القرطاجني صاحب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ... » .

أما ما يتعلق بالسمة التطبيقية الثانية فإن المؤلف حاول أن يستفيد من التنظير القديم والحديث ويطبقه على نماذج نثرية من الأدب العربي ، لذلك نراه يتناول كتابي طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» و «الأيام» بأجزائه الثلاثة ليعقد مقارنة أسلوبية حديثة بين هذين الكتابين من جهة وبين كتاب آخر لعباس محمود العقاد هو «حياة قلم» .

لقد كانت المقارنة علمية وموضوعية إذ استخدم المؤلف بشأنها معادلة بوزيمان الاحصائية التي تستطيع أن تبين مدى أدبية الأسلوب ومدى علميته في الوقت نفسه ، أما النتائج التي توصل إليها المؤلف فتبقى ممتعة ورائعة لها دلالاتها النفسية والفكرية والاجتماعية . أضف إلى ذلك أنه استخدم هذا المعيار الاحصائي في مجال الرواية والمسرحية . ففي المجال المسرحي درس المؤلف أربع مسرحيات لأحمد شوقي هي :

مصرع كليوباترا ــ مجنون ليلى ــ الست هدى ــ أميرة الأندلس .

وقد خلص المؤلف من خلال دراسته لهذه المسرحيات إلى نتائج مهمة تدعم استخدام العملية الاحصائية في تحليل الأساليب الأدبية .

أما في مجال الرواية فقد عقد المؤلف مقارنة طريفة بين روايتين هما «بعد الغروب» لمحمد عبد الحليم عبد الله و «ميرامار» لنجيب محفوظ .

وقد خرج المؤلف بنتائج مهمة تتعلق بالحوار والمونولوج والسرد والوصف والشعرية والنثرية التي تسم الروايتين المذكورتين .

المهم في هذا الموضوع هو العلاقة الرائعة التي عقدها المؤلف بين النظرية الأسلوبية (القديمة والمعاصرة) وبين تطبيقاتها على الأنواع الأدبية النثرية والمسرحية والروائية . وهذا مؤشر إيجابي على صحة المنهج الذي اتبعه المؤلف والذي يدل على صحة النتائج التي توصل إليها (إلى حد ما) .

(3) استفاد المؤلف (إلى حد ما وليس الاستفادة كلها) من بعض الأدوات المنهجية الموجودة في علوم مختلفة كاللسانيات وعلم الاحصاء وعلم النفس وعلم الاجتماع لاستخدامها في دراسة الأساليب . من هذه الأدوات مثلا :

البنية السطحية والبنية العميقة ــ الأداء اللغوي والمقدرة اللغوية ــ الكلام واللغة ــ الجغرافية اللغوية ــ الدراسة السنكرونية والدراسة الدياكرونية ــ معادلة بوزيمان الاحصائية ــ المضامين النفسية للكاتب والنص والمتلقي ــ المضامين الاجتماعية للغة أفرادا وجماعات .

وهكذا فإن المنهج الأسلوبي الذي انطلق منه المؤلف لدراسة الظواهر الأسلوبية للنصوص كان منهجا متماسكا استطاع التوصل إلى بعض النتائج المهمة على الصعيد اللغوي والاحصائي والنفسي والاجتماعي وحتى الفلسفي إلى حد ما .

(4) هناك سمة علمية إيجابية مهمة تميز بها فكر المؤلف هي سمة الانفتاح والنقاش والنسبية في الحقائق . فالنتائج التي توصل إليها المؤلف كانت ذات صفة نسبية مفتوحة وليست ذات صفة دوغمائية مغلقة .

والواقع إن هذه السمة العلمية هي سمة العلم المعاصر الذي يتطلع إلى الكشف الدائب من خلال الاجتهاد المفتوح . من هنا فإننا نجد أن المؤلف حين يطرح قضية ما فإنه يتناولها بهذا الشكل (ص 18) :

للأسلوبيات استخدامها من أجل دراسة النصوص كمعيار التواصلية اللغوية التي تبحث في المرسِل والمرسَل إليه والقناة الموصلة والمدونة أو النص والوضع ثم التوضيع .

وهناك المعيار النفسي الذي يبحث في الانفصام أو الاندماج مع النص والتعاطف مع النص والموقف النفسي لمنشيء النص ومتذوقه ، ثم الظروف النفسية التي تمخض عنها النص وما إلى ذلك من المفاهيم النفسية المفيدة جدا في كشف قناع المعنى عن النص المدروس .

أضف إلى ذلك أن هناك معايير اجتماعية وأنثروبولوجية ودينية مهمة جدا في كشف المعنى وهتك حجابه سواء على صعيد المؤلف أم المتلقي أم السياق الذي انتج النص .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أن المؤلف لم يستخدم معايير موضوعية عديدة (لا نظريا ولا تطبيقيا) لدراسة النصوص دراسة أسلوبية . وهذا يقودنا إلى التساؤل حول النتائج التي توصل إليها المؤلف من خلال استخدامه معيارا واحدا هو معيار الاحصاء . ذلك لأنه لا يمكننا التيقن من مدى صحة هذه النتائج ودقتها إلا باستخدام هذه المعايير الموضوعية الآنفة الذكر .

إن معيار الاحصاء لاشك في أنه قد يأتي ببعض الحقائق الأسلوبية حول بنية النص ووظيفته ولكنه لا يستطيع أن يأتي بكل الحقائق التي تدور حول المؤلف والمتلقي والسياق النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي ... إلخ . إن أية دراسة تريد لنفسها الضبط العلمي لابد أن تستخدم جميع المعايير الموضوعية التي يمكنها أن تكشف لنا بنية النصوص المدروسة شكلا ووظيفة .

(3) وهذا يقودنا للقول أن الباحث لم يستفد من النتائج المذهلة التي حققتها اللسانيات الاجتماعية في العقدين الماضيين كالفروق القائمة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة والفروق القائمة بين لغة النساء ولغة الرجال والجانب الحضاري والاجتماعي للغة ... إلخ .

صحيح أن المؤلف تحدث عن الجغرافية اللغوية التي تمكن الأسلوبيات من كشف الأساليب الاجتماعية من خلال خطوط التوزيع المختلفة إلا أن هذا لا يكفي لاستخلاص بنية النصوص ووظائفها الاجتماعية ، فاللسانيات الاجتماعية قطعت شوطا كبيرا في دراسة الأشكال اللغوية ووظائفها الاجتماعية والحضارية . فالمدرسة التواصلية مثلا اكتشفت أن العملية الايصالية تحتاج إلى ثلاثة أنماط لصياغة المعنى وفرزه في النص . هذه الأنماط هي التالية[3] :

ا . أنماط الترميز وتشمل :

(1) القواعد الصرفية والنحوية .
(2) الأصوات .
(3) تنغيم الكلام .
(4) نوعية الصوت البشري .
(5) ما يرافق ذلك من العناصر الحركية (كالايماءات وقسمات الوجه وحركة العينين) .
(6) ما يرافق ذلك من العناصر المكانية (طريقة وقوف الشخصيات المتحاورة أو جلوسهم مقابل بعضهم بعضا) .

ب . أنماط التأطير وتشمل الاستراتيجيات المختلفة في المجتمع وينطوي عنها :

(1) كمية الكلام .
(2) طريقة استهلال الحوار .
(3) تطوير الحوار .
(4) إنهاء الحوار .

(5) تبادل الأدوار فيه .
(6) كيفية معالجة موضوع البحث وتنظيمه .
(7) الأمور الروتينية .
(8) الكليشيهات .
(9) الطقوس المختلفة المتبعة في مجتمع من المجتمعات .

ج . أنماط السياق والمقام وتشمل :

(1) مسرح التفاعل اللغوي .
(2) مكانه .
(3) زمانه .
(4) موضوع الحوار .
(5) الشخصيات المشاركة في الحوار وعلاقة بعضها ببعض من النواحي الاجتماعية .
(6) الخلفية الحضارية الاجتماعية والخلفيات الأخرى للشخصيات . وهكذا فإن هذه الأنماط التواصلية يمكنها أن تكشف لنا حركية التواصل بين منشىء النص والعمليات التواصلية الجارية في النص ثم متلقي النص أو متذوقه . فإذا استطاع الباحث كشف المعنى من خلال هذه الأنماط فإنه يستطيع بعدها تحديد المستوى النفسي للنص والمستوى الشخصي للكاتب ثم المستوى النوعي للمتذوق .

والحقيقة هناك نتائج كثيرة توصلت إليها اللسانيات الاجتماعية يمكن أن تفيد الأسلوبيات في تحليل النصوص كان ينبغي على الباحث ذكرها أو لفت الانتباه إليها لكي تكون دراسته أكثر دقة وضبطا وموضوعية .

(4) والباحث لم يستفد أيضا من معيار مهم جدا في اللسانيات البراغماتية النفعية (الذريعية) وهو معيار الشكل والوظيفة . ونعني بالشكل أصوات الجملة وكلماتها وترتيبها ، أما الوظيفة فنعني بها المعنى الذي تفرزه هذه الجملة . فإذا اعتبرنا الجمل الخبرية والاستفهامية والأمرية أشكالا فليس من المحتم أن تعطينا هذه الأشكال خبرا أو استفهاما أو أمرا .

فكثيرا ما نجد أن شكل الجملة يختلف عن وظيفتها . فسؤال المدرس للطالب «لماذا نسيت القيام بواجبك المنزلي يا علي؟» ليس سؤالا على الرغم من شكله ، بل هو تأنيب للطالب على كسله . وإذا دخل الأستاذ قاعة المحاضرات وشعر أن الهواء مكتوم فيها ورغب في أن يفتح أحد الطلاب النافذة أو مكيف الهواء فربما قال «الغرفة مخنوقة الهواء» وإذا أحد الشباب يفهم أن الجملة نوع من الطلب فيبادر إلى فتح النافذة أو تشغيل مكيف الهواء رغم أن الجملة خبرية من حيث الشكل(4) .

والحقيقة إن استخدام معيار الشكل والوظيفة في تحليل النصوص يساعد الأسلوبيات على تحديد بنية النص ووظائفه اللغوية والاجتماعية ثم تحديد العملية التواصلية بشكل منسجم ومنضبط .

(5) آخر النقاط السلبية في الكتاب أن الباحث لم يستفد من علمين حديثين ومهمين جدا في حقل الأسلوبيات وهما علم الدلاليات (Semantics) وعلم السيميائيات (Semiotics) . فقد تطور هذان العلمان تطورا مدهشا في السنوات القليلة الماضية ولا سيما من خلال احتكاكهما بالدراسات الأدبية والنقدية . فعلم الدلاليات طرح مفاهيم دلالية جد مهمة إذا ما استثمرت في الأسلوبيات فإن الباحث سيتوصل إلى نتائج مدهشة حول حركية النصوص من الوجهة الدلالية .

من المفاهيم التي طرحتها الدلاليات : العلاقة بين الدلالة والاشارة ـــ الوظيفة الدلالية التي تبحث في المعنى وآثاره وفي الخلق والتطور الدلالي في النص ـــ أشكال تغيرات المعنى وأسباب هذه التغيرات سواء أكانت تغيرات دلالية أم منطقية . أضف إلى

ذلك أن للدلاليات مناهجها في تحليل البنية الدلالية يمكن أن تغني المناهج الأسلوبية وتجعلها أكثر ضبطا من هذه المناهج : منهج التحليل التوزيعي ـــ منهج التحليل المفهومي ـــ منهج التحليل الاشتقاقي ـــ منهج التحليل الاحصائي وغيرها من المناهج الدلالية المفيدة .

وليس هنا مجال للتحدث عن علم الدلاليات ذلك لأنه علم متشعب ومتعدد الوجوه ، والكتب المؤلفة حوله كثيرة يمكن الرجوع إليها لمعرفة مدى تطور هذا العلم وأثره على الأدب والنقد والأسلوبيات[5] .

أما علم السيميائيات فقد شهد أيضا تطورا ملحوظا ولا سيما في أوربا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . يبحث هذا العلم في بنية الاشارة وأنواعها ومصادرها ووظائفها في الكون . وبما أن اللغة إشارة صوتية وكتابية فإنها تدخل ضمن الموضوعات التي يبحثها هذا العلم . إن استثمار المفاهيم السيميائية في حقل الأسلوبيات سيضيء لنا مناطق غامضة في النصوص الأدبية وغير الأدبية .

من هذه المفاهيم السيميائية المطروحة مثلا : شكل الاشارة وجوهرها ـــ أنماط الاشارة وتأويلاتها ـــ الشيفرات المنطقية للاشارة (كالتغيرات الايمائية والشيفرات المعرفية والغيبية ... إلخ) ـــ الشيفرات الجمالية للاشارة (كالشيفرات الفنية والأدبية) ـــ الشيفرات الاجتماعية المتعارف عليها بين جماعة معينة ذات ثقافة معينة .

ومجمل القول إن السيميائيات استطاعت أن تكشف لنا بنية الدلالة الخارجة عن نطاق اللغة والتي يمكن أن تساعد اللغة على الايصال والتوصيل .

وكثيرة هي الكتب التي تناولت هذا العلم وبحثته تعريفا وموضوعا وغاية يمكن للقارىء الرجوع إليها في أماكنها[6] . والواقع لو التفت الباحث الدكتور سعد مصلوح إلى هذين المعيارين المتطورين لكانت نتائجه أكثر دقة وضبطا وموضوعية .

الهوامش

(1) الدكتور سعد مصلوح أستاذ بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة . يقوم الآن بتدريس علم اللغة والأسلوب في معهد الخرطوم الدولي لتعليم اللغة العربية التابع لجامعة الدول العربية .

(2) يمكننا أن نذكر في هذا المجال الأعمال الرائدة للدراسات الأسلوبية الحديثة من حيث النظرية والتطبيق . من هذه الأعمال :

ا . المسدي ، د . عبد السلام (1977) ***الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل ألسني في نقد الأدب*** . الدار العربية للكتاب ــ تونس .

ب . عياد ، د . شكري (1980) «مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التجديد» ***فصول*** ، مج 1 ع 1 القاهرة .

ج . الراجحي ، د . عبده (1981) «علم اللغة والنقد الأدبي : علم الأسلوب» ***فصول*** مج 1 ع 2 . القاهرة .

د . عزت ، علي (1971) «علم الأسلوبيات ومشاكل التحليل اللغوي» ***الفكر المعاصر*** . ع 80 ــ القاهرة .

هـ . الطرابلسي ، محمد الهادي (1978) «في منهجية الدراسة الأسلوبية» . ضمن ***اللسانيات واللغة العربية*** . مركز الدراسات ، تونس .

(3) خرما ، د . نايف وحجاج ، د . علي (1988 ص 125 ــ 126) ***اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها*** . عالم المعرفة . الكويت .

الجدير ذكره هنا أن هذا المرجع اعتمد في هذا التصنيف على تصنيف عالم اللسانيات الاجتماعي لفداي . لمزيد من التفصيل انظر :

Loveday, L (1982 : P 63). *The sociolinguistics of learning and using a non-native language*. Oxford : Pergamon press.

(4) المرجع نفسه (ص 125 ــ 126) .

(5) لمعرفة المزيد حول الدلاليات انظر :

بيير جيرو (1988) ***علم الدلالة*** . ترجمه إلى العربية د . منذر عياشي . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

(6) لمعرفة المزيد حول السيميائيات انظر :

بيير جيرو (1988) ***علم الاشارة - السيميولوجيا*** . ترجمه إلى العربية د . منذر عياشي . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

الخلاصة

يعتبر كتاب «الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية» من أهم الكتب التي بحثت في الأسلوبيات على مستوى النظرية والتطبيق . وينبغي علينا أن نعترف أن كل جديد لا بد أن تعترضه بعض العقبات مادة ومنهجا . ولكن الحقيقة التي لا مجال للشك فيها هي أن هذا الجديد لابد من التطوير ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا من خلال احتكاك النظرية بالواقع . وبما أن الأسلوبيات تعتبر نظرية قائمة بذاتها فلا بد من تطبيقها على النصوص العربية (الأدبية وغير الأدبية) وذلك لامتحانها ومعرفة مواطن قوتها وضعفها ، ذلك لأن المشكلات التي تحيط بالأسلوبيات في الغرب هي مختلفة من حيث الشكل والجوهر عن المشكلات التي تحيط بها في الثقافة العربية المعاصرة .

وما هذه الدراسة التي قدمها الدكتور سعد مصلوح إلا محاولة لجعل النظرية الأسلوبية تحتك بالواقع العربي (اللغوي والأدبي) من أجل اكتشاف أفضل وأنجع لبنية النص العربي .

بهذا المفهوم وحده يمكن أن نعد هذه الدراسة الأسلوبية لبنة من لبنات الثقافة الأسلوبية الحديثة التي نتطلع إليها في المستقبل .

حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

حسن عباس

الحلقة الأولى

حول صعوبة التعامل مع حروف المعاني .

لقد درج علماء اللغة العربية وفقهاؤها القدامى منهم والمحدثون على تقنين استعمال حروف المعاني من (جر وعطف وجزم ونصب وغيرها .) وفق ما ورد في تراثنا اللغوي من الشعر العربي الأصيل ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والنصوص الأدبية ، والمعاجم اللغوية ، وكتب الصرف والنحو وما إليها ...

ويتشدد بعض النقاد في تحديد طريقة استعمال كل حرف منها ، بأن تجري وفق ما شاع استعماله بغض النظر عن جدواها في تأدية المعنى الدقيق الذي يرمي إليه الكاتب .

وهكذا إذا كان المعنى المراد مستحدثا أو غير شائع ، فإن استعمال الحرف وفق ما شاع ، قد يحيد بالكاتب عن غرضه ، أو يوقعه صراحة في الخطأ

ونظرا لكثرة حروف المعاني في اللغة العربية وتنوع استعمال كل واحد منها لشتى الأغراض (حزنت له / الكتاب له) ، فإنه ليس ثمة ما هو أخطر على فصحى الكاتب العربي من مسألة استعمال هذه الحروف بمعرض التعبير عن معانيه .

كما أن تعامل أكثر من حرف مع فعل واحد (حزنت له / حزنت عليه) ، للتعبير عن أكثر من غرض ، يزيد المسألة صعوبة . وقالوا : ((مات الفراء وفي قلبه شيء من حتى)) .

وتتجلى أهمية حروف المعاني وخطورة استعمالها ، في كونها هي الأدوات الثقافية الدقيقة التي يسبر الكاتب العربي بها أعماق نفسه ويلاحق بها تلونات أفكاره ، ليستخرج منهما معانيه خالصة من كل شائبة على وضوح وبلاغة ورشاقة وشفافية فجاءت تسميتها حروف المعاني موافقة لمهامها ووظائفها . وقصة (واو) اللوزينج في عبارة (لا ، وأيدك الله) ما هي إلا واحدة من آلاف الأمثلة .

وإذا كان من الجائز تشبيه حروف المعاني في اللغة العربية بالأدوات الجراحية الدقيقة المعاصرة يسبر

الجراح بها أعضاء البدن ، فيستخلص العلل من مكامنها .

فإن معاناة الكاتب العربي مع حروف المعاني هي أشد من معاناة الطبيب مع الأدوات الجراحية . ذا يتعامل مع بعضها مما يتعلق باختصاصه ، وذاك يتعامل مع واحد وثلاثين نوعا من حروف المعاني .

وشبابنا ممن يتعاطون الكتابة لشتى الأغراض الأدبية والعلمية والصحفية وما إليها ، أين هم اليوم من تراثنا اللغوي ؟

إنهم لم يحفظوا آلاف الأبيات من الشعر العربي الأصيل ، جاهلية وغير جاهليّة عن ظهر قلب ، ولا عشرات السور القرآنية ، ولا الكثير من النثر الأدبي ، ولا كتب الصرف والنحو ، كما كان يفعل جيل العشرينيات أو الثلاثينيات من مثقفي هذا القرن .

ولذلك فإنه لمن المتعذر عليهم إن لم يكن مستحيلا ، أن يستعملوا حروف المعاني جميعاً في وجوهها الصحيحة ولو استعملوها على وجه ما شاع استعماله . فما كل ما شاع استعماله يصلح للتعبير عن معان لم يشع استعمالها ، أو لم يسبق تداولها .

ما السبيل إلى ترويض حروف المعاني ؟

إنه لامخرج للكاتب العربي من هذا الحصار التراثي ، إلا أن يستهدي بخصائص الحروف العربية ومعانيها بمعرض استعمال حروف المعاني تعبيرا عن حاجاته ومعانيه . وبذلك نعود إلى أصول التراث .

فاللغة العربية تتفرد عن سائر اللغات الحية المعاصرة ، بأن لكل حرف من حروفها معاني محددة تتوافق بصورة عامة مع خصائصه .

وهذه الخصائص ، إما أن تكون ايمائية تمثيلية تتأتى من طريقة التلفظ بصوت الحرف ، وإما أن تكون إيحائية تتأتى من صدى صوته في النفس .

وهذا الاختلاف في خصائص هاتين الفئتين من الحروف العربية (حروف المباني) ، يعود أصلا إلى الاختلاف في المستوى الحضاري للمراحل التي أبدعت خلالها كل فئة منهما .

فطريقة التعبير عن المعاني في دنيا التواصل إيماء وتمثيلا بالحركات الجسمية (يد .. رأس . فك . أسنان . فم ..) ، إنما هي أكثر بدائية وتخلفا ، وبالتالي أقل تطوراً ورقياً من التعبير عنهما بصدى أصوات الحروف في النفس . وهذا يقطع بأن مرحلة إبداع أصوات الحروف الايمائية التمثيلية هي أعرق في القدم من مرحلة إبداع أصوات الحروف الايحائية .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية :

لقد تبين لي في دراسة متعمقة عن (الشخصية العربية والحرف العربي) أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عبر ثلاث مراحل .

ففي المرحلة الغابية التي امتدت منذ بداية العصر الجليدي الأخير حتى الألف (12) ق.م ، قد بقي لنا يقينا مما أبدعه الانسان العربي خلالها من وسائل التواصل مع أبناء جنسه أصول الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) .

وفي المرحلة الزراعية التي امتدت منذ الألف (12 حتى الألف 9) ق.م أبدعت المرأة زعيمة المرحلة الزراعية الحروف الايمائية ، وقد بقي لنا منها يقينا أصول حروف (ف. م. ل. ذ. ث) واحتمالا حرفا (ش. خ).

أما في المرحلة الرعوية التي امتدت منذ الألف (9) ق.م حتى العصور الجاهلية الأولى ، فقد أبدع الرجل زعيم المرحلة الرعوية ، الحروف الايحائية. كان

منها يقينا الحروف الحلقية (ح. ع. غ) . والحروف (ص. ض. ط. ظ. ق) تفخيما لحروف (س. د. ت. ذ. ك) ، وباحتمال شديد ما بقي من الحروف ، كما سيأتي في الحلقات القادمة بشيء من التفصيل .

لايجرح هذا التصنيف المرحلي أن يكون الانسان العربي قد اهتدى إلى أصول أصوات بعض الحروف الرعوية المحتملة في مراحل زراعية أو غابية سابقة ، مادام قد هذبها وطورها واعتمد صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن حاجاته ومعانيه في المرحلة الرعوية ، كما سيأتي في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ولقد اعتمدت في هذا التصنيف المرحلي أدلة كثيرة ، منها التاريخي الأثري ، ومنها الاجتماعي والنفسي والمهني واللغوي وما إليها . ولكن اختصاراً للحديث وحصراً له ، سنكتفي في الحلقات القادمة بسرد الأدلة اللغوية ، لانتطرق إلى سواها إلا عند الضرورة .

على أن هذا التصنيف سيلاقي معارضة شديدة ممن ينكرون على اللغة العربية فطرتها ، وعلى أصوات الحروف العربية موحيات معانيها .

وسيرى هؤلاء المعرّضون أن لكل حرف عربي معانيه ووظائفه التي استمدها من خصائصه الايمائية أو الايحائية ، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية . وسوف يرون أنه لايمكن تعليل هذه الخصائص والمعاني إلا بالتسليم بانتماء الحروف العربية إلى مراحل الحياة الثلاث آنفة الذكر .

ولما كان معظم حروف المعاني مؤلفا من حرف واحد أو حرفين ، فإنها بلاشك هي أقدم المستحاثات اللغوية وألصقها طبيعة ووظيفة بمراحل إبداع حروفها . وسيجد القارىء الحيادي بمعرض الكشف عن أصول معانيها مدى صدق تصنيفنا الحروف العربية ، ليس إلى ايمائي وإيحائي فحسب ، وإنما إلى غابي وزراعي ورعوي أيضا .

الحرف العربي والشخصية العربية

مدخل لابد منه :

هذا المدخل ، ليس مجرد تمهيد مدرسي يعرّف القارىء بهذه الدراسة ، أو خلاصة جامعة لبنودها ، أو دليلا نظريا يهدي إلى مسالكها ، فحسب .
وإنما هو فوق ذلك ، محضر موجز لندوة فكرية مضمرة ، قد استمر الحوار فيها بيني وبين الحروف العربية أعواما عديدة .
فكان لابد من هذا المدخل ، يلملم من جوانب ذلك الحوار الطويل في مخطط عام يجعل من هذه الدراسة وحدة متماسكة ، على تعدد قضاياها وتشعب مشاكلها وإشكالاتها .

أولا : في موقع هذه الدراسة :

هذه الدراسة تعنى مبدئيا بأصوات الحروف العربية كوحدات صوتية (فونيمات) ، ولذلك فهي تتداخل مع علم الصوت العضوي (الفوناتيك) .
كما تقوم أصلا على صدى أصوات الحروف العربية في النفس استشفافا لخصائصها ومعانيها ، لتتماس بذلك مع علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) .
وهكذا ، فإن هذه الدراسة هي ألصق ما تكون بعلم النفس اللغوي ، وبعلم الأصوات السمعي ، بعض من علوم اللغة الحديثة .
وكيلا يتبادر إلى ذهن القارىء إني أنحو بهذه الدراسة إلى المساهمة في تحديث علوم اللغة العربية أسارع فأوضح بأنها محاولة جادة لتأصيلها ، بالعودة بها إلى أصول أصالتها ، وإن تداخلت وتماست مع ما ذكرته وما لم أذكره من علوم اللغة الحديثة ، مما يؤهلها لتأصيل بعض جوانب هذه العلوم أيضا .
ولئن أعرضت العلوم اللغوية الحديثة بما فيها الألسنية والأسلوبية والدلالات ... عن الخوض في أصول نشأة اللغات لضبابيتها التاريخية ، وعن التصدي لعلاقة أصوات الحروف بمعاني الألفاظ ، لانفصام هذه العلاقة بعامة في اللغات الغربية ، فإن هذه الدراسة قد انطلقت من هاتين المسألتين بالذات للبرهان على فطرية اللغة العربية وأصالتها ، مما يحفظها من مزاجية علماء اللغة المحدثين ومن النزوات الشعرية والأدبية ، ومن مختلف الغزوات الثقافية المضادة ، في كل ما يتعارض مع مقومات أصالتها .

فنشأة اللغة العربية التاريخية والاجتماعية والثقافية ، تختلف عنها في اللغات الغربية التي كانت مثار تأملات علمائها وموضع تطبيق نظرياتهم في علومهم اللغوية الحديثة .

وهكذا ، فإن هذه الدراسة ، بما تلقيه من أضواء جديدة على الجوانب التاريخية والصوتية معا من خصائص اللغة العربية ، وعلى العلاقة الجدلية بين

الحرف العربي والشخصية العربية ، من شأنها أن تجعل علماء اللغة الغربيين والعرب المحدثين يعيدون النظر في القرارات القطعية التي اتخذت منذ القرن التاسع عشر بتحريم ارتياد هذه الآفاق من بحوثهم اللغوية . فما لم يصح في لغاتهم قد صح في اللغة العربية ، ولكن ما كان أشق التحقق من ذلك .

فهذه الدراسة كان لابد لها أن تتناول قضايا فكرية عديدة تتصل بعلوم الأصوات والنفس واللغة والتاريخ والآثار والأجتماع والفيزيولوجيا ، وما إليها من مسائل الفن والأخلاق ، مما عرضها بالضرورة إلى كثير من التعقيد . على أن أعقد ما في هذه الدراسة ، هو جانبها الصوتي النفسي .
فللكشف عن العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها ، لابد من الاستعانة بالمنهج الذاتي في علم النفس (الاستبطان) ، للاهتداء إلى خصائص أصوات الحروف ومعانيها . كما لابد أيضا من الاستعانة بالمنهج التمثيلي في علم النفس (التقمص) لمعرفة كيفية قيام الانسان العربي بإبداع أصوات حروفه وألفاظه ، للتعبير عن حاجاته ومعانيه .

وهذان المنهجان ، بصدد تعاملهما مع أصوات الحروف العربية ومعانيها ، يستلزمان رهافة في السمع ، وشفافية في المشاعر ، وتذوقا رفيعا في الأدب ، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية .

فكيما يستطيع القارىء أن يستخلص ما في صوت حروف ما من الأحاسيس الحسية أو المشاعر الانسانية لابد أن تتوافر فيه الحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا . ومن يفتقر لها قد يجد هذه الدراسة مجرد توهم لا رصيد له من حقيقة ، أو ضربا من الكلام المنمق الأنيق لا يقنع أحدا .

فالأستاذ محمد المبارك ، خريج جامعة السربون في باريس ، كان في مؤلفاته الأولى من كبار المتعصبين لرمزية الحرف العربي ، فاللفظة العربية كانت في رأيه ، مجرد مصطلح على معنى والحرف العربي لا يوحي بأي معنى من المعاني . لم يرجع عن هذا الرأي معتذرا ، ومشكورا إلا بعد أن أمضى بضعة عشر عاما في تدريس اللغة العربية والتأليف فيها ، كما سيأتي .

لذلك وتذليلا لهذه الصعوبات المتوقعة ، وترويضا لسمع القارىء غير المتخصص على استشفاف الخصائص الحسية والموحيات الشعورية الكائنة في أصوات الحروف العربية ، قد مهدت لهذا الجانب الصوتي النفسي من هذه الدراسة ، بفصل خاص عن الحواس الخمس ، ثم أتبعته بفصل آخر عن آراء علماء اللغة حول مسألة الايحاء في أصوات الحروف العربية .

كما أتبعتهما بثالث عن الايحاءات الحسية والشعورية في أصوات الحروف العربية ، قد تناولت فيه عمليتي (الاستبطان والتقمص) العائدتين إلى المنهجين الذاتي والتمثيلي في علم النفس .

ولا أكتم القارىء ، إني أعدت صياغة هذه الدراسة مرات عدة ، في محاولات متأنية لتبسيط قضاياها ، وإضفاء الصبغة الأدبية على شروحها ، كيما تكون في متناول المثقف العادي غير المتخصص ، فهي تنتمي إلى الفكر القومي بقدر ما تنتمي إلى الفكر اللغوي .

ومع ذلك أرى من المفيد أن أنبه منذ الآن إلى مشاق الرحلة التي تنتظرنا مع الحروف العربية عبر هذه الدراسة ، وإلى أنه لابد من استيعاب كل مرحلة من مراحلها قبل الانتقال إلى المرحلة التالية . فهذه الدراسة إنما هي حلقات مترابطة متكاملة ، قد قامت على منطلقات فكرية أكثرها مستحدث ، إذا ما فات

القارىء بعضها صعب عليه استيعاب ما يتلوها من الحلقات .

ثانيا – في المنهج الذي اتبعته مع هذه الدراسة :

لقد انطلقت في هذه الدراسة من مقولة فطرية اللغة العربية ، بمعنى أن أصوات حروفها مقتبسة مباشرة من الطبيعة المادية أو الانسانية ، وهذا يستتبع القول بأن معنى اللفظة العربية لا يزال كامنا في جذور أصوات حروفها ، وأنه بالتالي ليس إلا محصلة لمعاني حروفها .

ولئن كان علماء اللغة والآثار والتاريخ ، لم يعثروا حتى الآن على ما يؤكد فطرية اللغة العربية ، من نقوش أو آثار مادية غارقة في القدم ، إلا أن ذلك لا ينفي صحة هذه المقولة .

فاللغة العربية قد بدأت نشأتها الأولى على الهواء الطلق قبل الألف العاشرة قبل الميلاد . ثم ترعرعت في ظل حياة رعوية مشردة ، قصورها خيام ، وقلاعها ظهور مطايا ، وحصونها بطولات ، وآلهتها كواكب سماء ونجوم ، فكانت بذلك أقل لغات الدنيا حاجة إلى التعامل مع المادة الأرضية . ومع ذلك ، إذا كان ثمة آثار مادية من نقوش وسواها ، فهي لاتزال قابعة تحت ركامات من الرواسب والرمال .

وما أحسب أن ثمة من داع لانتظار معاول الاثاريين المنقبين ، كيما نتصدى نحن لمسألة فطرية اللغة العربية مادام قد بقي لنا من تلك المراحل الفارقة في ظلام ما قبل التاريخ آثار مادية ثلاثة ، هي : الحرف العربي ، والانسان العربي ، والموطن الذي احتضنهما عبر مراحل التاريخ .

فهذه المعطيات الثلاثة ، إذا صحت مقولة فطرية اللغة العربية ، تفترض بالضرورة وجود علاقات أصيلة متبادلة فيما بينها ، ولابد لهذه العلاقات أن تخلف لنا عبر العصور بعض المستحاثات الأثرية ، سواء في طيات أصوات الحروف العربية ، أو في الطابع الشخصي المميز للانسان العربي بما يتوافق أصلا مع التاريخ الحضاري للجزيرة العربية . وللتحقق من صحة مقولة ((فطرية اللغة العربية)) ، قد اعتمدنا طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي .

فهذه الطريقة تفترض خطأ ، صحة الطلب ابتداء ، وهذا الطلب الذي افترضنا صحته يقودنا إلى نتيجة مباشرة متصلة به أشد الاتصال ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة . وهذه النتيجة المفترض صحتها تبعا لصحة الطلب تقودنا بالضرورة إلى نتيجة مباشرة ثانية ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة إياها .

وهكذا الأمر في سلسلة متماسكة من الافتراضات والنتائج ، إلى أن تتطابق النتيجة الأخيرة مع حقيقة واقعية جديدة لامجال لرفضها ، فتنسحب هذه الحقيقة بحكم المنطق الرياضي على ما سبقها من الافتراضات والنتائج .

أما إذا وقع العكس ، فتعارضت النتيجة الأخيرة مع حقيقة ثابتة ، فإن هذا التعارض ينسحب بالضرورة على الافتراضات السابقة ونتائجها .

ثالثا : حول سلسلة الافتراضات :

الافتراض الأول :

إذا افترضنا خطأ ، أن اللغة العربية فطرية النشأة ، فإن ذلك يقودنا مباشرة إلى القول ببداءة الحرف العربي ، وفجرية الانسان العربي ، وبعلاقة جدلية بينهما .

فلو أن الانسان العربي قد اقتبس حروفه من

شعب مغاير له في الجنس واللغة ، إذن لكانت الصلة انقطعت بين أصواتها وبين الطبيعة ، وبالتالي بين الجملة الصوتية للفظة العربية وبين معناها ، وذلك على مثال ما انقطعت الصلة بين الألفاظ في اللغات الغربية وبين معانيها ، لعلة اقتباسها من لغات أم أعرق منها في القدم .

فلقد استقر رأي علماء اللغة الغربيون على أن اللغة هي مجرد مصطلحات على معان ، ليس بينها وبين الطبيعة ، ولا بين أصوات حروفها ومعاني الألفاظ أي صلة ، فأجمعوا على القول بأن اللغة : ((هي التعبير الرمزي بالذات وإن كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية)) .

ولقد كرست الجزء الأول من هذه الدراسة بفصوله الخمسة ، للتثبت من صحة النتيجة الأولى المتأتية مباشرة عن الافتراض الأول حول صحة مقولة (فطرية اللغة العربية) ، من حيث بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، والعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية .

فبدأت هذا الجزء بفصل خاص عن نشأة اللغة العربية وفطريتها ، وعن علاقاتها باللغات المكناة بالسامية ، وعن صراعاتها معها . كما تناولت بالتمحيص آثار مملكة (ايبلا) العربية ، والخط المسند العربي ، وأصول الحركة الجسمية في لغتنا ، مستشهدا على ذلك ببعض مستحاثاتها من الحروف والألفاظ ، ثم عرجت أخيرا على دور الشعر العربي الأصيل في صناعة اللغة العربية وصياغة مفرداتها صياغة شاعرية محكمة ، تبرئها من كل شائبة اقتباس أو هجانة . وذلك كله للبرهان على صحة بداءة اللغة العربية وفطريتها .

كما كرست الفصل الثاني منه للحديث عن نشأة الانسان العربي ، وعن تطوره الحضاري في الجزيرة العربية عبر مراحله الحياتية الثلاث (الغابية والزراعية والرعوية) ، وعن جذور هذه المراحل في الحروف العربية . كما تطرقت إلى دور المرأة وواقعها في هذه المراحل ، سواء من حيث مساهمتها في إبداع الحروف العربية ، أو من حيث أوضاعها الاجتماعية . وذلك كله للتثبت من صحة (فجرية) الانسان العربي أيضا .

ولما كان حديثنا عن كل ما جاء في الفصلين السابقين عن بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، يتوقف أصلا على التثبت من أن الجزيرة العربية هي المهد الأصلي لكل منهما ، فلقد كرست الفصل الثالث للبرهان على أنها هي أصل الحضارات في المنطقة العربية . وبترجيح شديد هي مهد الحضارة الانسانية .

وتأكيدا للعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية كرست الفصلين (الرابع والخامس) للحديث عن ((شخصيتي)) الانسان العربي والحرف العربي ، للكشف عن القواسم المشتركة بينهما من حيث عوامل تكوينهما وصفاتهما . وذلك لاعطاء هذه الدراسة أبعادها الاجتماعية والثقافية أيضا ، مما يسهل على القارىء الاحاطة بمضامين بحوثها مهما تتنوع وتتشعب .

وأخيرا ، وللتثبت من صدق العلاقة الجدلية بين ((الشخصية العربية)) والحرف العربي.قد كرست الفصل السادس من هذا الجزء للحديث عن مسألة دوران الحروف العربية في الشعر العربي الأصيل والقرآن الكريم . وذلك لأبرهن على ثبات مقومات ((الشخصية العربية)) الثقافية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، على الرغم من مظاهر الانحلال السياسي والاجتماعي التي اعترتها في عصور انحطاطها .

وهكذا ، فإن مقولة فطرية اللغة العربية ،

لاتراهن على بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي فحسب ، وإنما تراهن على أن الجزيرة العربية هي أيضا مهدهما ، ومهد الحضارات في المنطقة العربية .

ولكن علماء الآثار والتاريخ واللغات والأديان والأجناس ومن إليهم ، قد أهملوا الجزيرة العربية لظاهرة تصحرها ، في جميع تقصياتهم عن أصول الحضارة الانسانية البكر سواء في استئناس النبات أو الحيوان أو صناعة الأدوات أو أصول اللغات والعبادات وما إليها .

فبما أن المكتشفات الأثرية العصرية تشير إلى أن تلك الأصول الحضارية المضيعة ، تعود حتما إلى المنطقة العربية الراهنة ، فقد راح العلماء يبحثون عنها في البؤر الحضارية المعروفة في واديي الفرات والنيل ، وفي بلاد الشام دون جدوى . وذلك لأنهم أهملوا الجزيرة العربية في تقصياتهم لعلة انطماس معالمها الحضارية البكر تحت طيات الرمال في عتمات التاريخ . فكانوا بذلك كمن ضيع قطعة نقود ليلا في باحة معتمة ، فراح يبحث دون جدوى عنها بعيدا تحت أضواء المصابيح التي تقع على أطرافها .

وهكذا كان هؤلاء العلماء يحارون في تعليل سبب بلوغ بعض الآثار المكتشفة في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية درجة متقدمة من التطور والرقي ، مما لا جذور حضارية سابقة لها في هذه المناطق .

ولئن عزا بعضهم تلك الظواهر الحضارية المتطورة إلى الجزيرة العربية ، كاستئناس النبات والحيوان مثلا ، كما سيأتي ، فلقد تحفظ بعضهم الآخر على هذا الزعم لخطورة نتائجه التاريخية . ومن هنا أتت الصعوبة التي اكتنفت تقصياتي المضنية عن ريادة الجزيرة العربية في الشؤون الحضارية بدءا من الحرف العربي والخط المسند العربي ، وانتهاء بفنون استئناس النبات والحيوان وصناعة الأدوات . وذلك لم يكن لحرمان الجزيرة العربية من المكتشفات الأثرية فحسب ، وإنما لتعارض تلك الريادة من آراء معظم العلماء الذين عنوا بالمنطقة العربية .

على أن اعتراف أولئك العلماء بجهلهم معرفة منشأ تلك الأصول الحضارية قد هداني إلى استنباط المزيد من الأدلة القوية التي يصعب دحضها . على أن الجزيرة العربية هي مهد جميع الحضارات التي تشكلت حولها منذ الألف / 9 / ق.م ، في بلاد الشام وسواها كما سيأتي بشيء من التوسع والتفصيل .

الافتراض الثاني :

إذا صح أن الحروف العربية بديئة مقتبسة من الطبيعة ، فالمفترض أن يكون الانسان العربي قد استعان بها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية ، فكيف تم له ذلك ؟ فأجيب :

عندما لمس إنسان الجزيرة العربية الأشياء من حوله في فجره الحضاري البكر ، كان لابد له أن يعبر عن الأحاسيس اللمسية (خشونة ، نعومة ، حرارة ، برودة ، صلابة ...) ، بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، وذلك بغرض التواصل مع أبناء جنسه . وكان لابد لهذه الأصوات والحركات أن تتطور وتتهذب مع تطور ذلك الانسان ، عقليا وفنيا واجتماعيا وثقافيا ، فيسقط بعض الحركات الجسمية ، ويلطف بعضها الآخر ، وتختصر الأصوات الكثيرة في أصوات حروف معينة لابد أن تكون هي الأوحى على العموم بمختلف الأحاسيس اللمسية ، إذا ماصح هذا الافتراض .

وعندما تذوّق الأشياء وشمها ونظر إليها وسمع أصواتها ، وعانى بعض الانفعالات الشعورية ، كان

لابد له أن يعبر أيضا عن كل ذلك بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، على مثال ما فعل بالملموسات . وهكذا سقطت الحركات وتهذبت الأصوات عبر آلاف الأعوام ، فاختصرت في أصوات حروف معينة لابد أن تكون على العموم هي الأوحى بمختلف الأحاسيس الذوقية والشمية والبصرية والسمعية وبمختلف المشاعر الانسانية .

وشأن اللغة العربية بصدد هذه الصلة الايحائية أو الايمائية التمثيلية بين الحروف في الألفاظ وبين معانيها ، شأن جميع اللغات البدئية إلا أن بقاء هذه الصلة في لغة معاصرة ما ، وعدم بقائها في لغة أخرى ، يرجع مبدئيا إلى مدى ارتباط الأمة مبدعة أصوات حروفها وألفاظها ببيئتها البكر ، وإلى تمسكها بلغتها الأم ، مرحلة حياة بعد مرحلة ، إلى أن تنضج لغتها في مراحل حضارية راقية .

وهكذا تحولت الألفاظ في اللغات الغربية على العموم إلى رموز ومصطلحات على معان ، لأن أصوات حروفها المستوردة فقدت صلتها بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها ، كما أن صلاتها باللغات الأم كالسنسكريتية ، أو اليونانية القديمة ، أو اللاتينية ، وما إليها ، قد تقطعت عبر مراحل انحلالها في لهجات محلية تطورت مع الزمن إلى لغات حية على أيدي أدبائها وعلمائها وسياسيها .

أما الانسان العربي فقد ظل مقيما في جزيرته يمارس مهنة الرعي إياها ، في ذات البيئة التي نشأت فيها أصوات حروفه ، لتنضج على مهل العصور في لغة لا أبلغ ولا أفصح ، في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . ولذلك كان من طبيعة الأمور أن تتأصل هذه الصلة الفنية بين لغته وبين الطبيعة ، لتتأصل بذلك الصلة الراهنة بين الحروف العربية وبين الحواس والمشاعر الانسانية .

الافتراض الثالث :

إذا صح أن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحي الأصوات ذاتها بمختلف الأحاسيس والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف قبل أن تنتمي إلى القطاع اللغوي ، تنتمي أصلا إلى القطاع الصوتي . ولقد اقتضاني البرهان على هذا الافتراض أن أقوم بدراسة تجريبية مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس . فخلصت منها إلى تصنيف الحواس في هرمين حسيين اثنين :

الهرم الأول :

إن الحواس الخمس ، من حيث طبيعتها المادية ، أي من حيث تعاملها مع مادة الأشياء ، يمكن تصنيفها في هرم حسي سوى ، قاعدته في الأسفل وذروته إلى الأعلى . تبدأ قاعدة هذا الهرم بحاسة اللمس أشد الحواس مادية لتماسها المباشر مع مادة الأشياء التي تتعامل معها . ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية في الطبقة الثانية ، فهي لا تتعامل إلا مع الخصائص الذوقية في الأشياء . وتأتي حاسة الشم في الطبقة الثالثة ، إذ لاتتعامل إلا مع الروائح المنبعثة عن الأشياء . ثم تأتي حاسة النظر التي لاتتعامل إلا مع الصور والألوان المنعكسة عن الأشياء . أما حاسة السمع ، أقل الحواس مادية وأكثرها تجردا فهي تحتل قمة الهرم ، لأنها لاتتعامل إلا مع الفعاليات المنبعثة عن الأشياء على شكل موجات من الاهتزازات .

الهرم الثاني :

أما الحواس من حيث قدرتها عل استيحاء الأحاسيس الحسية واحتوائها ، فمن الممكن تصنيفها في هرم حسي منكوس ، ذروته في الأسفل ، وقاعدته إلى الأعلى .

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس في الذروة المنكوسة إلى أسفل. فملامس الأشياء لا توحي لنا بأي إحساس ذوقي أو شمّي أو بصري أو سمعي. وحاسة اللمس إنما هي كالغريزة الجنسية مغلقة على نفسها، عمياء صماء عن كل إحساس آخر.

ثم تأتي حاسة الذوق في الطبقة الثانية. فمذاقات الأشياء تحتوي الأحاسيس اللمسية، كل طعم يوحي بإحساس لمسي معين، إلا أنه لا يوحي لنا بأي إحساس شمي أو بصري أو سمعي. ثم تأتي بعدها حواس الشم فالبصر فالسمع. كل حاسة منها تدرك أحاسيسها مباشرة، كما تحتوي أحاسيس ما دونها من الحواس، على مثال مالحظناه في الحاسة الذوقية. أما المشاعر الانسانية، فهي لشفافيتها المتناهية وتجردها المطلق عن المادة، تحتوي بالضرورة أحاسيس الحواس جميعا، ولكن من خلال معانيها.

فالحالة الشعورية التي تثيرها كلمة نابية أو نظرة شذراء مثلا، قد تعاني النفس من معناها ما تعانيه الأصابع من وخز الابر، وما يعانيه الذوق من مرارة الطعم، والشم من كريه الروائح والبصر من قبيح المناظر والسمع من ناشز الأصوات منكرها.

ولقد عقدت فصلا خاصا عن الشعور في هذه الدراسة للكشف عن خصائصه ودوره في عمليتي إبداع أصوات الحروف العربية واستيحاء معانيها، قد خلصت منه إلى أن الشعور الذي يعي ذاته بذاته، يمكن اعتباره حاسة من نوع خاص، فكان تصنيف الشعور كحاسة سادسة فوق قمة الهرم الحسي الأول، وعلى امتداد قاعدة الهرم الحسي الثاني.

الافتراض الرابع:

إذا صح أن الأصوات توحي فعلا بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الانسانية، وأن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه، فالمفترض أن توحي هذه الحروف بذات الأحاسيس والمشاعر.

وللتحقق من صحة ذلك، أخذت أتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي للكشف عن خصائصها وموحياتها حرفا بعد حرف. ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الانسانية. لكل حاسة مجموعة من الحروف، ولكل انفعال شعوري أساسي حرف خاص.

لقد اعتمدت بادىء الأمر تصنيفا خاصا للحروف العربية تبعا لموحياتها الصوتية، دون أن أعير طريقة النطق بها أي انتباه. ولكن ما أن اهتديت مصادفة بعد إنجاز هذه الدراسة للمرة الأولى، إلى أن الانسان العربي قد اعتمد الحركات الايمائية في بعض الحروف للتعبير عن معانيه، كما في حرف (الفاء)، حتى أعدت تصنيفها مجددا بما يتوافق مع خصائصها الايمائية أيضا.

وهكذا استقر الرأي أخيرا على جدول التوزيع التالي:

1 – لحاسة اللمس ستة حروف هي: (ت. ث. د. ذ. ك. م).
2 – لحاسة الذوق حرفان إثنان هما: (ر. ل)
3 – لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي: (الألف المهموزة واللينة. ب. ج. س. ش. ط. ظ. غ. ف. و. ي).
4 – لحاسة السمع حرفان اثنان هما: (ز. ق).
5 – للمشاعر الانسانية سبعة حروف هي: (ص. ض. ن. خ. ح. هـ. ع).

أما حاسة الشم، فلم أجد لها حرفا خاصا لها، وإن كان لأصوات بعض الحروف إيحاءات شمية

إلى جانب ايحاءاتها الخاصة الأخرى . كما في الخاء للروائح القذرة ، والطاء للروائح العطرة .

الافتراض الخامس :

إذا صح ما انتهينا إليه ، مّن الافتراضات السابقة ونتائجها ، فالمفترض أن يكون لذلك كله سنده من واقع اللغة العربية ، وذلك بأن يكون لخصائص أصوات الحروف العربية دورها الفعال في تكوين معنى اللفظة العربية وتحديد مضمونه .

وللتحقق من صحة ذلك لجأت إلى المعاجم اللغوية أستفتيها الرأي عن مدى التوافق بين خصائص أصوات الحروف العربية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبها .

وعلى ألف مهل ، أخذت أتمعن صدى صوت كل حرف في نفسي ، وأتأمل طريقة النطق به لاستكشاف ما فيه من مختلف الخصائص الحسية والشعورية ، ايحائيها وايمائيها على حد سواء .

ثم قمت باستخراج معاني جميع المصادر التي تبدأ بكل حرف على حده ، أرتبها في جداول خاصة تربط بين معانيها روابط حسية أو معنوية . فإذا وجدت أن معاني المصادر قد التزمت بخصائص الحرف موضوع الدراسة بنسبة مئوية عالية ، اكتفيت بها على العموم . أما إذا كانت النسبة منخفضة فألجأ إلى استخراج معاني المصادر التي تنتهي به أيضا .

وربما عمدت في بعض الأحيان إلى استخراج معاني المصادر التي يتوسطها مثل هذا الحرف ، وذلك للتأكد من مدى تأثير خصائصه في معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها . وهكذا الأمر من حرف إلى حرف .

على أن المشقة البالغة التي عانيت منها كانت تتمركز في اختيار المصدر ومعناه من بين عشرات المشتقات وعشرينات المعاني للكلمة الواحدة التي يتصدرها الحرف ، أو يتوسطها ، أو يقع في نهايتها . فأيها هو المصدر الجذر الذي تفرعت منه المشتقات ؟ ثم أيها هو المعنى الأصل الذي تشعبت منه المعاني ؟

فمن ألفين وتسعمائة وواحد وثلاثين مصدرا ومشتقا تبدأ بحرف النون في المعجم الوسيط . ومن آلاف المعاني ، وقع اختياري على ثلاثماية وثمانية وستين مصدرا جذرا ، قد اعتمدت لكل منها معنى أصلا واحدا أو معنيين اثنين في قليل من الأحيان .

ولكن بما أن اللغة العربية فطرية النشأة مقتبسة من الطبيعة ، فلقد كان من منطق الأمور أن أختار المصدر صاحب المعنى المحسوس باعتباره الألصق بالطبيعة والأقرب إلى الفطرة ، على أنني لم ألتزم بهذه القاعدة الحسية أحيانا بصدد الحروف الشعورية (هـ. ع. ح. خ. ص. ن...) لأن العربي قد أبدعها أصلا للتعبير عن معان شعورية غير محسوسة في مرحلة لغوية متطورة كما سيأتي .

ولقد تبين لي أن المصادر قد التزمت معانيها بخصائص أصوات الحروف القوية التي تبدأ بها وبخصائص الحروف الرقيقة التي تنتهي بها ، بنسب راوحت بين (50 – 90) في المئة من مجموع المصادر .

الافتراض السادس :

إذا صح ما توصلنا إليه من خصائص الحروف العربية ومعانيها ، فالمفترض أن يكون المعنى الأصل لكل مصدر هو محصلة معاني حروفه .
وهذا هو الامتحان الأصعب .
ولكن هل تكفي معرفة معاني ثمانية وعشرين حرفا ، لمعرفة معاني عشرات الألوف من المصادر ومشتقاتها ؟

فإذا عرفنا معاني حروف مصدر معين، وجمعنا بعضها إلى بعض، هل يكون حاصل جمع معانيها هو معنى المصدر إياه؟ ولكن معنى (كلم) غير معنى (لكم) ومعنى (برق) غير معنى (رقب) وهكذا.

ومنه يتضح أن ترتيب الحروف في المصدر له الدور الأهم في تحديد معناه...
وهذه الأهمية ترجع أصلا إلى أن العربي كان في البدء يتقمص الحدث والشيء في الطبيعة فيعبر عن ذلك بأصوات حروف تتوافق خصائصها مع حركة الحدث أو مع شكل الشيء. وهكذا كان يخصص لكل منهما اللفظة التي يضاهي الحرف الأول منها بدايته، ويضاهي الحرف الثاني منها وسطه، ويضاهي الحرف الأخير منها نهايته. وذلك: (سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد)، كما قال ابن جني في خصائصه.

وهكذا كان العربي يصور حركة الحدث وشكل الشيء في الطبيعة بأصوات حروفه تصويرا سينمائيا أو فوتوغرافيا، إن صح التعبير. وطبيعي إذن أن تختلف مواقع الحروف في اللفظة تبعا لاختلاف حركة الحدث أو شكل الشيء، وأن يختلف بالتالي معنى اللفظة باختلاف مواقع حروفها.

كما يضاف إلى ما سبق، أن ترتيب أصوات الحروف في اللفظة، سواء بما يضفي الانسجام على جملتها الصوتية، أو بما يشيع الاضطراب والنشاز فيها، له تأثيره البالغ أيضا في محصلة معاني حروفها. فالألفاظ التي في جملها الصوتية تناسق وانسجام، قد خصها العربي على العموم بما يتوافق معها من المعاني التي فيها رقة وأناقة وجمال وسمو وفعالية، وما إليها من جيد المعاني إلاّ مَا نَدَرَ. والعكس بالعكس صحيح.
وهكذا يتحدد معنى المصدر الجذر بأمور ثلاثة.

بخصائص حروفه ومعانيها، ثم بكيفية ترتيبها، وأخيرا بجملتها الصوتية.
وهذه المعطيات الثلاثة، وإن زادت المسألة تعقيدا، إلا أنها هي التي تكشف لنا عن تلونات معنى كل مصدر من المصادر، وإن شارك غيره في ذات الحروف ليستحيل بذلك وجود لفظتين اثنتين في اللغة العربية بمعنى واحد، وإن أشارتا إلى ذات الحدث، أو ذات الشيء، فالمترادفات معدومة في اللغة العربية.

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة للتثبت من صحة هذا الافتراض بعنوان (في التطبيق على خصائص الحروف العربية ومعانيها)، قد استخرجت فيه معاني ستين كلمة.

والتزاما بموضوعية البحث، وحذرا من تهمة التحيز لصالح هذه الدراسة بمعرض اختيار الأمثلة، ورغبة مني في تحديد المعاني الأصل لكثير من مفاهيمنا المتداولة، فقد عمدت إلى حصر هذه الأمثلة من الكلمات في قطاعات أربعة، هي:

الأحداث في الطبيعة، والقيم، والنقائص، والمفاهيم الفلسفية والاجتماعية. ولما كان كل ثلاثي قد جاء من مقطع جذر ثنائي الحروف بزيادة حرف ثالث، وكان كل مقطع ثنائي قد جاء من حرف جذر بزيادة حرف ثان، فلقد عمدت إلى استخراج معنى كل كلمة منها وفق طرائق أربع:

بالرجوع إلى معناها في المعاجم، ثم إلى معاني أسرتها من المشتقات، فإلى معاني مقاطعها الثنائية الحروف، وأخيرا إلى خصائص حروفها المتحصلة لدينا من هذه الدراسة.

وقد لوحظ أن المعاني المستخرجة للكلمة الواحدة بحسب هذه الطرائق الأربع، كانت على العموم تتضافر على الكشف عن معناها الأصل،

بكثير من الدقة والوضوح ، كما كانت تكشف عن أسباب تنوع معاني المصدر الواحد ومشتقاته ، وإن تناقضت في بعض الأحيان . كما كانت تكشف أيضا عن أخطاء المعاجم في تفسير بعض الكلمات ولقد أشرت إلى تلك الأخطاء أحيانا .

ولكن كيف كان السبيل إلى معرفة المعنى غير الحسي في المفهوم الفلسفي المجرد ، من لفظة قد أبدعت أصلا للتعبير عن معنى محسوس ؟

لما كان من المتعذر أصلا على العربي تقمص المعاني المجردة غير المشخصة ، وهربا من الرمزية الاصطلاحية التي تتعارض مع نزعته الفنية ، فقد عمد إلى الافادة من وجود علاقة ذهنية معينة تربط بين المعنى الحسي لمصدر جذر معين ، وبين المعنى غير الحسي الذي يجول في خاطره ، فاستعار المصدر بالذات أو واحدا من مشتقاته ، للتعبير عن هذا المعنى المجرد .

وهكذا كان لابد لي من بذل المزيد من الجهد للكشف عن الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية الأصلية للكلمات وبين معانيها غير الحسية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمفاهيم الفلسفية ، كما في عقل البعير (ربطه) ، وعقل الأشياء (أدرك كنهها) . العدل ، بكسر العين والعدالة ، الحق بضم الحاء والحق بفتحها ...

ولو أنني اقتصرت في الأمثلة المضروبة من الكلمات ، على ما يدل على المعاني الحسية ، لما لاقيت في استنباط معانيها أي صعوبة تذكر ، بمجرد الرجوع إلى معاني حروفها . ولكنها الموضوعية في البحث ، والنزاهة في التقصي .

على أن هذه المفاهيم الفلسفية ، وما إليها من القيم والنقائص ، قد أتاحت لي فرصة نادرة للكشف عن قدرة ذهن العربي على التجريد انطلاقا من المحسوس ، وعلى مدى صدق حدسه الفني الذكي البكر بمعرض استنباط الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية للألفاظ وبين المعاني المجردة ، مما يكشف عن عمق نظرة الانسان العربي في الوجود .

وهكذا بانتهائنا مع الافتراض السادس إلى هذا التطابق بين معاني حروفها على وجه ما سبق بيانه ، فإن هذه الحقيقة تنسحب بالضرورة على جميع الأفتراضات السابقة ، بدءا من فطرية اللغة العربية ، وانتهاء بما تحصل لدينا من خصائص الحروف العربية ومعانيها .

الافتراض السابع :

كل أثر فني أصيل يحمل بالضرورة نفحة من روح مبدعه الفنان ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر أو نحتا أو لوحة أو شعرا أو قطعة موسيقية . فلا يصعب على ذواقة الفنون الاصلاء مع هذا الطابع المميز ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب إلى أصحابها .

فإذا صح ما سبق وافترضناه ، من أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره ، فإنه لابد للحرف العربي أن ينطبع بطابع الشخصية العربية .

فتعامل الانسان العربي مع هذه المادة الصوتية من الحروف طوال آلاف كثيرة من الاعوام قد أنشأ علاقة عضوية متميزة بين شخصية الانسان العربي وبين خصائص الحرف العربي .

فكما أن الانسان العربي قد مازج بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية فيما هو أصيل من تقاليده وعاداته ومؤسساته ، فكانت المقامات الرفيعة وقفا على ذوي المواهب والمناقب والميول السامية والعكس بالعكس صحيح ، إلا فيما ندر ، كما سيأتي ذلك

مفصلا في كتابي المقبل ((الجذور الثقافية في الشخصية العربية)) – كذلك سلك الانسان العربي هذا النهج الفني الأخلاقي إياه مع حروفه ومعانيه . فالحروف التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية ، قد خصصها العربي بما يتوافق مع صداها المحبب في النفس ، من معاني الشهامة والسمو والصفاء والفعالية ، وما إليها من القيم الجمالية والانسانية . أما الحروف التي في أصواتها فجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز ، فقد خصصها بما يناسبها من معاني القبح والنقائص الانسانية ، كما سيأتي مفصلا في دراسة الحروف العربية . روابط صحيحة متبادلة بين القيم الجمالية في أصوات الحروف العربية ، وبين القيم الانسانية في معانيها ، تؤكد صحة ماذهبت إليه من أنه (لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن) .

على أن الحرف العربي قد بلغ أقصى أبعاده الفردية في القافية ، قبة لكل بيت من الشعر الجاهلي ، ثم في الحروف النورانية يرتل المؤمنون أصواتها بخشوع ما يرتلون آيات الله في قرآنه الكريم .

كما بلغت شخصية الانسان العربي أقصى أبعادها في البطل قبة لكل قبيلة ، وفي النبوة قبة لكل مرحلة .

ومع هذا التطابق الأخير بين ((شخصية)) الانسان العربي ، و ((شخصية)) الحرف العربي نكون قد انتهينا من هذه السلسلة من الافتراضات ونتائجها إلى حقيقة ثابتة أخيرة تنسحب بحكم المنطق الرياضي على ما سبقتها من الافتراضات والنتائج إلى أن نصل إلى مقولة :
((فطرية اللغة العربية)) .

الحروف الجوفية / أهميتها / نشأتها

الحلقة الثانية :

أولا : حول أهمية الحروف الجوفية :

لما كانت الحروف الزراعية إيمائية كالحروف الجوفية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، فمن المستحسن أن نكشف عن أهميتهما معاً بمعرض مشاركتهما في تراكيب حروف المعاني .

فباستعراض حروف (الجر والعطف والنصب والجزم والنفـي والشرط والنـداء والجواب والاستقبال ...) إلى واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني ، نجد أن دوران بعض الحروف العربية فيها يبلغ أضعاف دوران بعضها الآخر .

وبإحصاء ما جاء في شروح معاني المفردات في كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لأحمد بن هشام) ومعظمها من حروف المعاني ، عثرنا على (87) مفردة ، تتألف الواحدة منها من حرف واحد أو أكثر ، قد شارك في تراكيبها (24) واحداً من حروف البناء ، تكررت فيها (185) مرة .

ولفت انتباهي أن دوران بعض الحروف الغابية والزراعية قد بلغ أضعاف دوران الحروف الرعوية . فلقد تكرر دوران الحروف الجوفية (الألف مهموزة ولينة) (الـواو واليـاء) على التـوالي (32 / 7 / 5) مرات . وتكـرر دوران الحروف الزراعيـــة (الـــلام والميم والفـــاء) على التوالي : (32 / 17 / 3) مرات .

أما الحروف الرعوية ، فكان دوران حروف (ن / ك / ع / ب / د / س) على التوالي : (15 / 11 / 10 / 8 / 7 / 6) مرات . وكان دوران بقية الحروف يتردد بين (1 / 3) مرات باستثناء حرفي (ذ / هـ) كان دورانهما (7 / 5) مرات .

وباستعراض واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني في كتاب (جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني) عثرنا على (139) حرفاً ، قد شاركت في تراكيبها الحروف الجوفية (ا / و / ي) على التوالي (81 / 14 / 11) مرة . وشاركت الحروف الايمائية (ل .م . ف) على التوالي (55 / 28 / 2) مرة . وشاركت الحروف الرعوية الايحائية (ن. ك. ع. ب. د. س) على التوالي (43 / 10 / 2 / 4 / 1 / 2) مرة . وكان دوران بقية الحروف الرعوية يتردد بين (1 / 5) مرات . وذلك بنسب مقاربة لما لحظناه لدى ابن هشام .

ولقد شاركت الحروف الغابية والزراعية في تراكيب (119) حرفاً معنوياً من أصل (139) . مع الاشارة إلى أن الحرف المعنوي الواحد منها كان يتكرر بذاته في أكثر من نوع واحد من أنواع حروف المعاني ، لشتى الاستعمالات والمعاني .

وهذا يؤكد تفوق الحروف الغابية والزراعية على الحروف الرعوية في قطاع الحروف المعنوية أقدم المستحاثات الأثرية في اللغة العربية .

على أن الحروف الغابية والزراعية لايستمدان أهميتهما من كثرة دورانهما في حروف المعاني فحسب ، وإنما لأمرين آخرين أيضاً .

1 – كثرة دوران حروف المعاني التي تشارك في تراكيبها هاتان الفئتان من الحروف في اللغة العربية المحكية والمكتوبة .

2 – كثرة تفرعات معاني كل حرف معنوي منها وتنوع استعمالاته بما يتلاءم في معظم الأحيان مع خصائص ومعاني حروف البناء التي تشارك في تركيبه . فكان لحرف اللام لدى ابن هشام (29) معنى واستعمالاً . وكان لحروف (الهمزة والباء والفاء) على التوالي (14 / 14 / 15) معنى واستعمالاً .

وكان لحروف (عن . أو . في . على . إلى) على التوالي (13 / 12 / 10 / 9 / 8) معاني واستعمالات .

ولما كانت هاتان الفئتان من الحروف الايمائية هما قوام معظم حروف المعاني أقدم المستحاثات في اللغة العربية ، لبساطة تراكيب معظمها (من حرف واحد أو حرفين) ، فإن ذلك يقطع بأنهما هما الألصق طبيعة ونشأة بأصول اللغة العربية ، وبالتالي الأبعد غوراً في التاريخ من الحروف الرعوية .

ولما كانت سلامة استعمال حروف المعاني متوقفة على معرفة حقيقة معانيها ، فإنه لابد أولاً من معرفة أصول معاني الحروف الغابية والزراعية التي شاركت في تراكيب معظمها . ولمعرفة معاني هاتين الفئتين من الحروف ، لابد من العودة إلى نشأتهما البكر ، فنرى كيف ارتبطت معاني كل حرف منهما بخصائصه الايمائية التمثيلية ، فاستقر عليها طوال آلاف الأعوام .

وبذلك لا نفهم معاني حروف المعاني التي تشارك الحروف الايمائية في تراكيبها فحسب ، وإنما سنعرف أيضا الأسباب الحقيقية التي دعت الانسان العربي إلى استعمال كل واحد من الحروف المعنوية في معظم معانيه ووظائفه المتطورة الراهنة . وهذا ما يساعدنا على الكشف عن الأخطاء التي ارتكبت في شروح معاني بعض حروف المعاني ، سواء بإسناد وظائف لها لاتملك مؤهلاتها ، أو بعدم الاهتداء إلى وظائف بعضها الآخر .

ولئن كانت هذه الدعوة بلزوم الرجوع إلى أصول لغتنا بحثاً عن معاني حروفها ومفرداتها تتعارض مع ما استقر عليه رأي علماء اللغة الغربيين ومن تبعهم من دكاترتنا ، من حيث عدم جدواها ، إلا أن ما لايصح على اللغات الغربية الاصطلاحية ، يصح بالضرورة على اللغة العربية إذا كانت فطرية وهي فطرية النشأة فعلا كما سيأتي .

ثانيا : حول نشأة الحروف الغابية (ا. و. ي) :

كيما نستطيع تعليل الخصائص الايمائية التمثيلية التي علقت بهذه الحروف طوال آلاف كثيرة من الأعوام توصلا لمعرفة معظم وظائفها ومعانيها ، لابد لنا من الرجوع إلى المرحلة الحياتية التي نشأت خلالها ، ولو باقتضاب شديد .

فهذه الدراسة عن حروف المعاني هي إحدى التطبيقات الميدانية لمقولة (فطرية اللغة العربية) على واقع التاريخ والمعاجم اللغوية .

فالقول بفطرية اللغة العربية يستدعي القول بأن الانسان العربي هو وحده الذي أبدع حروفه ومن ثم لغته في الجزيرة العربية ، قد اقتبسهما مباشرة من الطبيعة المادية والانسانية ، وطورهما معاً عبر مراحله الحياتية . لا يجرح هذا القول أن يكون ثمة لغات أخرى تشارك اللغة العربية حروفها قد سميت خطأ أو تآمراً (بالسامية) . فهي عروبية جميعاً قد خرجت من الجزيرة العربية مع الموجات الرعوية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير ألف عام بعد ألف ، قبل أن تستوفي لهجاتها أسباب تطورها . أما اللغة العربية وريثة تلك اللهجات ، فقد بقيت في مهدها تتفاعل مع ذات البيئة الصحراوية وذات الحياة البدوية على ألسنة وفي أسماع هزاجها وشعرائها وأنبيائها إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

والقول بغابية الحروف الجوفية يستدعي إقامة الدليل على أن المرحلة الغابية لها جذورها في هذه الحروف طرائق في التعبير تدل على معانيها .

ففي المرحلة الغابية أقدم المراحل الحياتية التي مر فيها إنسان الجزيرة العربية إبان العصر الجليدي الأخير قبل عشرات ألوف الأعوام ، كان لابد له أن يستخدم الصراخ والأصوات الهيجانية مترافقة مع الحركات الجسمية ، بمعرض التواصل مع أبناء جنسه . وشأنه في ذلك شأن أي إنسان بدائي آخر على وجه الأرض .

فالحركات الجسمية سواء كانت هيجانية أو عفوية أو إرادية ، إنما هي متأصلة في دنيا التواصل الانساني منذ ملايين الأعوام حتى الآن . فقد لاحظ الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أهمية الاشارة (أي الحركة الجسمية) بمعرض الدلالة على المعنى . كما يؤكد العالم (بيردوسل) مبدع علم الحركات الجسمية في الخمسينات من هذا القرن أن نسبة (سبعين في المئة) من التواصل بين الناس يتم بالحركات الجسمية (يد . رأس . عنق . شفة . لسان . فم . عين . حاجب ، جفن . قسمات . وجه . أصبع . ذراع . رجل . إلخ ...) .

وهذا الترافق الغريزي بين النطق والحركات الجسمية ، يعود إلى أن المناطق الدماغية المتعلقة بالنشاط التقني وصنع الأدوات مترابطة ترابطاً متبادلا مع المناطق الدماغية الخاصة بالنطق (كتاب علم اللغات لجورج مونين . ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 28 / 29) .

ولاشك في أن الانسان العربي قد أبدع المزيد من أنواع الصراخ والحركات الجسمية في المرحلة الغابية تلك تعبيراً عن حاجاته ومعانيه المحدودتين ، بما يتلاءم مع مستواه البدائي آنذاك . ولذلك كان من البداهة أن يسقط الكثير من تلك الأصوات والحركات في المراحل الحياتية التالية مما لم يعد بحاجة إليه . فلا يبقى منهما إلا ما يتلاءم مع مستوياته الحضارية المتطورة المثالية ، وما يلبي حاجاته ومعانيه المستجدة ، وإن بكثير من التلطيف والتهذيب .

ولما كانت أصوات الحروف الجوفية (ا . و . ي) والهمزة المزمارية هي أقرب الأصوات الانسانية إلى الهيجاني ، والأسهل نطقاً ، فقد امتدت إليها شعوب العالم جميعاً ، لا تخلو منها لغة حية ولا لهجة بدائية ، قد ورثناها كغيرنا من وسائل الاتصال في العهود الغابية . ولكن بعد أن تلطفت أصواتها الهيجانية وتهذيب حركات الرأس الايمائية التي كانت ترافقها عبر العصور ، فإننا لانكاد اليوم نستبينها عند النطق بأصواتها إلا بمزيد من التمعن والتدقيق .

فما هي هذه الحركات الايمائية الغابية ، وما هي دلالاتها ؟ ثم ما تطبيق ذلك على واقع المعاجم اللغوية وحروف المعاني ؟

كيف نهتدي إلى خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

الحلقة الثالثة :

أولا : حول أبعاد هذه المشكلة :

لقد عرضنا سابقاً أنه لابد أولاً من معرفة معاني حروف المباني توصلاً لمعرفة معاني حروف المعاني وأصول استعمالها . ولكن أين نعثر على معانيها ؟ .

ما أحسب أن عالم لغة عربية إلا وقد عمل على تحديد معاني بعض الحروف العربية ووظائفها في سياق أبحاثه اللغوية ، ولا سيما الصرفي والنحوي منها ، وبصورة خاصة ما يتعلق منها بحروف المعاني .

ولكن هل يصح لنا الركون إلى ما توصلوا إليه ، ولما يقل أحد منهم بانتماء الحروف العربية إلى المراحل الغابية والزراعية والرعوية ، ولم يتطرق إلى خصائصها الايمائية ؟ . مما يؤكد استحالة اهتدائهم إلى حقيقة معانيها جميعاً ، ولئن أصابوا في تحديد معاني بعضها باعتمادهم خصائصها الايحائية ، إلا أنه قد فاتهم ما يتعلق بالايمائي من خصائصها . وهكذا كان لابد لي من اتباع نهج خاص في هذا الصدد يراعي مسألة الايمائي والايحائي معاً في أصوات الحروف العربية ، ومسألة انتمائها إلى المراحل الحياتية الثلاث .

ويستحسن بنا أن نجري أولاً مقارنة سريعة بين نهج بعضهم ونهجي في استخلاص معاني حروف المباني .

ثانيا : علماء اللغة العربية بين النصوص ومعاني الحروف :

تنطلق هذه الدراسة من مقولة (فطرية اللغة العربية) كما أسلفنا سابقاً . بمعنى أن أصولها ضاربة في أعماق التاريخ قد اقتبست مباشرة من الطبيعة ، وليست مجرد مصطلحات عقلية قد تواضع الناس على معاني ألفاظها . فقد استقر رأي علماء اللغة العربية القائلين بفطرتها ، على أن معنى كل كلمة عربية هو بالضرورة محصلة معاني الحروف التي تشارك في تركيبها .

ولقد حاول (ابن جني) ، وهو من أقدم القائلين بفطرية اللغة العربية أن يستخلص معاني بعض الحروف بالرجوع إلى معاني الكلمات التي تشارك في تراكيبها . فاستهدى تارة بقاعدته الذكية : ((لا ينكر تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)) . واستهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى : ((حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)) . كما حاول

(العلايلي) وهو من أحدث القائلين بها أن يحدد معاني الحروف العربية : ((بما تسمح به النصوص)) .

ولئن أصابوا جميعاً في تحديد معاني بعض الحروف ، إلا أنهم قد أخطأوا في تحديد معاني بعضها الآخر .

ويقول ابن جني : (الحاء) فيه رقة ، وفي (الخاء) غلظة . فقيل (نضح) للماء القليل ، و (نضخ) للماء الكثير . ثم يقول : (القاف) فيه صلابة ، وفي (الخاء) رخاوة . فقيل (قضم) لليابس ، و (خضم) للرطب . وبذلك يكون ابن جني قد أسند لحرف (الخاء) خاصيتين لاتخلوان من التعارض .

وقد لاحظ الارسوزي العلاقة بين معاني التخريب في المصادر التي تبدأ (بالخاء) وبين ظاهرة التخريب في صوتها ، كما في : (خرَّ خريراً / خرب / خرس / خرم / خرق ...) فأسند هذه الخاصية الصوتية (للخاء) . وكان هذا الاكتشاف فاتحة اهتمامه باللغة العربية بمعرض البرهان على فطرتها .

أما العلايلي فقد قال عن (الخاء) بأنها : ((للمطاوعة والانتشار والتلاشي)) .

وهكذا لم يهتد أحد من علماء اللغة العربية إلى مختلف معاني (الخاء) ، لأنهم لم يتبعوا نهج الانسان العربي في إبداع كلماته تعبيراً عن معانيه بما يتوافق مع صدى أصوات حروفها في النفس . فالانسان العربي ، تأثرا منه بخصائص الخنخنة الكريهة والرخاوة والتخريب في صدى صوت (الخاء) في النفس ، قد جعلها في مقدمة المصادر التي تدل معانيها على أمراض وعيوب نفسية وأخلاقية وجسدية وعلى القذارة والبشاعة والفحش ، وما إليها من الرخاوة والتخريب والتفاهة والاضطراب ، بما نسبتها (80) في المئة . كما كان ثمة (13) مصدراً تدل معانيها على ما يفيد الرقة والصفاء والبضاضة ، بما يتوافق مع صوت (الخاء) مخففاً مرققاً ، منعماً ، بنسبة (5) في المئة فقط . وهذا ما يجيز لنا القول بأن (الخاء) هي سلة النفايات التي وضعها الانسان العربي في بنيان لغته الشامخ الأنيق . ولو أنهم استكشفوا خصائص صوت (الخاء) ابتداء لعثروا على حقيقة معانيها بالرجوع إلى المعاجم والنصوص . ولهذا السبب قد ابتعد العلايلي كثيراً عن حقيقة معاني معظم الحروف العربية في كتابه (تهذيب مقدمة اللغة) .

ثالثا : اعتماد خصائص الحروف العربية لمعرفة معانيها :

إن فطرية اللغة العربية تحتم وجود رابطة أصيلة بين خصائص الحروف العربية وبين معانيها . ولذلك فإن خصائصها الايمائية والايحائية هي بداهة أصول معانيها ، وليس العكس . فبدل أن ألجأ إلى النصوص لمعرفة خصائص الحروف ومعانيها كما فعل غيري ، قد بدأت بالتحري عن خصائصها أولاً ثم التحقق من توافق هذه الخصائص مع معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، متبعاً في ذلك النهج التالي :

أ – ألفظ صوت الحرف منفردا بشيء من التفخيم . وذلك لتضخيم الحركات الايمائية التي يمكن أن ترافقه ، عودة بها إلى مراحلها البكر ، قبل أن يتناولها الانسان العربي بالتهذيب والتلطيف في مرحلة شاعرية لا-ـقة . ثم أتأمل طريقة النطق بصوته بحثاً عن خصائصه الايمائية .

ب – ثم أتأمل صدى صوته المفخم في النفس ، بحثاً عن خصائصه الايحائية الأصلية قبل مرحلة التهذيب والتلطيف .

ج – وأخيراً ، ألجأ إلى أحد المعاجم اللغوية . فإذا كان الحرف (ذكوريا) ، في صوته قوة أو

صلابة أو شدة أو غلظة أو فعالية أو حدة ، وما إليها أكتفي في معظم الأحيان باستخراج أصول معاني جميع المصادر الجذور التي تبدأ به بحثاً عن التوافق بينها وبين خصائصه الايمائية والايحائية . وأقصد بالمصادر الجذور ما هو غير دخيل ولا معرب ولا مولد ولا محدث ، ولا ما يدل معناه على نبات أو حشرة أو حيوان أو جماد لا اشتقاق له . كما أقصد بأصول المعاني ، الحسي منها لا المعنوي ، مما هو ألصق بالطبيعة أصل نشأتها ونشأة حروفها . وذلك للكشف عن الرابطة الأصيلة بين خصائص الحروف ومعانيه .

أما إذا كان الحرف (أنثويا) ، في صوته رقة أو أناقة أو نعومة أو دماثة ، فألجأ إلى المصادر الجذور التي تنتهي به أيضا . وقليلاً ما ألجأ إلى المصادر التي يتوسطها . فالحروف الأخرى تزاحمه في مواقع قوتها على معاني المصادر ولا يبقى له منها إلا القليل . وذلك على العكس مما يدعيه بعض علماء اللغة من أن الحرف الوسط هو أقوى الحروف في الكلمة ، بدليل قابليته للتضعيف كما في (قسّم) بتشديد (السين) . وفاتهم أنها قوة مصطنعة ، فالفعالية الحقيقية في معنى هذه الكلمة هي لحرف (القاف) وليس لحرف (السين) .

وشأن الانسان العربي مع حروفه في لغته ، كشأنه مع الذكورة والأنوثة في مجتمعه . فالرجل البدوي كان أوحى بخصائص الذكورة عندما يتصدر الصفوف ، بمقابل ما كانت المرأة البدوية أوحى بخصائصها الأنثوية عندما تستكين في المضارب الخلفيّة . وذلك لأن أصوات الرجال والنساء والحروف يجهر بها ويشد عليها عندما تتصدر الصفوف والحروف ، وتلفظ مخففة مرققة منعمة ، في مؤخرة الصفوف والحروف . مما يجعلها محكومة بقاعدة (وضع المناسب في المكان المناسب) . ما شذّ عن هذا النهج العربي الرعوي عبر التاريخ إلاّ قلّة من الرجال والنساء والحروف أيضاً ، ممن تمتعوا بشخصيات قوية .

وبتطبيق هذا المنهج على الحروف العربية جميعاً في المعجم الوسيط ، تبين لنا أن هناك حروفاً قوية الشخصية قد طبعت بخصائصها الايمائية والايحائية معاني المصادر التي تبدأ أو تنتهي بها بنسب راوحت بين (60 / 90) في المئة . كما كان إلى جانبها حروف متوسطة الشدة قد اقتصر تأثير خصائصها في معاني المصادر على نسب راوحت بين (50 / 60) في المئة . واقتصر تأثير خصائص حرف (التاء) في معاني المصادر التي تبدأ بها على (29) في المئة وحرف (الحاء) على (22) في المئة . فكانا بذلك أضعف الحروف شخصية .

أما الهمزة المزمارية والحروف الجوفية الثلاثة ، فلم ألحظ أن ثمة رابطة واضحة بين خصائصها وبين معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها . فهل يجيز لنا ذلك أن نحكم بأنها معدومة الشخصية ، وأنها بلا معان ؟ سنرى .

الحركات الايمائية في الحروف الغابية

الحلقة الرابعة :

كنا عرضنا في الحلقة الأولى أن الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) قد ورثناها عن المرحلة الغابية كبقية شعوب العالم البدائية والحضرية على حد سواء .

ولكن ما هي أصول الحركات الايمائية التي ترافق أصواتها ، وماهي دلالاتها في لغتنا ؟

أولاً : الألف

أ / الألف المهموزة :

تقرأ الألف في أول الكلمة (همزة) . يحصل صوتها بانطباق فتحة المزمار وانفراجه الفجائي قبل أن يصل النفس إلى الحنجرة ، فكانت بذلك مزمارية المخرج ، لا حلقية ولا جوفية .

إذا لفظت الهمزة بشيء من التفخيم يترافق صوتها مع حركة انفراج الفكين واسعاً وحركة الرأس إلى الأعلى . فيحاكي صوتها الانفجاري بذلك نتوءاً في الطبيعة ، ويأخذ صورة الظهور والبروز والحضور ، كمن يقف فوق مكان مرتفع .

ولقد أفاد الانسان العربي من خصائصها هذه ، فاستخدمها منفردة لنداء القريب (أفاطم مهلاً) ، وممدودة لنداء البعيد (آزيداً) . كما استخدمها للاستفهام والطلب والتقرير والتهكم والأمر والتعجب ، وما إليها من الوظائف و المعاني التي عددها ابن هشام ، بما يتوافق مع ما ذكرناه من خصائصها .

كما جعلها في مقدمة أسماء الألوان الأصلية ، للوضوح (أحمر . أبيض) ، وفي مقدمة الضمائر الظاهرة للمتكلم والمخاطب (أنا . أنت) للحضور والظهور ، فحرم الغائب منها (هو هي) . كما جعلها في مقدمة الأفعال اللازمة للتعدية (أكرمه) ، وفي صيغة أفعل التفضيل (أشجع) للبروز والظهور .

وكان للهمزة نصيبها الوافي من حروف المعاني ، قد تصدرت بعضاً من حروف (النداء والشرط ، والتفسير ، والعرض ، والمصدرية والتشبيه والتوكيد ، والصلة) . وذلك للافادة من خصائصها الايمائية والايحائية في الوضوح والظهور والحضور بمعرض التعبير عن وظائف هذه الحرف ومعانيها .

أما إذا وقعت (الهمزة) في وسط الكلمة أو نهايتها ، فإن صوتها الانفجاري يحاكي عثرة في الطبيعة . (فأس . داء . كأداء) .

ب / الألف اللينة :

تقرأ الألف في وسط الكلمة ونهايتها (ألِفاً ليّنة) . يخرج صوتها من جوف الفم مع حركة انفتاح الفكين وارتفاع الرأس إلى أعلى ، فيوحي صوتها بالامتداد إلى الأعلى .

ولقد أفاد العربي من هذه الخصائص فجعلها في نهاية (أنا) ، لمنح شخصية المتكلم مزيداً من السمو والرفعة في مواجهة المخاطب (أنت) ، الذي أنهاه بحرف (التاء) الرقيق الصوت الضعيف الشخصية ، استعلاء للمتكلم على المخاطِب . وحرك هذه (التاء) بالكسرة للمخاطبة إمعاناً في الاستعلاء عليها . وجعل (الألف) في صيغ (فاعِل وفعّال ومفعال) للفعالية والمبالغة .

وقد جعلها في نهاية (إلى) لمنح الحدث المتعلق بها فسحة في المكان والزمان . فيقال : (ذهبت إلى البيت) ، ولا يقال : (ذهبت للبيت) ذلك لأن(اللام) للالتصاق كما سيأتي ، فلا فسحة معها لحدث الذهاب في المكان ، ولا في الزمان . ولهذا السبب يقال : وقفت منه ((وجها لوجه)) ، ولا يقال : ((وجها إلى وجه)) .

ولما كانت حركة الرأس إلى الأعلى في نهاية التواصل ، ايماء أو كلاما تشير إلى الرفض أو النفي ، فقد أسند العربي للألف في نهاية حروف المعاني (لا . ما . كلا) ، وظائف الرفض والنفي ، ضربا من الثبات والاستقرار .

ثانيا : الواو

يحصل صوتها بتدافع النفس في جوف الفم مع انضمام الشفتين على شكل حلقة ضيقة تسمح بمروره إلى خارج الفم . يترافق صوتها المفخم مع حركة اندفاع الفكين والرأس إلى الامام مما يشير إلى الفعالية والاستمرار .

لقد عدد ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب) نيفا وثلاثين قسماً ومعنى (للواو) . كان العطف من أهم أقسامها ومعانيها الأصلية . فهي لديه ولدى الغلاييني (لمطلق الجمع على تقارب أو تراخ في الزمن) . واختلف الفقهاء في مسألة ترتيب متعاطفيها .

ونحن نرى أنه لا مجال للترتيب معاً وذلك بحكم تدافع النفس في جوف الفم عند خروج صوتها مما يضاهي تدافع متعاطفيها بلا ترتيب في الزمان والمكان ففي قدم زيد وسعد وخالد قد يكون خالد هو أول القادمين . وكان الغلاييني على هذا الرأي الصواب .

ولهذا السبب من تدافع النفس في إخراج صوتها ، جعلت ضميراً للذكور لدى ابن هشام حرفا دالا على الجماعة لدى سيبويه .

كما جعلها العربي في صيغة (فعول) للفعالية والمبالغة (أكول) ، وعلامة رفع جمع المذكر السالم إذا كان فاعلاً أو مبتدأ للفعالية .

ثالثا : الياء

صوتها في جوف الفم المترافق مع حركة الفك السفلي والرأس إلى تحت باتجاه الصدر ، يحاكي حفرة عميقة في الطبيعة ، على العكس من صوت (الهمزة) .

فأفاد العربي من خاصية الحفرة في صوتها وجعلها في نهاية الحرف (في) للاحتواء ، وفي صيغ التصغير ، وكأن الأسماء المصغرة قد وقعت في حفرة (رجيل . عو يميد) . كما جعلها علامة نصب وجر جمع المذكر السالم والمثنى ، ليتحملا في هذا المكان الخفيض الذي استقرا فيه وقع الاعتداء عليهما مباشرة أو بواسطة الحروف .

ولما كانت حركة الفك السفلي التي ترافق صوت (الياء) تشير إلى الذات ، فقد ألحقها العربي مشددة بالأسماء للنسبة (سوري . شرقي) . كما جعلها في صيغة (فعيل) ، إما لرسوخ الحالة المعنيّة في ذات صاحبها (عليم . حكيم) ، وإما بمعنى المفعول (قتيل) ، بما يتوافق مع خصائص (الياء) الايمائية والايحائية في كلا المعنيين .

ولكن لماذا ضعف تأثير هذه الحروف في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ؟

على الرغم من أهمية الحروف الغابية في القطاع الصرفي ، على وجه ما ألمحنا إليه آنفا فإنه لا رصيد يذكر لخصائصها الايمائية والايحائية في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها كما أسلفنا . فلم ذلك ؟

هناك سببان اثنان :

الأول : فقرها في الايحاءات الحية والشعورية : لقد اقتصرت خصائص (الألف والواو والياء) على نقل الأبعاد الثلاثة في الطبيعة إيماء : إلى فوق وأمام وتحت . ولا موحيات حسية أو شعورية أخرى في أصواتها .

ونظراً لفقرها في الموحيات ، فإن الانسان العربي لم يجد مجالاً للتعبير بها عن معانيه الحضارية ، عبر مراحل تطوره . فقل بذلك تأثيرها المباشر في معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، ولو كان لها دورها الثانوي في موسيقى الكلمة وتلوين معانيها .

والثاني : يتعلق بطبيعة أصواتها : كان الانسان العربي في مراحله اللغوية الأولى يكثر من استعمال الحروف الجوفية الثلاثة في تواصله مع أبناء جنسه بكثير من المد والتفخيم ، على مثال مانلاحظ ذلك لدى أبناء اللهجات الأفريقية البدائية ، كما في لهجة الموسي في (فولتا العليا) .

ولكن ما إن بدأت اللغة العربية تأخذ طابعها الشاعري على أيدي مزاجها وشعرائها حتى عمل الانسان العربي على إماتة هذه الحروف الغابية لعلة الطابع اللغوغائي في أصواتها . وقد أتبع في ذلك كما لاحظ العلايلي في مقدمته اللغوية ثلاث طرائق ، كان أهمها تحويلها إلى حركات شكل : الألف اللينة إلى فتحة ، والواو إلى ضمة ، والياء إلى كسرة ، فانعدم اللغو في لغته الشاعرية . وهكذا تكون الحروف الجوفية هي الأقدم في الزمن من حركات الشكل بآلاف كثيرة من الأعوام على العكس مما ادعاه بعض علماء اللغة العربية وفقهاؤها .

حول أصول حركات الشكل ودلالاتها

الحلقة الخامسة :

أولا : حول إماتة الحروف الجوفية في اللغة العربية :

لقد انتهينا من الحلقة السابقة إلى أن الانسان العربي قد عمل على إماتة الحروف الجوفية (الألف اللينة والواو والياء) في ألفاظه لسببين :

ا - فقر أصواتها بالموحيات الحسية والشعورية ، فانصرف عنها ما استطاع لعجزها عن التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الانسانية في معانيه المستجدة عبر مراحله الثقافية المتطورة .

ب - عدم استعذابه غوغائية أصواتها في لغته الشاعرية الراقية . وكان ذلك بترجيح شديد بفعل الشعراء أنفسهم .

ولقد اتبع العربي في ذلك كما لاحظ العلايلي ثلاث طرائق .

ا - بالاستعاضة عن الحروف الجوفية بحروف صامتة ، وفي مقدمتها الهمزة . بعضها قد أميت كما في (وخي) قد تحولت إلى أخي . وبعضها لا يزال حيا ، كما في (بئر من بير ، أحد من وحد ، أطم من وطم ، نشر من وشر ...) وذلك كثير.

ب - بالتضعيف كما في (نب) من نبي ، وبالحذف ، كما في (أب - أم - دم) من أبو أبوة ، أمو أمومة ، دمو دمويا ...).

ج - بتحويل الحروف الصائتة إلى حركات - كما أسلفنا في الحلقة السابقة - وذلك بدليل بقاء هذه الحروف في بعض الكلمات كتابة دون لفظ ، كما في (عمرو - أولئك) .

ولكن على الرغم من المحاولات المتنوعة لاماتة الحروف الغابية في اللغة العربية ، فإنها لاتزال تحتفظ بأهمية فائقة لايحظى بمثلها أي حرف عربي آخر ، وذلك في قطاعين لغويين اثنين .

الأول قديم سابق للمرحلة الرعوية الشاعرية قبل أن يعمل العربي على إماتتها ، هي قطاع حروف المعاني .

والثاني حديث من نتاج المرحلة الرعوية الشاعرية ذاتها ، هو قطاع حركات الشكل . ولكن لما كانت الحروف الزراعية الايمائية تشارك الحروف الغابية في تراكيب معظم حروف المعاني ، فإننا سنكتفي هنا بتوضيح علاقة معاني حركات الشكل

بخصائص الحروف الجوفية الثلاثة . أما الحديث عن حروف المعاني ، فسنؤجله إلى ما بعد الانتهاء من تحديد معاني بعض الحروف الزراعية الايمائية والرعوية الايحائية التي تشارك في تراكيب حروف المعاني موضوع هذه الحلقات .

فعملية تحويل هذه الأصوات الغوغائية إلى حركات ، لا ألطف على اللسان لفظا ، ولا أرق في السمع جرساً ، ولا أخطر على المعاني استعمالاً ، إنما هي أشبه ما تكون بعملية تحويل المادة البترولية الخام إلى مشتقات ، لاأنقى طبيعة ، ولا أشف منظرا ، ولا أخطر استعمالاً . وكل منهما كان قبل التحويل ، خاماً ، وغوغائياً .

ثانيا : حول دلالات حركات الشكل :

1 / الفتحة :

هي مخفف (الألف اللينة) . قد جعلها العربي في نهاية الفعل الماضي ، للاستقرار : (من مات فات) . كما جعلها في نهاية المفعول به للاستكانة والاستقرار . وذلك لأن صوت (الفتحة) في نهاية الكلمة يلفظ بأخفض نبرة ، مما يجردها من كل فعالية ، على العكس مما وقعت في أول الكلمة أو وسطها . وقد لحظنا آنفا أن الألف اللينة في نهاية حروف (لا . ما . كلا) تشير إلى مواقف الرفض والنفي ، ضرباً من الثبات والاستقرار .

وقد استثمر الانسان العربي خصائص الاستكانة والاستقرار والثبات في حركة الفتحة ، فجعلها في نهايات الأسماء المنصوبة بما يناسب أغراضها . قد جعلها علامة نصب المفعول (به ، وفيه ، ومعه ، والمطلق) ، والمنادى ، والمستثنى بإلا ، والتمييز لأنها تتحمل جميعاً فعل الفاعل إما مباشرة ، وإمّا بصورة غير مباشرة ، بواسطة حرف أو فعل محذوف مقدر .

أما الحال ، فقد نصب بالفتحة ، إما لوقوع الفعل عليه ضمناً بصورة غير مباشرة : (سرت والنهر) ، أو للثبات والاستقرار : (هذا الهلال طالعاً يقشع الظلام)

وفي كل الأحوال فإن هذه الأسماء المنصوبة لاتدل معانيها على فعاليات كيما ترفع بالضمة ولا على الاحتواء ، أو الامتلاك ، أو على حالات ذاتية فتجر بالكسرة ، كما سيأتي وشيكاً .

2 / الضمة :

هي مخفف صوت (الواو) قد جعلت علامة الفاعل والمبتدأ للفعالية ، وعلامة الفعل المضارع للاستمرار ، إرثاً عن خصائص (الواو) ووظائفها . ولا متسع هنا للاستمرار في هذا المسار لتعليل رفع اسم كان وأخواتها أو نصب خبرها ، ولا العكس مع (أنّ) وأخواتها ، وما يعمل عملها . وما أحسب أن تعليل ذلك سيكون أعسر ولا أغرب مما أتى به فقهاء اللغة العربية حول الكثير من إشكالاتها .

3 / الكسرة :

هي مخفف صوت (الياء) . قد جعلت علامة المجرور بأحد حروف الجر ليتحمل اعتداء الفاعل بواسطته : (سار على الطريق) . كما جعلت علامة جر المضاف إليه : للامتلاك (كتاب المعلم) أو للنسبة (دمع العين) ، أو للاحتواء : (سمك البحر) ، وذلك إرثاً عن خصائص الياء ووظائفها في الاحتواء والامتلاك والنسبة . ولم يخرج الغلاييني عن ذلك في تحديد وظائف الاضافة .

ثالثا : حركات الشكل و (عين) الفعل الثلاثي :

إن أبرع استعمال لحركات (الضمة والكسرة والفتحة) يتجلى في تحريك (عين) الفعل الثلاثي . فقد

بلغ العربي في هذا المضمار شأواً بعيداً من زهافة الأحاسيس والمشاعر ، في ترف لغوي لا نظير له .

1 – قد وكل إلى (الضمة) في عين الفعل الثلاثي مخفف صوت (الواو) ووريثها مهمة التعبير عن الفعاليات المنبثقة من الذات ، كما في (أدُب ، شرُف) نبُه . رزُل ، خبُث) فكانت أفعالها لازمة إطلاقاً لاكتفائها الذاتي وعدم حاجتها إلى أي مفعول .

2 – ووكل إلى (الكسرة) مخفف صوت (الياء) ووريثها ، مهمة التعبير عن حالات وصفات ذاتية ، مما ينبغي معها أن تكون أفعالها لازمة لاكتفائها الذاتي ، كما في (أسِف . حزِن . حقِد . وجِل . درِد . سوِد .)

ولكن لوحظ أن قلة من الأفعال قد شذت عن هذه القاعدة وذلك لسببين اثنين :

ا – إما لأن معاني بعضها يدل على حركة باتجاه الذات ، كما في (لعِق ، لقِف . لغِف ، لهِم . عشِق)

وقريب من ذلك فعل (شكِل) لاتجاه هذه الفاجعة نحو ذات الوالدين حصراً .

ب – وإما لتصحيف في نقل حركة الشكل أثناء التدوين في بداية العصر الأموي ، كما في فعل (عدِم المال) ، مما لايدل على حالة ذاتية . فكانت الفتحة أولى به ، كما سيأتي :

3 – ووكل إلى الفتحة مخفف صوت (الألف اللينة) ووريثها ، مهمة التعبير عن الفعاليات المتجهة من الذات نحو الآخرين في الأفعال المتعدية . فحركة (الفتحة) في هذا الموقع إذا لفظت مفخمة ، كما كان العربي يفعل ذلك قبل المرحلة الشاعرية ، تمنح الأفعال مرتقى يساعدها على الاعتداء فيما إذا كانت مضامينها قابلة له ، كما في (أمَر . ضرَب . كسَر . دهَس ...) . أما إذا لم تكن قابلة للاعتداء فتظل لازمة كما في (أرَز . بقَع . بقَل . جنَح . حضَج . دجَن) .

وتأكيداً لهذا النهج ، فإن الفعل الثلاثي الواحد الذي حركت (عينه) بأكثر من حركة يلتزم معناه بما يتلاءم مع خصائص حركته ، كما في (أصل) .

فإذا حركت (عينه) بالفتحة كان متعدياً (أصَل الشيء) استأصله . وإذا حركت بالكسرة دل معناه على حالة ذاتية وكان لازماً (أصِل اللحم) فسَد . وإذا حركت بالضمة كان لازماً ويدل على فعالية منبعثة من الذات : (أصُل النسب) . شرُف . وكذلك الأمر في (لحم) بالفتح والكسر والضم : لحَم الشيء لأمه – ولحِم بالمكان نشب – ولحُم الرجل ، كثُر لحمه .

وكما في معاني الأفعال التالية بتحريك (عينها) بالفتح أولاً وبالكسر ثانياً : (أكَل الطعام ، مضغه ، وبلعه – أكِل الرجل ، أكل بعضه بعضاً – أشَر الخشب ، نشرها – أشِر ، مرح وبطر – لسَن فلاناً ، عابه – لسِن – فصُح – لعَسه – عضه – لعِست الشفة ، اسود باطنها – عَرق العظم ، أكل لحمه – عرق ، رشح جلده – لفت الشيء ، لواه – لفِت الرجل ، حمق – عفص يده ، لواها – عفِص الطعام كان فيه مرارة وتقبض) .

وهكذا نستطيع اليوم أن نصحح الكلمات التي أصابها التصحيف أثناء التشكيل في تحريك (عين) الفعل الثلاثي بالرجوع إلى هذا النهج ، كما في (عقم) .

فقد ورد في المعجم الوسيط (عقمت المرأة والرجل (بالفتح) ، كان بهما ما يحول دون النسل . ويقال ، عقم الله المرأة والرجل ، جعله عقيماً) . كما ورد فيه أيضاً : (عقمت المرأة والرجل (بالضم) ، عُقماً فهو عقيم وهي عقيم ...) .

وبالرجوع إلى القرآن الكريم ، لوحظ أن مشتقات هذا الفعل قد اقتصرت على المصدر (عقيم) في أربع آيات فقط .

وإذن لاحرج في أن نقول بأن الأصح أن تحرك عين (عقم) بالفتح للتعدية : (عَقَمه الله وعَقَمها) . وإن تحرك بالكسر لمعاني العقم الحسية والمجازية وليس بالضم . وذلك لان العقم عجز ذاتي وحالة ذاتية ، تتوافقان مع خصائص الحركة الايمائية في الكسرة إرثاً عن (الياء) الغابية كما أسلفنا . فالعقم ليس فعالية ذاتية كيما تحرك عينه بالضم . وهذه الظاهرة من التصحيف غير نادرة في اللغة العربية .

فباستعراض الأفعال الثلاثية التي تبدأ بالهمزة في المعجم الوسيط عثرنا على (155) فعلاً كان منها (7) أفعال حركت عينها بالفتح والكسر لذات المعاني ، وكانت لازمة جميعاً . وهي ((أبِقَ – ازِمَ – أسِنَ – أفِرَ – أفِقَ – أقِلَ – ألِبَ .)) .

ونرى أن مايدل معناه فيها على حالة ذاتية يكتفى بتحريك (عينه) بالكسر فقط وهي ((أسِن الماء ، فسد ، أفِر ، نشط – ألِبَ الجرح – برىء ظاهره دون باطنه فانتفض)) . وأن تحرك (عين) الباقي بالفتح فقط : ((أبَق – هرب – ازَم على الشيء ، عضه – أفَق ، ضرب في الآفاق – أفَل النجم ، غاب)) .

وكان ثمة فعل واحد حركت عينه بالحركات الثلاث ، هو (انس) لذات المعاني : ((أنِسَ به ، فرح – انس إليه ، سكن إليه وذهبت به وحشته)) .

ونرى أن يكتفى بتحريك (عينه بالكسر فقط ، لأن معانيه جميعاً تدل على حالات ذاتية وليس على فعاليات ذاتية .

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على / 188 / فعلاً ثلاثياً تبدأ بحرف (اللام) و (67) تبدأ بحرف (الثاء) و (210) تبدأ بحرف (العين) .

وبدراسة معاني هذه الأفعال على واقع حركة عينها ، حصلنا على نتائج مشابهة لما لحظناه مع حرف (الهمزة) ، مما يؤكد صحة ما أسندناه إلى حركات الشكل من الوظائف اللغوية . فما حركت (عينه) بالضم كان لازماً ويدل على فعاليات ذاتية . وما حركت (عينه) بالكسر كان معظمه لازماً ويدل على حالات ذاتية – أما المتعدي منها فكان معظمه يدل على حركة باتجاه الذات ، وقلة منه كان مصحفاً . وأما ما حركت (عينه) بالفتح فكان معظمه متعدياً .

ولقد ذكر الغلاييني في كتابه (جامع دروس اللغة العربية) ، خصائص الضمة والكسرة في (عين) الفعل الثلاثي ، بما يقارب ما عرضناه آنفاً . فمضموم (العين) كما لاحظ يدل على الغرائز والطبائع الثابتة وهو لازم إطلاقاً . أما مكسور العين فهو يدل على أمراض وعيوب وألوان مما يدخل في نطاق الحالات الذاتية) ومعظمها لازم .

ولكن الغلاييني لم يتعرض لحركة الفتح ، ولم ينتبه أيضاً إلى العلاقة بين خصائص الضمة والكسرة الموروثة عن خصائص (الواو والياء) ، وبين معاني الأفعال الثلاثية ، على وجه ما بيناه آنفا .

وهكذا استسلم الغلاييني للتراث سيراً على نهج من سبقه من علماء اللغة وأصحاب المعاجم في تحديد حركات (عين) الفعل الثلاثي ، دون أن يعير مسألة التصحيف فيها أي انتباه .

فبما أن الكتابة العربية لم تعرف الشكل حتى ما بعد جمع المصاحف في عهد الخليفة (عثمان) على يد الفراهيدي فإن شكل (عين) الفعل الثلاثي على السماع ، من المحتمل أن يكون قد تعرض بعضه إلى

التصحيف وإني لأتساءل :

أولا تستحق هذه الظاهرة اللغوية المزيد من اهتمام المجامع اللغوية وعنايتها ؟

وهكذا باعتماد الانسان العربي هذه الحركات المتأنية عن الحروف الجوفية الثلاث في ضبط التلفظ بأصوات حروف كلماته بمعرض تحديد صيغها ووظائفها ومعانيها ، تكون جذور هذه الحروف قد تغلغلت إلى كل شاردة وواردة في فصحانا العربية ، مما يمنح شخصياتها قوة فائقة وينهض بها إلى أرفع المقامات .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية

الحلقة السادسة :

أولا : حول أصول اللغة العربية وجدوى العودة إليها :

لقد اتبع العلماء الغربيون في تحرياتهم عن (أصول اللغة) نهجين اثنين متعاكسين أحدهما يهبط مما قبل التاريخ إلى علم اللغة ، والآخر يصعد من علم اللغة إلى ما قبل التاريخ ، وانتهت محاولاتهم جميعاً إلى نتائج لاأساس علمي لها . وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية أن تقرر في أول نظام لها عام 1866 عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة ، ولم يرفع هذا الحرمان . يقول العلامة توفار ((يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل)) ، كتاب تاريخ علم اللغة لمؤلفه جورج مونين (ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 16 – 17) . وذلك لأن اللغات واللهجات التي تناولوها في بحوثهم كانت إمّا بدائية غير نضيجة بلا أصول ، وإمّا حية متطورة قد انتقلت مراراً من شعب إلى شعب ومن بيئة إلى بيئة ، فضاعت أصولها منذ آلاف الأعوام . وهكذا خلص علماء اللغة الغربيون إلى رمزية الكلمة ، فقال (سوسير) ، أحد كبار مؤسسي علوم الألسنية الحديثة : ((أن الرموز الصوتية للكلمة لا معنى لها في حد ذاتها ، أي اعتباطية . والعلاقة بين الرموز والمعاني ، على الرغم من عشوائيتها هي اصطلاحية اتفاقية ، ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد)) . (المجلد / 19 / ج الأول لعام 1988 ص 33) من مجلة اللسان العربي .

ولقد اتبعت هذين النهجين معاً بمعرض البرهان على فطرية اللغة العربية في دراستي عن (الحرف العربي والشخصية العربية) ، فكانت نتائجهما الايجابية متكاملة ومتطابقة . وذلك لأن اللغة العربية ظلت أداة التواصل مع ذات الشعب الذي أبدعها ، في ذات البيئة التي نشأت في ربوعها ، تتفاعل معهما مرحلة حياة بعد مرحلة ، وألف عام بعد ألف إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، فحفظا لها أصولها من الضياع . وهكذا بقيت لنا هذه الأصول عالقة باللغة العربية ، لا بل بالحرف العربي بالذات حتى يومنا هذا .

ولكن ، لما كان الهبوط مما قبل التاريخ إلى الحروف العربية الراهنة يتطلب سرد المزيد من الأدلة

التاريخية والأثرية والنفسية والاجتماعية والمهنية والفنية وما إليها ، مما يبعدنا كثيراً عن موضوعنا اللغوي هذا ، فقد اخترت النهج الثاني .

فالصعود بالحروف العربية على مدارج من خصائصها الايمائية والتمثيلية والايحائية على واقع معانيها المعجمية إلى ما قبل التاريخ ، من شأنه أن يوصلنا إلى أصول نشأتها الأولى ، في المراحل الغابية والزراعية والرعوية .

وعلى الرغم من أن صحة نتائج الأدلة اللغوية تنسحب بالضرورة على كل ما عداه! من الأدلة ، إلا أنه من المفيد أن نسرد ما تحصل لنا من نتائج الأدلة الأخرى عند الاقتضاء ، كيما يكون القارىء أقدر على تمثل خصائص الحروف العربية واستيعاب معانيها .

فالرجوع إلى المرحلة التي أبدع فيها الانسان العربي كل حرف من حروفه ، من شأنه أن يساعدنا على استشفاف خصائصه البكر ، وبالتالي معناه الأصل الذي أبدع خصيصاً للتعبير عنه .

ولما كان معنى الكلمة العربية في ظل مقولة (فطرية اللغة العربية) هو بالضرورة محصلة معاني حروفها ، فإن العودة إلى أصول معاني الحروف العربية يمنحنا المزيد من المكاسب اللغوية والقومية والاجتماعية والانسانية ... منها :

1 – إلقاء أضواء جديدة على معاني الكلمة العربية ومشتقاتها ، فنميز بين معانيها الحقيقية والمجازية ، مما يساعدنا على سلامة استعمالها لمعان معاصرة لم ترد في تراثنا ، لا سيما العلمي منها .

2 – تحرير معاني الكلمة العربية من الشوائب المعجمية والتراثية التي قد تكون لحقت بها في الشروح والتفاسير .

3 – تصحيح حركة (عين) الفعل الثلاثي بما ينسجم مع معانيه كما أسلفنا في الحلقة السابقة .

4 – اكتشاف الأخطاء التي طرأت على بنية بعض الكلمات العربية بعد التدوين وقبل التنقيط بإسناد حرف معين لكلمة لا تتوافق خصائصه مع معانيها ، بدلا من الحرف الأصل الذي تتوافق خصائصه مع معانيها ، مما يشبهه قبل التنقيط . كما في حروف : (ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. س. ش ...).

5 – تحديد المخرج الصوتي لكل حرف عربي على المدرج الصوتي ، بأن يلفظ صوته بطريقة معينة من الشدة أو الرخاوة أو الفخامة أو الخنخنة وما إليها ، بما يكفل التوافق بين موحياته وبين معاني المصادر الذي يشارك في تراكيبها . وبذلك نستطيع اليوم أن نفصل في الخلاف بين العلماء حول مخارج العديد من أصوات الحروف كما في (ع. ج. ض. خ. ق. ك ...) فنلفظ أصوات حروفنا قريباً جداً مما كانت عليه في الجاهلية ، ونحفظ للسان العربي بذلك اصالة النطق به من الضياع في تيارات لاحصر لها من اللهجات الاقليمية والعامية جيلاً بعد جيل .

6 – تهديم جدران الرمزية والاصطلاحية الغربية التي حاصرت علوم اللغة العربية وكثيراً من دكاترتها .

7 – دعوة للألسنية الحديثة للافادة من هذه الظاهرة الأصيلة في اللغة العربية ، في انعطاف تصحيحي جديد لها .

وثمة مكاسب غيرها لا متسع لسردها ، كان من أهمها الكشف عن النزعة الفنية الأخلاقية في مقومات الشخصية العربية . نهج في دنيا الثقافة مستمد من نهجه في دنيا المجتمع .

ثانياً : حول مراحل إبداع الحروف العربية :

لقد تحدثنا في الحلقة السابقة عن إيمائية الحروف الغابية (الألف والواو والياء والهمزة المزمارية) ، وعن دلالاتها الحركية بما يكفل إقناع القارىء بصحة انتمائها إلى المرحلة الغابية . ولكن القارىء قد يتساءل : لماذا قسمنا الحروف الايمائية إلى غابية وزراعية ، فلا تكون غابية كلها أو زراعية كلها ، مادام الانسان العربي قد اعتمد طريقة التلفظ بأصواتها إيماء وتمثيلاً للتعبير بها عن حاجاته ؟. فأجيب :

إن الطابع الغالب على أصوات الحروف الغابية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، هو الهيجاني مصحوبة بحركات الرأس العفوية إلى (فوق – أمام – تحت) ، مما لا يتطلب اصدارها أي براعة أو ذكاء . أما أصول الحروف الزراعية فهي إيمائية تمثيلية إرادية يحتاج إصدارها إلى مزيد من البراعة والذكاء ، وذلك للتعبير بها عن حاجات حضارية منوعة تتجاوز متطلبات المرحلة الغابية المشردة والمستوى الفكري للانسان الغابي . فحرف (الفاء) مثلاً ، يحصل صوته بضرب الأسنان العليا على الشفة السفلى حبساً للنفس ، وبانفراجهما عن بعضهما عند خروجه . هذه الحركات تمثل إراديا حادثة الحفر بعظم أبيض على أرض طرية ، كما كانت المرأة العربية تفعل ذلك في بواكير المرحلة الزراعية .

وهكذا كانت البراعة والمستوى الفكري والحاجة هي الحدود الفاصلة بين الغابي والزراعي في الحروف العربية ، كما في أي ظاهرة حضارية أخرى . وقد يتساءل أيضاً :

بفرض أسبقية المرحلة الزراعية على المرحلة الرعوية ، خلافاً لما أجمع عليه معظم علماء التاريخ والآثار والاجتماع ، فكانت المرحلة الرعوية اللاحقة بذلك هي الأرقى حكماً . لماذا لا نسند إبداع الحروف الزراعية أيضاً إلى المرحلة الرعوية المتطورة التي امتدت منذ الألف (9) ق .م حتى العصر الجاهلي ؟. فأجيب :

إن المرحلة الرعوية المشردة هي من نتاج المرحلة الزراعية المستقرة . فالمؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) يؤكد في الجزء الأول من كتابه مختصر دراسة التاريخ مراراً : إن فن استئناس الحيوان هو أرقى من فن استئناس النبات ، وأنه من المحال على الانسان أن ينتقل مباشرة من المرحلة الغابية المشردة إلى المرحلة الرعوية المشردة ، قبل أن يمر بمرحلة زراعية مستقرة يستأنس فيها الحيوان والنبات .

ولقد مر الانسان العربي فعلاً بهذه المرحلة في الجزيرة العربية مع بوادر جفاف مابعد العصر الجليدي الأخير ، حوالي الألف (12) ق . م . فكان لزاماً على المرأة الأم زعيمة المرحلة الزراعية وربة الزراعة ، أن تضيف إلى الحروف الغابية حروفاً أخرى للتعبير بها إيماء وتمثيلاً عن حاجاتها ومعانيها الجديدة ، إرثاً في طريقة التواصل الايمائي عن المرحلة الغابية . وسنتحدث في الحلقة القادمة عن العلاقات الخفية بين المرأة العربية وهذه الحروف الايمائية التمثيلية .

ولكن عندما أخذت بوادر الجفاف تستحكم في ربوع الجزيرة العربية حوالي الألف (9) قبل الميلاد ، فقد اضطر الانسان العربي إلى ممارسة مهنة الرعي المشردة على يد الرجل القوي سعياً وراء الماء والكلأ . فكان من طبيعة الأمور أن يغتصب الرجل المحارب مالك القطيع من المرأة مختلف الزعامات الأسروية والاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغوية فيلحقها وأولادها به ، على نقيض ما كانت حاله معها في المرحلة الزراعية .

وبتطور حياة الانسان العربي من الزراعي إلى الرعوي ، كان لابد أن تتطور معها أيضاً وسائل التواصل بينه وبين أبناء جنسه .

فالحركات الايمائية والتمثيلية الموروثة عن عهدي الغاب والزراعة لم تعد تجدي الرجل نفعاً في تواصله مع أبناء جنسه عبر المسافات البعيدة نهاراً ، ولاعبر الظلام في سهراته الليلية وهو يحرس القطيع من اللصوص والوحوش المتربصة . تقليد رعوي في السهر وحكاياته ورواياته ظل سائدا في المنطقة العربية حتى القرن العشرين ب . م . فكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل ترسيخ القيم الجمالية والأخلاقية في التراث العربي .

وهكذا كان لابد للانسان العربي أن يهذب من الأصوات الموروثة ، وأن يبدع أصوات جديدة توحي بمعانيها في سمعه دونما حاجة إلى حركات جسمية مرئية ترافقها ، فتطورت عبر الزمن إلى أصوات حروف .

فكان لنا من المرحلة الرعوية طريقة راقية في التعبير عن معان مستجدة تعتمد صدى الأصوات في النفس ، تقتضي مزيداً من البراعة ورهافة الأحاسيس والمشاعر الانسانية . كما كان لنا منها أيضاً أصوات حروف تتجاوز وظائفها ومعانيها حاجات الانسان العربي ، ومستوياته الفكرية والنفسية والاجتماعية والمهنية مما كان عليه في المرحلتين الغابية والزراعية .

وهكذا بعد أن اهتدى الانسان العربي إلى هذه الطريقة الراقية في التعبير إيحاء بأصوات حروفه ، فلقد كان من المحال أن يعود القهقري ، فيلجأ إلى إبداع حروف تعتمد طريقة النطق بها إيماء وتمثيلا للتعبير عن معانيه .

وإذن باستحالة إبداع الحروف الايمائية التمثيلية في المرحلة الغابية لشدة تخلفها ، أو في المرحلة الرعوية لشدة تطورها ، فإن هذه الفئة من الحروف لابد أن تنتمي إلى مرحلة زراعية وسيط بين المرحلتين .

وهذا دليل لغوي قوي على توزع الحروف العربية إلى غابي وزراعي ورعوي يحتم مرور الانسان العربي بهذه المراحل الثلاث تباعاً .

الحروف الزراعية – خصائصها ودلالاتها – علاقة المرأة بها

الحلقة السابعة :

إن المرأة بحكم أمومتها الفطرية واضطلاعها بتربية الأطفال وتنشئتهم ، كانت على مر الزمن الأغزر عاطفة والأولع بفنون المداعبة والرقص والتمثيل .

كما أنها بحكم اضطلاعها بالشؤون المنزلية كانت الأبرع أيضاً في دنيا الصناعات اليدوية ومبتكراتها .

أمومة فطرية وتخصصات مهنية قد جعلا قسمات وجهها وأعضاءها الجسدية أكثر طواعية لارادتها .

وهكذا كانت المرأة الغابية في بواكير المرحلة الزراعية مؤهلة أكثر من الرجل الصياد لابداع الحركات الايمائية التمثيلية تعبيراً عن حاجاتها الحضارية المتسجدة ومعانيها المبتكرة . ولاشك في أن الكثير من تلك الحركات والأصوات المرافقة لها قد مات بفعل التطور فلم يبق منها إلا ما تحول إلى أصوات حروف . ولقد كان منها يقيناً أصول حروف (ف. ل. م. ث. ذ) واحتمالا حرفا (ش. خ) .

ولكننا حذر الاطالة سنقتصر هنا على ثلاثة منها : حرف (الفاء) للرابطة المهنية بينه وبين المرأة الزراعية ، وحرفا (الميم واللام) لكثرة دورانهما في حروف المعاني كما أسلفنا في الحلقة الثانية ، ولعلاقة معانيهما أيضاً بخصائص المرأة الفطرية ووظائفها المنزلية . فماذا عن هذه الحروف ؟ .

أولا : حرف الفاء :

1 – خصائصه ودلالاته:

بتأمل طريقة التلفظ بصوت هذا الحرف ، نجد أن الاسنان العليا هي التي تضرب على الشفة السفلى حبساً للنفس عند خروجه من جوف الصدر . ثم يبدأ صوته بشيء من – الخفيف عند احتكاك النفس بأطراف الاسنان العليا والشفة السفلى وبعثرته . وبانفراج الفكين عن بعضهما واسعاً ، يخرج صوته واضحاً مشبعاً .

وهكذا تتلخص الخصائص الايمائية التمثيلية لهذا الحرف ودلالاته في ثلاث :

أ – ضرب الاسنان العليا على الشفة السفلى ، يماثل ضربة عظم حيواني أبيض على أرض طرية مما يضاهي أحداث الحفر والقطع

والفصل في الطبيعة .

ب – بعثرة النفس مع بداية خروج صوته ، تضاهي أحداث البعثرة والتشتت في الطبيعة .

ج – انفراج الفكين عن بعضهما بعد خروج صوته يضاهي أحداث التوسع والانفراج والتباعد في الطبيعة .

2 – معانيه المعجمية :

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على (221) مصدراً جذراً تبدأ (بالفاء) كان منها (58) لمعاني الحفر والقطع والشق والفصل و (14) لمعاني البعثرة والتشتت والانتشار و (48) لمعاني التوسع والانفراج . وذلك بما يتوافق مع خصائصه الايمائية التمثيلية الثلاث عبر مراحل خروج صوته .

كما عثرنا على (21) مصدراً لمعاني الضعف والرقة والطراوة ، بما يتوافق مع صدى صوته الواهي في النفس لتتفوق بذلك خصائصه التمثيلية على الايحائية بستة أضعاف تقريباً ، مما يقطع بانتمائه إلى المرحلة الزراعية . تتمتع شخصيته بشيء من الشدة ، إذ بلغ تأثير خصائصه في معاني المصادر بنسبة (64،5) في المئة .

وما يثير الدهشة أننا لم نعثر على أي مصدر جذر يبدأ بالفاء مما يدل معناه على الالتصاق لتعارضه مع خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالاتها في الشق والفصل والتوسع .

3 – علاقته بالمرأة :

لما كانت المرأة هي صانعة المرحلة الزراعية كما أسلفنا ، تحفر الأرض الطرية بعظم حيواني أبيض ، فمن البداهة أن تعبر هي ابتداء وليس الرجل عن هذا الحادث المهني ، بالحركات الايمائية التمثيلية أصول حرف (الفاء) ، على وجه ما بينا آنفا .

ولقد أفاد الانسان العربي من طريقة التلفظ بصوته ، فأبدع المزيد من المصادر الجذور التي تبدأ به تعبيراً عن المعاني التي تتعلق بالحياة الزراعية مثال : (فأس الخشبة (شقها) ، فأى . فتق . فجر . فجو . أفرخت البيضة (انفلقت عن الفرخ) . فرخ . فسق كل ذي قشر (خرج عن قشرة) فسل . فصم . فصل . فصى . نظم . فطر ، فقح فغا . فقس . فقش . فقص . فق فلج . فلح . فلق ....) وما إليها من الأحداث التي تتعلق بشؤون النبات في المرحلة الزراعية .

أما المصادر التي تتعلق معانيها بالحياة الرعوية المشردة ، فقد اقتصرت على ستة ، هي (الفحل – القدام) . الفرأ (حمار الوحش) . الغلاة . (الفهد . الفيف) .

وهذه الظاهرة من التخصص الزراعي نلحظها في حرف (اللام) أيضاً . فلم نعثر إلا على مصدر واحد يبدأ به مما يتعلق معناه بالحياة البدوية هو : (لاه السراب) اضطرب وبرق .

وذلك على العكس حرف (العين) الرعوي فلقد كثرت المصادر التي تبدأ به مما يتعلق معناه بالحياة الرعوية من أسماء الابل والأسد والأصوات وما يوجد في البوادي من وحوش وحشرات ونبات ، وما إلى ذلك من معاني الشدة والصلابة والفعالية والفخامة التي تتصف بها الحياة البدوية . ولم نعثر فيها على أي مصدر يتعلق معناه صراحة بالحياة الزراعية .

ثانيا : حرف الميم :

1 – خصائصه ودلالاته :

يبدأ صوته بانطباق الشفتين على بعضهما البعض في ضمة متأنية حبساً للنفس .

وبانفراجهما يخرج النفس ويستكمل الصوت شروطه من الوضوح والأشباع . وبذلك تتلخص خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالالتها في ثلاث :

أ – انطباق الشفة على الشفة يضاهي الأحداث التي يتم فيها الضم والجمع والانغلاق .

ب – ضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة والتأني ، قبيل خروج صوته يضاهي الأحداث التي يتم فيها المص والرضاع بالشفتين .

ج – انفراج الشفتين عن بعضهما أثناء خروج صوته (ما) يضاهي الأحداث التي يتم فيها التوسع والامتداد .

2 – معانيه المعجمية :

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على (253) مصدراً جذراً تبدأ به . كان منها (33) لمعاني المص والرضاع والحلب واستخراج ما في الأشياء المجوفة ، (22) لمعاني الجمع والضم والكسب والغضم والمضغ و (24) لمعاني التوسع والامتداد والانفتاح . وذلك بما يتوافق مع الخصائص التمثيلية الثلاث التي ترافق مراحل خروج صوته . كما كان منها (45) مصدراً لمعاني المرونة والرقة بما يتوافق مع موحيات صوته ، مما يؤكد صحة انتمائه إلى المرحلة الزراعية وحروفها الايمائية .

شخصيته متوسطة الشدة ، إذ بلغ تأثير خصائصه في معاني المصادر (50%) فقط .

ومما يثير الدهشة ، أننا لم نعثر على أي مصدر منها يدل معناه على السد والانغلاق بينما كان هناك (15) مصدراً تنتهي بالميم لهذه المعاني . وذلك يعود إلى أن الشفتين والفكين يستقران في انطباقهما على بعضهما عند التلفظ بصوته في نهاية المصادر ، فلا تنفرجان ، على العكس من حالهما في المصادر التي تبدأ به .

وذلك على مثال ما نلحظ وجود (17) مصدراً جذراً تبدأ بحرف (الثاء) لمعاني الشق والانفراج والسيلان ، ولا شيء منها للمصادر التي تنتهي به . نهج أصيل قد استقر عليه الانسان العربي في تعامله مع حروفه . ومعانيها .؛

3 – علاقته بالمرأة الأم :

إن خاصية المص هي أبرز الخصائص الايمائية التمثيلية لهذا الحرف ولما كانت المرأة الأم هي المعنية أصلاً بإرضاع الطفل فمما لاشك فيه أنها هي وليس الرجل التي أبدعت أصول هذا الحرف ، بشد الشفة على الشفة في صوت (ما) المشددة ، للتعبير عن واقعة مص الطفل ثدي أمه . ثم تطور معنى (ما) إلى معنى الأم ، أمرضعاً كانت أم غير مرضع وفي مرحلة أمانة الحروف الجوفية ، طور العربي لفظة (ما) إلى (ام) ، بإبدال الهمزة الصامتة في أولها بالألف اللينة الصائتة في آخرها . ولفظة (ماما) في لهجاتنا العامية ما هي إلا الارومة التاريخية لكلمة (أم) المعاصرة .

ويبدو لي أن الشعوب الغربية قد اقتبست هذه الكلمة عن اللغة العربية . فلفظة (ماما) موجودة أيضاً في معظم لهجاتها المحلية . كما أن الكلمة التي تدل على معنى (الأم) في معظم لغاتهم تبدأ بحرف (الميم) من الألفاظ الدالة على رضاع الطفل ثدي أمه .

((مرثه . مرزه . ملجه . ملق الصبي أمه (رضعها) ...)).

ومنها ما يدل على رضاع الفصيل من الابل ضرع أمه .

(معجه – مغده – مقعه – مقمقة – مقاه مقوأ) .

ثالثا : حرف اللام :

1 – خصائصه ودلالاته :

يبدأ خروج صوته بانطباق طرف اللسان على سقف الحنك قريباً من اللثة العليا حبساً للنفس ، ويتم بانفصالهما عن بعضهما البعض . وبذلك تقتصر خصائصه التمثيلية على اثنتين فقط .

أ – التصاق طرف اللسان بسقف الحنك ، يضاهي الأحداث التي يتم فيها الالتصاق والتماسك .

ب – تلاعب طرف اللسان بصوت الحرف ، يضاهي تلاعبه باللقمة عند نصفها .

2 – معانيه المعجمية :

عثرنا في المعجم الوسيط على (212) مصدراً جذراً تبدأ بهذا الحرف . كان منها (82) لمعاني الالتصاق والتماسك ، و (53) لمعان تتعلق بعمليات التذوق والأكل واللحس والأطعمة ، وما إليها ، بما يتوافق مع خصائصه الايمائية التمثيلية عبر مرحلتي خروج صوته . وكان منها (5) مصادر فقط لمعاني المرونة والليونة والتماسك ، يتوافق مع إيحاءاته الصوتية مما يقطع بعراقته الايمائية .

تتمتع شخصيته بشيء من الفتوة ، إذ بلغت نسبة تأثير خصائصه في معاني المصادر التي تبدأ به (65%) .

وعلى الرغم من خاصية الالتصاق الرئيسية في حرف (اللام) فإن علماء اللغة العربية وفقهاءها قد حرموه منها ظلماً وتجنياً في حروف المعاني ، وأسندوها تحيزا ومحاباة إلى حرف (الباء) بلا سند فقهي مقبول . ولنا عودة إلى هذا الخطأ في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ومما يثير الدهشة أيضاً ، أننا لم نعثر على أي مصدر يبدأ به تدل معانيه على الانفراج أو الشق أو التوسع ، وذلك لتعارض هذه الأحداث مع خصائصه الايمائية التمثيلية ودلالاتها في الالتصاق ، على العكس مما لحظناه في حرف (الفاء) .

3 – علاقته بالمرأة الطاهية :

لما كانت شؤون التغذية أكثر التصاقاً بفطرة المرأة ووظائفها المنزلية ، فلقد كانت هي المندبة أصلاً للتعبير عن معانيها بحركة لسانية تضاهي حوادث الأكل واللوك واللحس وما إليها .

ولقد أفاد العربي عبر تطوره الحضاري واللغوي من خاصية تلاعب اللسان بصوت (اللام) على مثال تلاعبه باللقمة فأبدع المزيد من المصادر الجذور التي تتعلق معانيها بمؤسسة التغذية . منها :

(لحس – لسّ – لسد العسل ولحسه – لطع – لعص – لصق – لقم – لمج– تلمظ – لاس – لاك – لاق الطعام – اللسان – اللعاب – اللغمط – اللبن – اللغفة – اللحاك – اللوقة ...الخ .) .

ولئن كانت المصادر التي تدل معانيها على الالتصاق أكثر من المصادر التي تتعلق معانيها بشؤون التغذية ، إلا أن هذه الأخيرة هي الأصل الفطري في معاني (اللام) . فمعاني الالتصاق الحضارية قد تكون مصادرها جميعاً من مبدعات الرجل في المرحلة الرعوية ، أما معاني الأكل ومتعلقاته ، فهي ألصق

بفطرة المرأة . والفطري هو بداهة أعرق في القدم من الحضاري . وهكذا كانت المرأة أولى بحرف (اللام) من الرجل .

رابعا : ولكن ماذا عن بقية الحروف الايمائية التمثيلية :

حذر الاطالة سأقتصره على الحديث في لمح عن علاقة المرأة العربية بهذه الحروف في المرحلة الزراعية .

1 - حرفا (الذال والثاء) :

إن المرأة بحكم أمومتها الفطرية كانت هي المندبة أصلاً للتعبير إيماء عن جنسي الذكورة والأنوثة ، فأبدعت أصول هذين الحرفين . ثم تهذب النطق بهما في مرحلة رعوية لاحقة فصارا إلى (الذال والثاء) المعاصرين بلثغة لسانية ملحوظة تتوافر في صوت كل منهما خصائص الجنس الذي يمثله .

2 - حرف (الشين) :

وبحكم اضطلاع المرأة بالأمور المنزلية ، كانت هي المندبة لابداع أصول هذا الحرف إيماء بكشرة واسعة عن الأسنان مع مط الشفتين إلى الامام أثناء تدافع النفس وبعثرته ، وذلك للتعبير عن معاني التفاهة والخلط والبعثرة والتشتت والجمع العشوائي والانتشار ، وما إليها من متعلقات الأمور المنزلية ، مما نلحظه في معانيه (56) مصدراً تبدأ به و (85) مصدراً تنتهي به

3 - حرف (الخاء) :

ولما كانت المرأة في المرحلة الزراعية هي المعنية باستئناس الحيوان وتربيته فلقد كانت هي أيضاً المندبة للتعبير عن معاني القذارة التي تعترض حياتها اليومية . فأبدعت أصول هذا الحرف (ايماء) بكشرة موسعة و(إيحاء) بصوت ظاهر الخنخنة ، تعبيراً عفوياً عن الاشمئزاز والتقزز . ثم استثمر الانسان العربي هذه الخصائص في مراحل لغوية متطورة للتعبير عن معاني القذارة والفحش والأمراض والعيوب العقلية والنفسية والجسدية والاضطراب والتفاهة وما إليها في (146) مصدراً تبدأ به ، و (43) مصدراً تنتهي به و(28) مصدراً يتوسطها . فكان حرف (الخاء) بذلك حاوية القمامة في بنيان اللغة العربية الشاعري الأنيق لا يغير من مهمته هذه إن سقطت سهواً في هذه الحاوية بعض اللآلىء والدرر (خير - خصب - خضرة - خليل - خفر .) .

خامسا : القيمة العلمية للحروف الايمائية التمثيلية :

لما كنا لانزال نحيا لغوياً في العصر الجاهلي ، فإن الكشف عن الخصائص الايحائية للحروف العربية كما نوهنا في الحلقات السابقة ، لا يضيف أي عمق حضاري آخر إلى تراثنا اللغوي .

ولما كان علماء اللغة العربية وفقهاؤها القائلون بفطرة اللغة العربية قد بهرتهم هذه الظاهرة الايحائية في أصوات الحروف العربية ، فقد توقفوا مدهوشين عندها ، ولم يبحث أحد منهم بجدية عن الخصائص الايمائية التمثيلية في الحروف العربية . وفاتهم بذلك أن ينقبوا عميقاً عند جذورها الغابية والزراعية .

وهكذا فالاهتداء إلى الخصائص الايمائية التمثيلية لهذه المستحاثات من الحروف العربية ، يكشف لنا عن مراحل تطور اللغة العربية ، بدءاً من الغابي فالزراعي فالرعوي حتى العصور الجاهلية .

وهذا الاكتشاف لايقل أهمية في دنيا اللغات عالمياً عن اكتشاف إنسان (أوستراليا) وغيره من المستحاثات البشرية بمعرض البحث عن تطور الانسان على وجهي الأرض والتاريخ منذ ملايين الأعوام .

فماذا عن المرحلة الرعوية وحروفها ؟...

الترادف والمشترك اللفظي والتضاد
وأثر كل في نمو العربية

محمد السيد علي بلاسي

للألفاظ و المعاني علاقات وارتباطات ، فمن المعلوم أن اللفظين يختلفان لاختلاف المعنيين ، مثل : أكل وشرب . غير أنه في العربية تشيع دلالات أخرى لارتباط الألفاظ بمعانيها :

فقد يختلف اللفظان ويتفق المعنيان ، مثل : ذهب وانطلق ، وهو المعروف بالترادف .

كما يتفق اللفظان ويختلف المعنيان ، مثل : «العين» فإن لها معاني كثيرة منها : الباصرة ، والجاسوس ، وعين الماء ....، وهو الذي يعرف بالمشترك اللفظي .

فإذا كان اختلاف المعنيين هنا بالضدية عرف – لدى علماء اللغة – بالتضاد . مثل «الجون» يطلق للأبيض وللأسود . وتلك ميزة من ميزات لغتنا الخالدة ، وإليك البيان :

أولا : الترادف

يعرف علماء اللغة الترادف بأنه : دلالة لفظين أو أكثر على معنى واحد .

ومن أمثلته : (بر وقمح وحنطة) للحبة المعروفة .(1)

وهو – أي الترادف – من أهم ما تمتاز به العربية ، حيث جعلها من أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات . فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول ، ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها . هذا إلى أنه قد تجتمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها ، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال ... ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى ، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم . فقد جمع للأسد خمسمائة اسم ، وللثعبان مائتا اسم .(2) على أن بين علماء اللغة من قصر بحثه على أسماء تطلق على مسمّى معين وبلغ بها الألوف ، لا أقول المئات ، كما صنع مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس في كتابه : (الروض المسلوف ، فيما له اسمان إلى

ألوف) . ونحن بعد مثل هذا الكتاب سوف نستصغر ونستقل كل ما يشيع على ألسنة المتحذلقين من أن أحدهم جمع للأسد خمسمائة اسم ، وأن آخر جمع من أسماء الدواهي مايزيد على أربعمائة اسم ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي . بل ليس من الغريب – إذن – أن نجد باحثا كرينان Rénan في دراسته للغات السامية تأخذه الدهشة وهو ينقل عن الأستاذ دوهامر De Hammer أنه توصل إلى جمع أكثر من 5644 لفظا لشئون الجمل ، رفيق الأعرابي في الصحراء ومؤنسه في وحشته . ليس من الغريب هذا ، فإن دوهامر لم يقصر بحثه على أسماء الجمل ومرادفاته ، بل جمع كل ما يتعلق بشئونه ، وهو الكائن الحي الذي لا يستغنى عنه العربي لحظة في حياته .(3)

أسباب الترادف :

1 – أنه قد انتقل إلى اللغة العربية من أخواتها السامية وغيرها مفردات كثيرة ، كان لها نظائر في متنها الأصلي .(4)

2 – أن جامعي المعجمات ، لشدة حرصهم على تسجيل كل شيء ، دونوا كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلا بها مفردات أخرى ؛ فكثرت من جراء ذلك في المعجمات مفردات اللغة ومترادفاتها .(5)

3 – اختلاف اللغات واللهجات : فقد دخل اللغة العربية – بعد الاسلام – كثير من الكلمات الأجنبية ؛ إما للحاجة إليه في العلوم والفنون والحضارة ، أو للاعجاب به ، أو لسهولته ، وغير ذلك من الدواعي التي من أجلها انتقل إلى العربية كثير من الألفاظ الفارسية والرومية وغيرها .

ومن ذلك : النرجس ، والمسك ، مع وجود نظيريهما العربيين ، وهما : العبهر ، والمشموم ؛ ومن هنا ينشأ الترادف .

كذلك تلاقى اللهجات يجعل الألفاظ التي تستعملها تتلاقى ، وقد يكون بينها أكثر من لفظ يدل على معنى واحد ؛ فينشأ الترادف ، مثل : وثب بمعنى قعد عند حمير ، فهما مترادفان .

وهذا كثير في اللهجات العربية ، التي اجتمعت في لغة واحدة عند العرب جميعا(6) .

4 – تناسي الصفات والفروق : فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية . فالخطار والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر .(7)

5 – المجاز : فقد تستعمل بعض الألفاظ في معان مجازية ، فتتفق مع بعض الألفاظ في معانيها الحقيقية ، ثم ينسى المجاز ، حتى نظن أنها حقائق ، فتصبح تلك الألفاظ المترادفة ترادف . كإطلاق (اللسان) على اللغة ، و(العين) على الجاسوس ، فقد شاع ذلك حتى عد ترادفا بين اللسان واللغة ، والعين والجاسوس .(8)

6 – التغير الصوتي والقلب المكاني : للعوامل الصوتية أثر في اختلاف اللفظ وتحوله من حال إلى آخر ، بحيث يصبح نتيجة للتغير الصوتي لفظين بعد أن كان واحدا . ومن ذلك قولهم : بغداد وبغدان ، وقالوا أيضا : مغدان .

كذلك ما يكون عن طريق القلب المكاني للأصوات ، وحلول بعضها على بعض ، كما في جذب وجبذ .

ولكن بعض المحدثين لا يعترفون بذلك سببا

للترادف ، ويتمسكون بأن اختلاف الصورة بين تلك الألفاظ ، ليس إلا ظاهريا ، وأنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات . بيد أن الدكتور كمال بشر يرد على هؤلاء : بأنه قد يكون هذا صحيحا ، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الفروق الصوتية ، راجعة إلى اختلاف اللهجات .(9)

آراء العلماء في الترادف:

لقد انقسم علماء العربية إزاء الترادف ووقوعه في اللغة إلى فريقين : –

الفريق الأول : ويرى إنكار وجود الترادف في اللغة ، غير أنهم اختلفوا فيما بينهم – في طريقة الانكار ذاتها – إلى مذاهب ثلاثة: –

أ – ذهب بعض العلماء إلى إنكار الترادف في اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات ، كما في الانسان والبشر ؛ فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثاني باعتبار أنه بادي البشرة .(10)

وقد حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف . فقال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات ؛ وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة .(11)

مما سبق يتضح أن هذا الفريق يرى : أن المعنى المراد يؤديه لفظ واحد ، فلا حاجة إلى ألفاظ أخرى تتعدد ؛ لأن ذلك عبث ، لا يقع فيه الواضع الحكيم(12)

ويمكن أن نردّ على هذا الفريق دعواه : بان الترادف معلوم بالضرورة ؛ حيث ورد في القرآن الكريم ، إذ تفسر – مثلا – بعث وأرسل في قوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»(13) وقوله : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .(14) بأنهما من قبيل الترادف .

كما تجمع كتب الأدب على رواية قصة تعتبر حجة دامغة على صحة ما نميل إليه: فقد خرج رجل من بني كلاب أو من بني عامر بن صعصعة إلى ذي جَدَن من ملوك اليمن ، فاطلع إلى سطح والملك عليه ، فلما رآه الملك قال له : ثب ، يريد (اقعد) . فقال الرجل : ليعلم الملك أني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح ودقت عنقه . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب في كلام نزار الطَّمْر «أي الوثوب إلى أسفل» فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من دخل ظفار حَمَّر : (أي من دخل مدينتنا اليمنية «ظفار» فعليه أن يتكلم بلهجة حمير)(15) .

من هنا ، فلا سبيل – إذن – لصحة دعوى هذا الفريق .

ب – وذهب بعض العلماء منهم ابن فارس ، وابن درستويه ، وثعلب ، إلى إنكار الترادف بالمعنى الشائع ، من تساوي لفظين ، أو ألفاظ ، في معنى واحد ؛ لأن كلا من تلك الألفاظ يوجد فيه فرق معنوي لا يوجد في الأخرى .

يقول ابن فارس : يسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهند والحسام . والذي نقوله في هذا : أن الاسم واحد وهو «السيف» وما بعده من الألقاب صفات . ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى(16) .

وقد رد عليه : بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير

عبارته ، وذلك أنا نقول في «لا ريب فيه» : «لا شك فيه» فلو كان «الرَّيْب» غير «الشك» لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ ؟ !(17).

فأجاب عليهم بقوله : إنما عُبر عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول : إن اللفظتين مختلفتان ، فيلزمنا ما قالوه . وإنما نقول : إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى(18) .

كما رد على ابن فارس بورود الاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيدا ومبالغة ، كقول الحطيئة : ★وهند أتى من دونها النأى والبعد★ فالنأى هو البعد(19) .

فأجاب على ذلك : بأن هناك فروقا معنوية دقيقة بين هذه وتلك ، كما أن هناك فروقا بين كثير من مفردات الترادف ، ولكن تخفى عنا تلك الفروق . وضرب أمثلة لذلك ، من بينها : قعد وجلس . فإن في «قعد» معنى ليس في «جلس» ألا ترى أنا نقول : «قام ثم قعد» و «أخذه المقيم والمقعد» و «قعدت المرأة عن الحيض» . ونقول لناس من الخوارج : «قَعَدٌ» ثم نقول : «كان مضطجعا فجلس» فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن «الجَلْس : المرتفع» فالجلوس ارتفاع عما هو دونه . وعلى هذا يجرى الباب كله(20) .

هذا ، ولقد رد المثبتون للترادف على هذا الفريق دعواه بأمور: —

1 - إن بعض هؤلاء المنكرين للترادف كانوا من الأدباء النقاد الذين يستشفون في الكلمات أمورا سحرية ؛ مما حملهم لأن يشاهدوا فرقا فيها(21) .

2 - نحن نسلم بأن بعض الألفاظ ، لاتزال تحمل فروقا معنوية ، لكن القائلين بهذا الرأي بالغوا فيه ، لأنهم كانوا من الباحثين في الاشتقاق ، وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شبهة فضلا عن حجة — على حد تعبير السيوطي .(22).

3 - إن وجود مترادفات بينها فروق لا يؤدي إلى إنكار المترادفات كلها ، بل إلى إنكار طائفة منها فحسب ، على أن المشتقات التي اتضحت فيها تلك الفروق كالحسام والصارم ونحوهما ، قد كثر استعمالها مكان موصوفاتها ، حتى استغني بها عنها ، فجرت مجرى الجوامد ، في إهمال الفروق ، وعدم النظر إليها .(23).

ج — ويرى بعض الباحثين أن الترادف غير موجود في العربية ، وزعموا أنه لا يبعد أن يكون جامعو المعجمات قد خلقوا كثيرا من هذه المفردات ؛ خلقا لحاجات في نفوسهم .

وبنوا زعمهم على أن العربية الفصحى تختلف اختلافا كبيرا عن اللهجات العامية الحديثة المنشعبة عنها . فمتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي ، وتكاد تكون مجردة من المترادفات .

ولقد رد عليهم د . علي عبد الواحد وافي بقوله : وفساد هذا الرأي لا يحتاج إلى بيان ؛ فلهجات المحادثة في جميع الأمم تقتصر في العادة على الضروري وتنفر من الكمالي ، وتنأى عن مظاهر الترف في المترادفات وما إلى ذلك . ولذلك تتسع دائما هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى في هذه الناحية . فليست العربية فذة في هذا الباب ، بل تشترك معها فيه جميع «لغات الآداب» أو «اللغات الفصحى» . وإليك مثلا اللغة الفرنسية الفصحى أو لغة الكتابة ، واللغة الفرنسية في التخاطب العادي ، فالفرق بينهما في المفردات لايكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها .(24).

كما أجاب عليهم د . عبد الغفارحامد هلال بأن : رأيهم هذا فاسد؛ لأنه يتهم علماء اللغة ورواتها

بالاختلاف والكذب ، وهم من تلك التهمة براء؛ لأنهم قد جمعوا اللغة عن العرب الخلص ومن القرآن والحديث ، وقد كانوا على درجة من الورع تمنعهم من التورط في الكذب ، إلى جانب دقتهم الفائقة في الأخذ عن الأعراب . أما وقد أخذنا عن هؤلاء العلماء أمور اللغة كلها ، فكيف نقبل منهم بعضها ، ونتهمهم في الباقي ؟ !(25)

الفريق الثاني : ويرى ورود الترادف في العربية ، ويعد هذا ميزة من ميزاتها . ولقد تزعم هذا الفريق العلامة اللغوي ابن خالويه .

ويرى أصحاب هذا الرأي : أن الترادف يكون من واضعين ، وهو الأكثر ، بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد ،من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر . كما يكون الترادف من واضع واحد وهذا قليل .(26)

وإن خفاء الواضعين حين لم يمنع اشتهار الوضعين قد زاد من ثروة اللغة المثالية حتما ، فقد انتقل إلى هذه اللغة كثير من مفردات القبائل الأخرى ، وأصبحت في الحقيقة تمثل جزءا من صيغها وألفاظها ، وتنوسيت الفروق الدقيقة التي تميز لهجة من لهجة ، أو حفظ بعضها وأهمل البعض الآخر .(27)

ونحن نميل إلى هذا الفريق الذي يثبت ورود الترادف في اللغة ؛ فلا مفر من التصديق بوقوعه في العربية ؛ حيث ورود بعض ألفاظه في القرآن الكريم – كما بينا آنفا – كما أن هناك كما هائلا منه في المعجمات وغيرها من كتب اللغة ، فضلا عن أن أدلة منكرية لم تطاولها الأدلة – كما سبق بيانه – ..

فائدة الترادف وأثره في اللغة : –

• 1 – من المترادفات ألفاظ تبدو فيها خاصية لغوية رائعة ، هي إظهار ألوان المعاني وظلالها . وهذه الميزة تكاد تنفرد بها اللغة ، وتعدّمن خصائصها التي تتجلى في ألفاظ مترادفة – أحيانا – ويسميها الدكتور عثمان أمين : «خاصية التلوين الداخلي» الذي كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطياف والظلال ، صورا ذهنية متعددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة تحدد بها المعنى المقصود .

وتظهر تلك الميزة في كثير من الألفاظ الدالة على الشيء ،منظورا إليه في مختلف درجاته وأحواله ، ومتفاوت صوره وألوانه؛ فالظمأ ، والصدى ، والأوام ، والهيام ، كلمات تدل على العطش ، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته . فأنت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء ، ثم يشتد بك العطش فتظمأ ، ويشتد بك الظمأ فتصدى ، ويشتد بك الصدى فتئوم ، ويشتد بك الأوام فتهيم . وإذا قلت : إن فلانا عطشان ، فقد أردت أنه بحاجة إلى جرعات من الماء ، لا يضيره أن تبطيء عليه ، أما إذا قلت : إنه هائم، فقد علم السامع ، أن الظمأ أبرح به حتى كاد يقتله ... وهذا على حين أن الفرنسي لا يستطيع أن يؤدي هذا المعنى إلا في ثلاث كلمات إذ يقول : «مائت من الظمأ : Mourant de soif» ،أو في سبع كلمات؛ ليكون المعني أوضح فيقول : «على وشك أن يموت من الظمأ : Sur le point de mourir be soif» .

ففي كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة .(28)

2 – التوسع في سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة في النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية والتجنيس والترصيع ، وغير ذلك من

أصناف البديع ، ولا يتأتى ذلك باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ.(29)

3 - كثرة الوسائل إلى الاخبار عما في النفس ، فقد كان بعض الأذكياء في الزمن السالف ألثغ ، فلم يُحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء؛ حيث كان يتخلص من وروده في حديثه عن طريق الترادف.(30)

ثانيا : المشترك اللفظي

مادام فقهاءاللغة يقررون أن الكلمة يكون لها من المعاني بقدر ما لها من الاستعمالات ، فإن كثرة الاستعمال التي لوحظت في المترادفات ، هي تلك التي تلاحظ في الألفاظ المشتركة . فكما يتسع التعبير في العربية عن طريق الترادف ، لابد أن يتسع التعبير عن طريق الاشتراك ، سواء أسُلّم وروده في العربية على سبيل الحقيقة ، أم التمست له معان متطورة على سبيل المجاز .

ولعل تعريف أهل الأصول للمشترك هو أدق ما يحد به ، فهو عندهم : «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة» . وذلك كلفظ «الخال» الذي يطلق على أخي الأم ، وعلى الشامة في الوجه ، وعلى السحاب ، وعلى البعير الضخم ، وعلى الأكمة الصغيرة ...

ولسنا نزعم أن العربية تنفرد بالمشترك اللفظي ، ففي سائر اللغات ألفاظ مشتركة homonymes يدور النقاش حولها بين أصحاب الاشتراك ومنكريه ، كما يدور مثله بين أصحاب الترادف ومنكريه . بيد أن كثرة المشترك النسبية في لغتنا - كالذي رأيناه من كثرة الترادف فيها نسبيا - هي التي تجعل المشترك خصيصة لاتنكر من خصائصها الذاتية.(31)

أسباب المشترك اللفظي : -

نشأ الاشتراك بمعناه الصحيح في اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها : -

1 - اختلاف اللهجات العربية القديمة : فبعض أمثلة المشترك جاءها الاشتراك من اختلاف القبائل العربية في استعمالها ، ثم جاء جامعو المعجمات فضموا هذه المعاني بعضها إلى بعض بدون أن يعنوا في كثير من الأحوال برجع كل معنى إلى القبيلة التي كانت تستخدمه . وبعض أمثلته كانت تختلف معانيه لذلك في الأصل باختلاف القبائل ، ولكن معانيه المختلفة قد انتقلت فيما بعد إلى لغة قريش ؛ فأصبح يطلق فيها على جميع هذه المعاني.(32)

2 - تداخل اللغات : فاللغة قد تستمد ألفاظا من لغات أجنبية عنها ، وذلك قد يسبب بجانب ألفاظ أخرى فيها - قد تتحد معها في الصيغة - وجود الاشتراك .

فمثال ذلك في العربية مادة (برج) ، وقد استعير (البرج) بمعنى الحصن من اليونانية ، فإذا اشتقت كلمة من المادة العربية ، توافق الكلمة المنقولة من اليونانية في الصيغة ، وتختلف عنها في المعنى ؛ نشأ الاشتراك.(33)

3 - التطور الصوتي : فقد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغير أو الحذف أو الزيادة وفقا لقوانين التطور الصوتي ، فيصبح هذا اللفظ متحدا مع لفظ آخر يختلف عنه في مدلوله.(34)

ومن ذلك في اللهجات الحديثة (حضر) - من الحضور بمعنى المجيء - بنطق الضاد ظاء عند أهل اليمن ونجد ، وحظر - من الحظر وهو بمعنى المنع -، فقد تطور صوت الضاد العربي المعروف إلى صوت الظاء عندهم ، فاتفق اللفظ الأول مع الثاني في الصورة الصوتية التي أصبح لها معنيان : «المجيء» و «المنع» ويفهم المراد منها بالسياق.(35)

4 – حدوث الاشتراك من الواضع : ويحدث هذا عند قصد المتكلم التعمية والابهام على السامع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة ، وذلك كما روي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وقد سأله رجل عن النبي – ﷺ – وقت ذهابهما إلى الغار : مَنْ هذا ؟ قال : هذا رجل يهديني السبيل .(36)

فاستخدم لفظ «السبيل» هنا في معنى آخر له بمعنى الطريق على سبيل الاشتراك ؛ قصدا للتعمية والابهام على السامع !

5 – التطور المعنوي : فإذا تطور معنى اللفظ ، وبقيت أصواته دون تغير أدى ذلك إلى حدوث الاشتراك .

فقد يكون للفظ معنى واحد في اللهجات العربية ، ثم يحدث أن يتغير معناه في بعض اللهجات ويبقى المعنى الأصلي في بعضها الآخر ؛ فيصبح لذلك اللفظ معنيان ؛ فينشأ الاشتراك .

وقد مثل بعض الباحثين لذلك بكلمة «الهجرس» فهي تعني «القرد» في لهجة الحجاز ، وتعبر عن «الثعلب» عند تميم ، على أساس أنها كانت في الأصل – تدل عند الفريقين على أحد الحيوانين ، ثم تغير هذا المعنى عند إحدى القبائل لظرف من الظروف اللغوية .(37)

هذا ، وقد يصادف حدوث الاشتراك في اللفظ ، وهو بعيد كل البعد عن المشترك اللفظي ، وإن اتحد معه في الصورة ، ويظهر ذلك جليا في حالتين : –

1 – المجاز : فهناك ألفاظ نقلت عن معناها الأصلي إلى معان مجازية أخرى لعلاقة ما ، فشاركتها في اللفظ ؛ فاعتبرت لذلك من المشترك وهي ليست منه في شيء . وإليك مثلا لفظ «الهلال» ، الذي يطلق على هلال السماء ، وهلال الصيد ، وهلال النعل ... فمن الواضح أنه قد وضع في الأصل للدلالة على المعنى الأول ، وأن إطلاقه على ما عداه من المعاني السابق ذكرها من قبيل المجاز ، لوضوح علاقة المشابهة بينها وبين هلال السماء في صورته وضآلته . وكل ما هنالك أنه قد كثر استخدامه في هذه المعاني ، فلم يلاحظ فيها وجه المجاز وأصبح إطلاقه عليها في قوة استخدام الشيء في حقيقته .(38)

2 – التصريف : فهناك ألفاظ جاءها الاشتراك من عوارض تصريفية . وذلك كأن تؤدى القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة واحدة ، فينشأ عن ذلك تعدد في معنى هذه الصيغة يؤدى إلى جعلها من قبيل المشترك وهي ليست منه إلا في الظاهر . وإليك مثلا لفظ «الغروب» : فإنه يجيء مصدرا لغربت الشمس مثلا ، وجمعا للغرب وهو الدلو العظيمة .(39)

وهكذا يمكن تأويل جميع أمثلة هاتين الحالتين على وجه آخر يخرجهما من باب الاشتراك ...

آراء العلماء في المشترك اللفظي : –

اختلف العلماء حول وقوع المشترك اللفظي في اللغة إلى فرق ثلاثة : –

الفريق الأول : ويتزعمه ابن درستويه ، ويرى عدم وجود الاشتراك في اللغة ، وفي ذلك يقول : «وإنما اللغة موضوعة للابانة عن المعاني ، فلو جاز لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد للآخر لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية .»(40)

وهذا الرأي معيب ، ويمكن أن نرد عليه : بأن السياق هو الذي يعين أحد المعاني المشتركة للفظ الواحد ، وهذا السياق لايقوم على كلمة تنفرد

وحدها في الذهن ، وإنما يقوم على تركيب يوجد الارتباط بين أجزاء الجملة ؛ فيخلع على اللفظ المعنى المناسب .[41]

الفريق الثاني : ويرى كثرة ورود الاشتراك في اللغة وضرب له عددا كبيرا من الامثلة . ومن هؤلاء الأصمعي والخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وابن فارس وابن مسعدة والثعالبي والمبرد والسيوطي . ولكنهم اختلفوا فيما بينهم على صفة وقوع الأشتراك في اللغة كما يلي : –

أ – فالأكثرون على أن الاشتراك واقع في اللغة ؛ بدليل نقل أهل اللغة لكثير من ألفاظه في كتبهم ومعاجمهم .

ب – من العلماء من أوجب وقوعه ؛ وتمسك بأن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية ، فإذا وزع لزم الاشتراك .

ج – وذهب بعضهم إلى أن الحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة ، والأفعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء ، والمضارع كذلك ، وهو أيضا مشترك بين الحال والاستقبال ، والأسماء كثير فيها الاشتراك ، فإذا ضممناها إلى قسمي الحروف والأفعال كان الاشتراك أغلب . ورُدَّ بأن أغلب الألفاظ الأسماء ، والاشتراك فيها قليل بالاستقراء ، ولا خلاف أن الاشتراك على خلاف الأصل .[42]

الفريق الثالث : وقد وقف موقفا وسطا بين الفريقين السابقين ، وهو الأقرب إلى الصواب ؛ فقد نظر إلى الموضوع نظرة معتدلة ، لا يغالي فيها في إنكار الاشتراك مغالاة ابن درستويه ، ولا يبالغ في جميع صوره مبالغةالفريق الثاني . وقد تزعم هذا المذهب أبو علي الفارسي، حيث يقول : «اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألا يكون قصدا في الوضع ولا أصلا ولكنه من لغات تداخلت ، أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتصير بمنزلة الأصل .»[43] وهذا كما وضحناه – آنفا – عند الحديث عن أسباب وقوع المشترك اللفظي في اللغة .

فائدة المشترك اللفظي وأثره في اللغة : –

1 – إن في المشترك لتنوعا في المعاني بسبب تنوع الاستعمال ، وإن في اشتمال العربية على قدر لا يستهان به من الألفاظ التي تنوع استعمالها بتنوع السياق ، لدليلا على سعتها في التعبير عن طريق الاشتراك كسعتها فيه عن طريق الترادف .[44]

2 – إن تعدد المعاني للفظ الواحد يفتح مجالات متعددة أمام الناطقين باللغة ؛ ليعبروا عما يحتاجون إليه ، بألفاظ مرنة ، تطاوعهم على ما يشاءون ، وتجرى حسب ما يريدون ؛ ولاشك أن لذلك أثرا كبيرا في ثراء اللغة ونموها ، بحيث يستفيد منه – بخاصة – الأدباء والشعراء ، وأرباب البيان .[45]

3 – الألفاظ في اللغة متناهية ، والمعاني غير ذلك ، فإذا أردنا تناسبا بينهما ؛ لزم الاشتراك ...[46]

ثالثا : التضاد

وهو أن يطلق اللفظ على المعنى وضده . كلفظ «الجون» الذي يطلق على الأبيض والأسود ، و«الجلل» المستعمل في العظيم والهين .

وقد عده العلماء نوعا من المشترك ؛ لدلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى ؛ ولذلك قالوا : المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين . فما يقع على الضدين كالجون وجلل ، وما يقع على غير ضدين كالعين . وإذا جاز وقوع اللفظة الواحدة للشيء وخلافه ، جاز وقوعها للشيء وضده ؛ إذ الضد ضرب من الخلاف ، وإن لم يكن كل خلاف ضدا .[47] وقد صرح السيوطي

حين افتتح في المزهر باب «معرفة الأضداد» بقوله : «هو نوع من المشترك»[48] ، ووافقه على ذلك بعض العلماء المحدثين ، من أمثال : الدكتور الصالح[49] ، والدكتور وافي[50] ، والأستاذ العلايلي .[51]

أسباب وقوع التضاد في اللغة : –

وقد نشأ التضاد بمعناه الصحيح في اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها : –

1 – اختلاف اللهجات العربية : يقول ابن الأنباري : «إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي أوقعه بمساواة بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب والمعنى الآخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء ، قالو : فالجون : الأبيض – في لغة حي من العرب – والجون : الأسود – في لغة حي آخر – ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر» .[52]

2 – التطور الصوتي : قد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقا لقوانين التطور الصوتي ، فيصبح متحدا مع لفظ آخر يدل على ما يقابل معناه ، فينشأ بذلك التضاد .[53]

3 – رجوع الكلمة إلى أصلين : فتكون دلالتها على أحد الضدين منحدرة من أصل ، وفي دلالتها على مقابله منحدرة من أصل آخر . وفي هذه الحالة نكون بصدد كلمتين لاكلمة واحدة . ويرجع هذا التأويل أو يحتمل الصدق في طائفة كبيرة من الأضداد . فمن ذلك مثلا «هجد» بمعنى نام وسهر : فمن المحتمل أن تكون في معنى النوم منحدرة من هدأ إذا سكن ، وفي معنى السهر من جد إذا جهد، لما في السهر من الاجتهاد في منع النوم .

وقد حاول الأب مرمرجي الدومنكي أن يرجع إلى هذا العامل عددا كبيرا من الأضداد ، وهو يبحث عن الأصول الثنائية للكلمات ، لأنه يرى أن الأصول الأولى للكلمات العربية ثنائية لا ثلاثية ...[54]

هذا ، وكما رأينا – في بحث المشترك اللفظي – أن بعض المصادفات المحضة قد تغير معنى لفظ ما وتستعمله في غير المراد الأصلي البدائي ، نرى كذلك في بحث التضاد (باعتباره ضربا من المشترك) صورا من هذه المصادفات تكون بعض الأضداد ،[55] من ذلك :

1 – التفاؤل : ففي بعض الأمثلة استعمل اللفظ في ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل ، كتعبيرك عن الأعمى بالبصير . ونحسب أن أبا حاتم السجستاني في كتابه عن (الأضداد) لم يكن يقصد غير هذا حين قال : «إنما قيل للعطشان ناهل على سبيل التفاؤل ، كما يقال : المفازة للمهلكة على التفاؤل ، ويقال للملدوغ سليم ، أي سيسلم» .[56]

2 – التهكم والتعريض ، أو اتقاء التلفظ بما يكره التلفظ به : وذلك كإطلاق لفظ العاقل على المعتوه أو الأحمق ، والخفيف على الثقيل ، والأبيض على الأسود .[57]

3 – المجاز : فنقل اللفظ من معناه الأصلي إلى غيره قد يؤدي إلى التضاد ، مثل (الكأس) يطلق على الظرف والمظروف . وهذا حين ينسى المجاز فيصبح المعنى المجازي كالحقيقي .[58]

4 – المشترك المعنويّ : وقد يجيء التضاد في الظاهر من دلالة الكلمة في أصل وضعها على معنى عام ، يشترك فيه الضدان ، فتصلح كل منهما لذلك المعنى الجامع ، وقد يغفل بعض الناس عن ذلك المعنى الجامع فيظن الكلمة من قبيل التضاد .ومثال ذلك : «القرء» في إطلاقه على الحيض والطهر؛ لأن

معناه في الأصل الوقت المعتاد؛ ومن ثم يستعمل في الحيض والطهر لأن كليهما وقت معتاد للمرأة .(59)

5 - التصريف : وقد تأتي بعض الأضداد من عوارض تصريفية . وذلك بأن تؤدى القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس في معنى الصيغة المشتركة يؤدي إلى عدها من باب الأضداد وهي ليست منه في شيء . من ذلك اسما الفاعل والمفعول في (افتعل) مما عينه معتلة أو ما فيه تضعيف ، فالفعل (اختار) معتل ، واسم الفاعل والمفعول منه (مختار) نقول : العبد مختار في أفعاله ، والنبي مختار لهداية الأمة ، فهما متفقان لفظا ، مختلفان تقديرا ، فأصل اسم الفاعل (مختِيِر) بكسر الياء ، وأصل اسم المفعول (مختَيَر) بفتحها .(60)

آراءالعلماء في التضاد : -

اختلف علماء اللغة بصدد وروده في اللغة إلى فريقين : -

الفريق الأول : ويرى عدم وجود التضاد في اللغة ، وعملوا على تأويل أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب . ومن هؤلاء - بل وعلى رأسهم - ابن درستويه .

وصحة هذا الفريق أن اللغة موضوعة للابانة عن المعاني ، واللفظة الواحدة إذا اعتورها معنيان لم يعرف المخاطَب أيهما أراد المخاطِب ، وفي ذلك إبهام وتعمية(61) .

وهذا الرأي مردود عليه ، لأن السياق كفيل ببيان المعنى المراد .

الفريق الثاني : ويرى كثرة ورود الترادف في اللغة ، وضرب له كما هائلا من الأمثلة . ومن هؤلاء : ابن الأنباري والخليل وسيبويه وابن فارس وابن دريد والسيوطي وابن السكيت . غير أنهم اختلفوا فيما بينهم - في طريقة الورود ذاتها - إلى ثلاثة مذاهب :

أ - ذهب فريق إلى أن التضاد موجود في اللغة ، سواء كان من واضع واحد ، أم أكثر ، مع ملاحظة أن اللفظ موضوع في الأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل المعنى الآخر ، على وجه الاتساع ، وهذا مبني على رجوع المعنيين الضدين لأصل اشتقاقي واحد . فمن ذلك «الصريم» لليل والنهار؛ لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع .(62)

ب - وذهب ابن دريد إلى أن التضاد موجود ، بشرط أن يكون من واضع واحد ، وأن يكون استعمال اللفظ في المعنيين في لهجة واحدة .(63)

ج - وذهب بعض العلماء إلى أن التضاد واقع من أكثر من واضع واحد ، وهـذا كما بيناه - آنفا - عند الحديث عن اختلاف اللهجات في أسباب وقوع التضاد في العربية .

والحق أن الرأي الأكثر إنصافا ، والجدير بالاعتبار ، هو الرأي بثبوت التضاد في اللغة ، لكنه ليس كثيرا بالصورة التي ذهب إليها هؤلاء ، وهو أقل من المشترك ورودا في اللغة .(64)

فائدة التضاد وأثره اللغوي : -

مما لاشك فيه أن للتضاد أثرا كبيرا في نمو اللغة ، فهو وسيلة من وسائل التنوع في الألفاظ والأساليب ، مما وسع من دائرة التعبير في العربية؛ فكان بهذا المعنى خصيصة من خصائص لغتنا في مرانتها وطواعيتها في التنقل بين السلب والايجاب ، والتعكيس والتنظير ، وهو ما ليس له في اللغات الحية نظير ...(65)

قضية الفصاحة(*)
في القاموس العربي التاريخي

د . عبد العلي الودغيري
كلية الآداب - الرباط

- 1 -

البحث في قضية «الفصاحة» في القاموس(1) العربي التاريخي ، هو في الواقع بحث في صميم مدونة هذا القاموس ومادته اللغوية ، وفي كيفية تحديد مصادر هذه المادة ومنابع جمعها واستقائها ، ورسم إطارها الزماني والمكاني ، وحجمها ومستويات استخدامها .

ومعرفةُ طبيعة المادة اللغوية لهذا القاموس مسألةٌ أساسية جدا وضرورية جدا ، ولكنها متوقفة على معرفة المنهج الذي سوف يُتبع في تأليفه ، والتصور الذي يضعه له أصحابه بحسب الأهداف والغايات المتوخاة منه . وبصفة محددة ودقيقة ، لابد لمعرفة طبيعة المادة اللغوية التي سيحتويها هذا القاموس أن نعلم **أولا** : هل من أهدافه أن يكون شاملا يؤرخ لسائر الألفاظ العربية ، وكل استعمالاتها ومستويات استخدامها ، بغض النظر عن كونها فصيحة (أي من اللغة المشتركة) أو غير فصيحة (أي من العاميات واللهجات) ، أم سيكون الهدف هو الاقتصار على مستوى العربية الفصحى (المشتركة) دون غيرها من اللهجات والعاميات والاستعمالات المحلية التي لم يشترك فيها كل العرب ؟

وأن نعلم **ثانيا** : هل سيؤرخ للعربية في كل أطوار حياتها : قديمها وحديثها ، أم سيقتصر على القديم وحده كما فعل (أ . فيشر) في قاموسه ؟

ولنفترض الآن أن الاختيار وقع على حصر الهدف المتوخَّى في كتابة تاريخ العربية الفصحى (أو المشتركة) دون اللهجات والعاميات لأسباب يمكن إجمالها في :

1- أن العربية الفصحى (أي المشتركة) هي اللغة

(*) بحث قدم للندوة العلمية التي نظمتها جمعية (المعجمية العربية بتونس) أيام 14 - 15 - 16 - 17 نونبر 1989 بالعاصمة التونسية في موضوع : (المعجم العربي التاريخي : قضاياه و وسائل إنجازه).

التي كانت وما تزال وستظل تقوم بدور التواصل والتفاهم الكاملين بين سائر أبناء العروبة والاسلام ، وهي إلى ذلك عنصر توحيد ديني وثقافي وقومي . وأما اللهجات والاستعمالات المحلية فلم تستطع ولا تستطيع في يوم من الأيام أن تقوم بهذا الدور ، بل هي عامل تجزئة وتفرقة أكثر منها عامل توحيد ، وعامل انقطاع وتباعد أكثر منها عامل تقارب وتفاهم وتواصل .

2- قلة المعلومات التي تصلح لوصف اللهجات العربية في عصورها الماضية وكتابة تاريخها بشكل علمي . فالعرب اشتغلوا بالتأليف في الفصحى ، ووجهوا عنايتهم للاهتمام بها والمحافظة عليها ، وأهملوا اللهجات لأسباب كثيرة ، ولم يتحدثوا عنها إلا عَرَضا وفي شكل استطرادات خلال كتاباتهم الفصيحة . والنّزر القليل من المعلومات التي نتوفر عليها ، من الصعب جمعه في زمن يسير ، لأنه موزع على طائفة كبيرة جدا من المظان ، دفينٌ بين طياتها ، وليس كل هذه المظان مطبوعا ولا ميسورا لطلبه(2) .

3- تعدد هذه اللهجات في القديم والحديث ، وسرعة تكاثرها وتوالدها . فداخل الجزيرة العربية المحدودة المساحة كانت هناك لهجات تعددت بتعدد القبائل . ولما جاء الاسلام وخرج العرب من الجزيرة وانتشروا في سائر أنحاء المعمور ، انتقل معهم هذا التعدد وازداد مع توالي القرون تفاحشا وتفاقما ، وأصبحنا نجد داخل الاقليم الواحد من أقاليم البلاد العربية وأقطارها عددا كبيرا من اللهجات التي تحتاج كل واحدة منها إلى تاريخ خاص .

فإذا مال بنا التفكير اليوم إلى وضع قاموس يجمع في وقت واحد بين التاريخ للفصحى والتأريخ للهجات والعاميات ، وجب استحضار كل هذه الصعوبات والعراقيل التي يمكن أن تثبط العزائم ، وقد تصرف النظر عن المشروع - الذي نجتمع من أجله - نهائيا أو تؤجله إلى أجل غير مسمى .

على أنه بالامكان أن نفصل بين الأمرين ، فنضع مشروعين اثنين : أحدهما لتأريخ العربية الفصيحة (أي المشتركة) وثانيهما لتأريخ اللهجات والعاميات ، وتكون الأسبقية في هذه المرحلة الأولى لانجاز المشروع الأول ، وأما الثاني فيؤجل إلى حين استكمال المعلومات والتوفر على الوسائل والوثائق الكافية ، هذا مع العلم أن اللهجات والعاميات في حد ذاتها يمكن أن تكون لها تواريخ متعددة لا تاريخ واحد . فكل لهجة على حدة تستحق أن تكون موضوع تاريخ خاص ومستقل - كما سبق - كما أنه بالامكان أن تخصص اللهجات القديمة وحدها بتاريخ ، وكذلك وعلى غرارها اللهجات الحديثة .

ثم إن التفكير في الاقتصار - ولو مرحليا - على التأريخ للعربية الفصيحة المشتركة ، لا يعني التفكير في الاستغناء عن دراسة اللهجات والرجوع إلى النصوص والوثائق الخاصة بها ، بل على العكس من ذلك سوف تقدم لنا دراسة اللهجات بالطريقة العلمية المطلوبة والموضوعية في التأريخ للألفاظ الفصيحة لا يمكن تجاهلها أو الاستهانة بها ، ولا سيما إذا عرفنا حقيقة أساسية وهي أن أغلب الألفاظ والاستعمالات الفصيحة ، كانت قبل تُفَصَّح وتصبح لغة مشتركة ، عبارة عن لهجة محلية أو استعمال خاص ، ومعنى ذلك أن الذي يريد أن يؤرخ لألفاظ العربية الفصيحة سيكون مضطرا إلى إرجاع أغلبها إلى أصولها اللهجية واستعمالاتها الخاصة . ثم إن هناك ألفاظا عربية كثيرة عَرَفت خلال تاريخ تطورها حركة من المد والجزر ، فانتقلت من

الاستعمال المحلي واللهجي إلى الاستعمال الفصيح المشترك ، ثم ما لبثت أن عادت بها دورة الحياة إلى نقطة البداية وهي الاستعمال اللهجي ، وربما أدت بها إلى الانكماش والتقلص شيئا فشيئا حتى وصلت إلى نقطة الموت والاهمال التام . فيكون المؤرخ اللغوي مضطرا في مثل هذه الحالة إلى تتبع مراحل الكلمة الثلاث : النشأة ، فالتوسع ، فالتقلص ، أي مضطرا بالاضافة إلى البحث عن اللهجة العربية القديمة التي انطلقت منها الكلمة قبل أن تُفَصَّح ، لأن يتتبع حركة تطورها حتى يعرف اللهجة الحديثة التي استقرت فيها في مرحلة التقلص والانكماش ، أو حتى يعثر على المقبرة التي دُفنت فيها الكلمة بصفة نهائية ، وهذا كله يعني شيئا واحدا وهو أن دراسة الوثائق والنصوص الخاصة باللهجات العربية مفيد جدا في التأريخ للفصحى .

— 2 —

فإذا أصبح هذا الافتراض الآن مقبولا ، وهو أن الهدف قد تحدد في الاقتصار على التأريخ للفصحى ، وجب بعد ذلك أن نعلم ماهو المفهوم الذي نريد أن نعطيه لكلمة (فصحى) ونحن نضع تصورنا لهذا القاموس ؟ وتحديد هذا المفهوم ضروري لأنه يتوقف عليه تحديد نوع المادة اللغوية التي سوف يشتمل عليها قاموسنا التاريخي .

وفي نظرة إجمالية مختصرة يتبين للدارس أن هناك مفهومين للفصحى لابد من اتخاذ موقف واضح إزاءهما ومعرفة أيهما يلزم الأخذ به والاعتماد عليه . وأولهما قديم والثاني حديث .

أما المفهوم القديم ، فنقصد به مفهوم (الفصحى) أو (الفصاحة) عند المعجميين والقاموسيين وحدهم ، لا عند سواهم من أصحاب البلاغة والنحو الذين هم بدورهم قد استخدموا هذا المصطلح ، ولكن بمعايير قد تختلف كثيرا أو قليلا عن معايير وشروط المعجميين والقاموسيين .

فإذا كان البلاغيون مثلا لا يعتبرون من الكلام فصيحا إلا ما تحققت فيه عناصر فنية وجمالية معينة ، فأصبح بذلك يمثل مستوى استخداميا عاليا ينحصر وجوده – أو يكاد – في استعمالات كبار الشعراء والأدباء والكتاب ، فإن المعجميين ومؤلفي القواميس على الخصوص لم يتقيدوا بهذا الشرط ، إذ الفصحى عندهم لاتعدو أن تكون هي اللغة التي استعملها أصحابها الاصليون (أي العرب الأقحاح) الذين لم يتأثر لسانُهم بعجمة ولم ينحرف عن أصله بسبب الاختلاط بلغات أجنبية ، سواء كانت أدبية ثقافية رفيعة المستوى كلغة الشعر والخطب ، أم كانت عادية محكية دارجة على الشفاه في التخاطب اليومي كلغة الأعراب التي أخدت عنهم مباشرة . ومن أجل التأكد من صحة انتماء اللفظ أو الاستعمال إلى العروبة الحق ، وسلامتها من الانحراف والهجنة اشترطوا شروطا سنعود إليها بعد قليل .

فللبلاغة إذن الحق في الاعتراض على كلمة (مُسْتَشْزِرات) الواردة في قول امرىء القيس :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلاَ

بسبب ثقلها على الأذن وعدم الانسجام في تأليفها الصوتي ، وأما القاموسيون فلا يعترضون ، لأن عندهم أن كل كلمة في شعر امرىء القيس وغيره من شعراء الجاهلية فصيحة ولو كانت ثقيلة على الأسماع .

وللبلاغيين ألا يعتبروا عيسى بن عمر النحوي فصيحا حين قال :

«مالكم تَكَاكَأتُمْ عَلَيَّ» لأنه استعمل كلمة غريبة حُوشِيَّة يُحتاج إلى التنقير عنها في كتب اللغة(3) . ولكن صانعي القواميس القدامى لم ينظروا إلى

الحوشي والغريب تلك النظرة المريبة ، فقواميسنا القديمة ملأى بالغريب وبالحوشي .

وبالمقابل ، فإن أصحاب الصناعة القاموسية القدامى ، قد حصروا إطار الفصاحة في حدود زمانية ومكانية معينة كما سنرى ، ولم يتقيد بذلك البلاغيون ، لأنهم أجازوا الاستشهاد بنصوص متأخرة عن عصور الاحتجاج حين توفرت فيها العناصر الفنية والأسلوبية التي يتطلبونها .

وللنحاة كذلك مقاييس في الفصاحة ، لم يكن صانعوا القواميس العربية ليحترموها جميعا ، من ذلك مثلا ، شرط الاطراد في القياس . فإذا كان النحوي لا يستطيع أن يبني قواعده على الحالات الشاذة ، فإن الأصل في القاموس – كما يقول بحق بعض اللسانيين المعاصرين(4) – أن يكون ذيلا للنحو وملحقا به ، لأنه من المفروض أن يشتمل على كل الشواذ التي لا تنتظمها قاعدة(5) . وقديما اعترض ابن درستويه على الذين اعتبروا الاطراد في القياس معيارا من معايير الفصاحة في الألفاظ فقال : «وقد تلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس ، البعيدة عن الصواب ، حتى لا يتكلموا بغيرها ، ويدعوا المنقاس المطرد المختار(6)» . وكذلك كان موقف ابن الطيب الفاسي الشركي (أو الشرقي) الذي هاجم ثعلبا وسواه ممن اعتبروا الشذوذ مخلا بالفصاحة وقال : «والشذوذ لا ينافي الكثرة كما لا ينافي الفصاحة(7)» ، وقال أيضا : «قد يكون الشاذ أفصح من المقيس وأكثر استعمالا في الكلام كما يُعلم بالوقوف على متون التصريف وأصول اللغة(8)» .

لقد كان مفهوم الفصاحة عند المعجميين والقاموسيين إذن يقوم أساسا على ثلاثة معايير أو شروط هي :

1 – **شرط المكان** : وهو الذي تقرر بمقتضاه أن تكون العربية المراد الحكم لها بالفصاحة خالية من كل شوائب العجمة والتحريف ، بعيدة عن كل عوامل التأثر بالدخيل ، ولذلك تم اتخاذ كل الاحتياطات المشددة في اختيار بيئة هذه الفصحى وتقليص حدودها الجغرافية في أطلس لغوي لاتتسع مساحته لغير القبائل العربية الواقعة في وسط الجزيرة دون بقية أطرافها التي كانت على صلة بأمم أخرى أجنبية ، وفي بواديها دون حواضرها ومدنها التي كانت تَعِجُّ أيضا بحركة الوافدين عليها من خارج الجزيرة أو من أطرافها بقصد التجارة أو غير ذلك(10) .

وفي الحقيقة أن هذا الشرط لا يكاد ينطبق إلا على اللغة المحكية التي جمعوها من أفواه مستعمليها مباشرة ، وأما اللغة الأدبية المكتوبة ، ولغة الشعر بالخصوص ، فلم يراعوا في شأنها هذا الشرط ، لأنهم استشهدوا بلغة شعراء عاشوا في كبريات الحواضر الجاهلية والاسلامية ، وخالطوا أمما غير العرب ، كالنابغة وامرىء القيس ، وحسان ، وعمر بن أبي ربيعة ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وغيرهم ...

والشرط الثاني : وهو شرط الزمان أو الأقدمية ، تم بمقتضاه تحديد إطار الفصاحة زمنيا في العصور الأولى للغة العربية ،فأوقفوا من أجل ذلك الاحتجاج باللغة الأدبية ، وخاصة لغة الشعر ، في حدود منتصف القرن الثاني الهجري ، وباللغة الشفوية المنقولة عن أعراب البادية مباشرة في حدود القرن الثالث إلى الرابع الهجري . وكل استعمال جاء خارج إطار الأقدمية هذا عدَّ مولدا أو محدثا ولم يلتفت إليه إلا في المجال البلاغي والأسلوبي .

والشرط الثالث : وهو شرط الصحة ، يقتضي بأن لا يحكم بالفصاحة للفظ أو استعمال إلا إذا ثبتت نسبته إلى عربي فصيح سواء بالمشافهة أو

الرواية الصحيحة . والعربي الفصيح – في هذا المجال – هوالذي نشأ في بيئة وزمن بعيدين وعن العجمة والاختلاط كما حدد من قبل . وما شُكَّ في نسبته للعرب الأقحاح أصحاب اللغة الأصليين الذين ظلوا محتفظين بسليقتهم دون فساد أو تحريف ، اطرح جانبا ولم يُفَصَّح . وقد وردت في القواميس القديمة ألفاظ كثيرة مقرونة بعبارات التحفظ والاحتياط إن لم نقل الطعن والتجريح ، كمثل قولهم : (وفي لغة) و (في لُغَية) و (لم يثبت) و (لم يصح) و (لست منه على ثقة) و (فيه نظر) .. الخ . وكثيرا ما عابوا كتاب ابن دريد الذي سماه (الجمهرة) بسبب توسعه في السماع دون تثبت واحتياط ، وطارت شهرة كتاب الجوهري الذي سماه (تاج اللغة وصحاح العربية) و فضّله كثير من الناس على غيره لتقيده بشرط الصحة . وكان ابن الطيب الشرقي الفاسي يقول : «وليس المدار على كثرة الجمع بل على شرط الصحة الذي فاق به الصحاحُ جميعَ من تقدمه أو تأخر عنه(11) ...

والذي نريد أن نستنتجه من كل ما سبق ، هو أن مفهوم الفصاحة هذا بشروطه المذكورة ، قد استخدم عند القدماء بمثابة سيف ذي حدين :

أ – فقد استخدم بالنسبة للغة العربية القديمة معيارا للانتقاء والاصطفاء ، وليس وسيلة من وسائل الاحاطة والشمول . فالاحتكام إليه هو الذي أدى إلى تحديد طبيعة المادة اللغوية التي جمعوها وألفوا منها القواميس ، وحصرها في بيئة وزمان معينين ، وما خرج عن ذلك رَدوُّه ولم يعتبروه داخلا في (لغة العرب) المحكوم لها بالوثوقية والتفصيح . وكانت النتيجة أن ظلت خارج القواميس المؤلفة قديما لغات سائر القبائل التي لم تشملها حدود وسط الجزيرة ، كما خرجت من تلك الدائرة لغات كل الحواضر والمدن القديم منها والحديث .

ب – واستخدم من جهة أخرى ، حاجزا منعيا وقف في وجه اللغة الحادثة التي طرأت بعد عصر التدوين والاحتجاج ، وحال بين القواميس القديمة وبين متابعة التطور الذي عاشته العربية خلال عصور طويلة على أيدي الشعراء والكتاب والفلاسفة وأصناف العلماء على اختلاف تخصصاتهم . فأصبحت تلك القواميس تصد عن كل لفظ أو استعمال لم يخضع لشروط الفصاحة القديمة ، بدعوى أنه مولد أو محدث أو أعجمي دخيل ، أو مجازي ، أو اصطلاحي . وبذلك لم تسمح لنفسها بالتجاوب مع الحركة الثقافية والعلمية والطفرات الحضارية التي كان لها انعكاس واضح على اللغة خارج القواميس الشاملة . بل لقد أقفلت قواميسنا أبوابها ونفضت يدها من عملية الجمع والتدوين في مرحلة سابقة للعصور التي نضجت فيها ثمرات الحضارة العربية ووصلت قمة أمجادها . وتعمدت أن تبتعد عن مواطن هذا الازدهار وعواصمه الكبرى كالبصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان ، مكتفية برصيدها القديم وبزادها الذي ورثته من الأعراب الأوائل لاتريد أن تنميه أو تضيف إليه .

إن المرء لا يقول هذا بغاية التنقيص من قيمة الأعمال الجليلة التي خلفها لنا أسلافنا القدامى في مجال الدرس المعجمي والتأليف القاموسي ، ولا بقصد الطعن في مناهجهم التي اضطروا إليها اضطرارا بحكم الأهداف الدينية والثقافية والحضارية والقومية التي انطلقوا منها ، ولكن نقوله من أجل تقرير واقع حاصل لاسبيل إلى إنكاره ، ولا فائدة في معاندته

مادام الهدف عندنا هو البناء وليس الهدم . وهذا الواقع هو أن هناك قدرا هائلا لا يستهان به من الألفاظ والاستعمالات التي عرفتها اللغة العربية عبر تاريخها الطويل ظل خارج القواميس الكبرى التي وصلت إلينا ، وأن هذه القواميس القديمة قد توقفت حقبة طويلة عن ملاحقة ما يستجد في اللغة خلال العصور الاسلامية ، وكأن العربية قد اكتمل نموها في عصر الجمع والتدوين واستقرت على حالها النهائي .

ولقد استمر هذا الحصار مضروبا على العربية المحدثة طوال ما يقرب من خمسة قرون على الأقل ، أي منذ القرن الرابع الهجري إلى بداية التاسع الذي ظهر فيه القاموس (القاموس المحيط) للفيروزأبادي . ذلك أن صاحب (القاموس المحيط) قد حاول تخطي هذا الحاجز ، وتجاوز ذلك المفهوم القديم للفصاحة ، فأباح لنفسه إدخال عدد لابأس به من الكلمات والاصطلاحات الجديدة . ولكن عمل الفروزأبادي هذا لم يستطع من **جهة أولى** أن يحيط بكل المستجدات والمحدثات من الألفاظ والاستعمالات التي أوجدتها العربية خلال القرون الخمسة السابقة . والسبب واضح وهو أن عمله كان عملا فرديا وأنه لم يقم بعملية تدوين جديدة للغعة على غرار عملية التدوين الكبرى التي قام بها الرواة واللغويون الرواد المؤسسون .

وملاحظتنا الثانية على عمل (القاموس المحيط) هي أن جرأته تلك ،وثورته على المفهوم القديم للفصاحة قد جرّتا عليه حملة نقدية شعواء ضارية من اللغويين العرب . وكان في مقدمتهم و على رأس حربتهم ابن الطيب الشرقي الفاسي الذي قسم ما جاء به صاحب (القاموس المحيط) من زيادات إلى : (1) اصطلاحات علمية ، (2) ومجازات ، (3) ودخيل ، (4) ومولد (5) وأسماء أعلام . واعتبر أن كل هذه الأصناف من الكلمات ليس من (لغة العرب) في شيء ، لأنها كلها خارجة عن مفهوم الفصاحة القديم . وهذه الحملة النقدية التي قوبل بها عمل المجد الفيروزأبادي لم تشجع آخرين على الاقتداء به وتقليده في ثورته ، ولذلك وجدنا الركود يعود من جديد إلى صناعة القواميس العربية . وظل هذا الصمت سائدا مخيما مدة قرون أربعة أخرى ، إلى أن ظهر (تاج العروس) للزَّبيدي في مطلع القرن الثالث عشر ، فشرح كتاب الفيروزأبادي وحاول خلال الشرح أن يضيف تلك الاستدراكات التي أتى بها شراح (القاموس المحيط) ونقاده ومحشوه ، معتمدا بالدرجة الأولى على حاشية شيخه ابن الطيب الشرقي الفاسي .

وللحقيقة وللتاريخ، لابد أن نعترف بأنه إذا كانت القواميس اللغوية العامة قد أحجمت عن متابعة تطور العربية في سائر أعصارها وأمصاره ، فإن قيام بعض القواميس المتخصصة (كمفردات الطب ، والتصوف، والفلسفة ...الخ) قد حاول التخفيف من حدة المشكل . ولكن هذه القواميس المتخصصة كان عددها قليلا جدا بالقياس إلى اتساع المعارف وأنواع العلوم والفنون من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هذا القدر القليل من القواميس المتخصصة قد اهتم بالألفاظ الاصطلاحية وحدها ، وبقيت خارجه كل الألفاظ العامة ذات الدلالة اللغوية المشتركة .

— 3 —

ذلك هو المفهوم القديم للفصاحة في الحقل المعجمي والقاموسي ، وتلك هي بعض انعكاسات ونتائجه السلبية على لغتنا وقواميسنا القديمة . فما هو موقفنا منه الآن ونحن بصدد وضع تأريخ لألفاظ العربية ؟ لاشك أن الجواب الواضح هو أن هذا المفهوم قد تجاوزه العصر ، وأنه قد أصبح موضع

نقاش ونقد منذ القرن التاسع عشر الميلادي . كما تجاوزته المجامع اللغوية العربية وكل القواميس التي ألفت طيلة المئة والخمسين سنة الماضية . وهناك على كل حال أسباب كثيرة تدعونا في هذا العصر لتجاوز هذا المفهوم وإحلال مفهوم جديد محله ، وأهمها :

1 – أنه أصبح اليوم من المسلم به بين الدارسين للغة ، أنه لكل عصر فصاحته الخاصة . وهذا معناه أن كل عصر له معجمه وألفاظه التي يعبر بها عن ثقافته ، وعن الأدوات والمفاهيم الحضارية التي يستخدمها . ولايمكن لرجل في هذا العصر أن يتفاهم بين مخاطبيه بألفاظ الجاهلية أو العباسية إذا هو قرر الاقتصار عليها وحدها .

2 – أن تاريخ العربية لم يتوقف عند القرن الثالث أو الرابع الهجري ، والعرب لم ينقرضوا بعد ذلك العصر ، بل ازداد ارتفاعا ، وازدادت المساحة الجغرافية التي يحتلونها فوق الكرة الأرضية.

3 – أن تشبث القدامى بذلك المفهوم الذي ذكرناه للفصاحة ، كان ناتجا عن اعتقادهم بأن الاعتراف بالتطور اللغوي – وتطور العربية على الخصوص – معناه ترك المجال حرا أمام اللغة لكي تنحرف وتذهب بها المذاهب حتى تصبح لغات بدل لغة واحدة ، ولذلك تنقطع الصلة بالتراث وتتحول الأمة الواحدة إلى أمم وشعوب مختلفة ، ويحول هذا التطور في الأخير بين الناس وبين فهمهم للنص القرآني والنصوص الدينية الأخرى . ولكن الدراسات الحديثة بينت أن كل هذه التخوفات مبالغ فيها ، لأن التطور الذي قد يؤدي إلى الخطورة المذكورة هو الذي يحدث على مستوى اللهجات ، إذ هو تطور عشوائي ولا يتحكم فيه شيء – كما سنرى – أما التطور الذي يحدث على مستوى الفصحى فهو بطيء جدا وخاضع لقوانين وقواعد متفق عليها ، فما دام العرب والمسلمون عامة متشبثين باستعمال الفصحى لغةً مشتركةً في التخاطب ، ولغة التعليم والثقافة والدين ، وما دام الحرص موجودا على تعلم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وعلى تعليم قدر كبير من نصوص التراث الفصيح وتلقينها جيلا بعد جيل ، فلا خوف بعد ذلك لما يحدث داخل الفصحى وتحت رعايتها وفي كنفها من تطور وتغير ، لأن ذلك ضرورة تمليها سنة التجاوب مع التطور الحضاري ، والثقافي ، لأنه كلما جد مفهوم أو مسمى إلا واحتاج الناس للتعبير عنه بلفظ جديد أودلالة محدثة .

أضف إلى ذلك كله أن التطور الذي يحدث عادة على مستوى المعجم ، لايكون فيه خطر على بنية اللغة الاساسية التي قوامها النظام الصوتي والصرفي والنحوي . ولذلك وصفوا المعجم بأنه نظام مفتوح ، وقالوا عن الأنظمة الأخرى : الصوتية والصرفية والنحوية إنها أنظمة مغلقة . ولا أدل على ما نقول من هذا القدر الهائل الكبير جدا من الألفاظ الحديثة التي دخلت الاستعمال طيلة المئة والخمسين سنة الماضية والتي كادت تجعل من نصف المعجم العربي القديم تقريبا مهملا ومماتا ، ومع ذلك لم يقل أحد إن العربية أصبحت في خطر . الخطر لا يأتي من إدخال ألفاظ ومصطلحات جديدة وإخراج وطرح ألفاظ ومصطلحات موجودة ، لأنه من دون هذه العملية الدائبة المستمرة : عملية الدخول والخروج في ألفاظ المعجم ، لايمكن للغة أن تعيش وتضمن لنفسها الاستمرار . ونحن بالطبع نريد للغتنا العربية الحيوية والنشاط والاستمرار .

4 – وبالنسبة لنا نحن الذين نريد وضع تاريخ للغة

العربية ، لايمكن أن نحتفظ بهذا المفهوم القديم إلا إذا كنا نريد أن نقتصر على وضع تاريخ اللغة العربية ، أي عربية ما قبل القرن الثالث الهجري ، أو كنا – بعبارة أخرى – نريد تكرار وإعادة إنتاج محاولة (فيشر) التي اعتقد أن المقصود هو تجاوزها وتخطيها . على أن مجمع القاهرة نفسه حين طبع الجزء الذي طبعه من عمل (فيشر) لم يفعل ذلك لأن مشروع هذا الرجل العالم كان يعبر تمام التعبير عن تصور المجمع ورغبته ، بل فعله بعدما رأى أن الغاية التي يسعى إليها ، وهي التأريخ لسائر أطوار العربية غاية ليس من السهل تحقيقها يومذاك ، للحاجة الماسة إلى الوثائق والنصوص والمعلومات الكافية .

لا أعتقد إذن إلا أن الهدف الذي ينبغي تحديده لمشروعنا هو نفس الهدف الذي سبق لمجمع اللغة العربية أن رسمه وهو كتابة تاريخ شامل للغتنا بتتبع حياتها من النشأة الأولى إلى يوم الناس هذا ، لاسيما أن أخصب مراحل التطور التي عرفتها هذه اللغة بعد مرحلة الانقلاب الذي أحدثه مجيء الاسلام ، وهي تلك المراحل التي أعقبت القرن الثالث الهجري (أي العصر الذي توقف عنده مشروع فيشر) وشهدت ما نعلمه جميعا من الازدهار في العلوم والفنون والآداب ، استطاعت لغتنا أن تستوعبه جميعه وتعبر عنه تعبيرا دقيقا وبمقدرة عالية .

ولا أعتقد أيضا إلا أن هدفنا هو كتابة تاريخ شامل ومفصل لحضارتنا وأفكارنا ومفاهيمنا وتصوراتنا ومقولاتنا ومواقفنا ورؤانا للعالم انطلاقا من ألفاظ اللغة ، على اعتبار أن الألفاظ هي التي تعكس بصدق وحضارة وفكر وثقافة المجتمع الذي يتكلمها . ومعلوم أن حضارتنا – نحن العرب – لم يقف تطورها عند المرحلة الزمنية القصيرة التي توقفت عندها القواميس اللغوية القديمة . بل لقد شرَّقت هذه الحضارة وغَرَّبت بعد القرن الثالث الهجري وعُمِّرت قرونا طويلة واستقرت في بيئات متنوعة الخصوبة والمناخ . واستفادت من ثقافات وتجارب لا حصر لها . وكل ذلك كان يعبر عنه بواسطة ألفاظ اللغة . فالذي يريد أن يتتبع تاريخ العرب وحضارتهم في سائر الأطوار ، عليه أن يستقرىء تاريخ ألفاظهم في جميع تلك الأطوار أيضا .

نحن إذن أمام ضرورة البحث عن مفهوم جديد للفصاحة يعترف بوجود فصاحة قديمة ، وهي التي حدد الأسلاف إطارها الزماني والمكاني ، بتلك الحدود التي ذكرناها سابقا ، وفصاحة حديثة نشأت خارج تلك الحدود في زمن يمتد مابين القرن الثالث وبداية الخامس عشر للهجرة ، وفي بيئة شاسعة واسعة تمتد عبر جميع الأصقاع التي استقرت فيها اللغة العربية واستوطنتها بعد الاسلام من أقصى الخليج إلى أقصى المحيط ، وهي عربية الفكر والثقافة والأدب والعلوم المختلفة ، حُشِيَتْ بها بطون آلاف الكتب وملايين الأوراق التي ينوء بحملها تراثنا الزاخر الغزير .

ولقد مرت لغتنا العربية خلال حياتها الطويلة التي لاتكاد تشبهها في طولها لغة أخرى من اللغات الحية ، بعدة طفرات وأحداث تاريخية كبرى غيرت من ملامحها وتركت آثارا واضحة عليها ، ولعل أبرز هذه المعالم هي الثورة الشاملة التي أحدثها الاسلام ، ثم الثورة الثقافية الكبرى التي أحدثها عصر الترجمة والازدهار العلمي ابتداء من عصر بني العباس ، ثم اليقظة الحديثة التي بدأت بمنتصف القرن التاسع عشر الميلادي إثر الاصطدام بالغرب . وفي كل مرحلة من هذه المراحل الكبرى كانت العربية تبرز إلينا بوجه جديد وملامح متغيرة في مفرداتها ودلالة ألفاظها وتراكيبها واستعمالاتها ، ولذلك فبالامكان – وهذا

ماقال به دارسون من قبل – وضع تقسيمات مدرسية للتمييز بين المراحل الكبرى البارزة في تطور الفصحى عبر هذا التاريخ الطويل ،كأن نقول : (1) فصحى العصر الجاهلي . (2) وفصحى العصر الاسلامي الأول . (3) وفصحى العصور العباسية .(4) وفصحى عصور الانحطاط . (5) وفصحى العصر الحديث .

– 4 –

لكن ، إذا كانت الفصحى القديمة قد حددتها معايير القدماء ورسمت إطارها المعروف لدينا ، فما هي المعايير التي تتحدد بها الفصحى أو الفُصْحَيَات التي حدثت بعد عصر الاحتجاج والتدوين ؟ ذلك أنه ليس من المعقول أن لكل لفظ أو استعمال تم العثور عليه بعد عصر التدوين الأول يعتبر فصيحا ، حتى ولو ورد على ألسنة العامة أو الأعاجم ، أو انفرد باستعماله شخص واحد دون سواه ، أو جاء مخالفا لأبنية العرب وأقيستها في كلامها ؟

والجواب على هذا هو أن العربية بعد عصور التدوين ، قد تطورت في اتجاهين مختلفين معروفين :

1– **اتجاه اللهجات** والاستعمالات العامية ، وهو ما يمكن أن نسميه اصطلاحا بالاتجاه العفوي ، وفيه عاشت العربية حياتها على ألسنة الناس من مختلف الفئات والطبقات حرة طليقة لا يردها عن تطورها العشوائي راد ، ولايكبح جماحها شيء ، وهذا التطور الذي شهدته العربية في هذا المستوى كان سريعا ويصطبغ بصبغة البيئة التي عاش فيها ، وهو الذي أدى إلى ظهور لهجات عربية جديدة محلية وإقليمية لاحدود لعددها ولا نهاية ، حلت محل اللهجات العربية القديمة . وهذا الاتجاه الذي تطورت فيه العربية مما صورت بعضَ مظاهره كتب (لحن العامة) وكتب التصويب اللغوي ، ولايهمنا الآن أمره إذا ما تم حصر الهدف خلال هذه المرحلة في التأريخ للفصحى .

اتجاه الفصحى : أو الاتجاه المقنن ، وهو الذي شهدت فيه العربية تطورها وتوسعها على أيدي الكتاب والشعراء والمفكرين والعلماء على اختلاف تخصصاتهم ، واحتفظت لنا أعمالهم ومؤلفاتهم التي لاحصر لها بشواهده ووثائقه التي تساعد على التأريخ له . وخاصية التطور الذي عرفه هذا الاتجاه هي أنه محدود وبطيء نسبيا إذا ما قيس بالتطور الذي تم على مستوى العاميات واللهجات . ولكنه من جانب آخر يمتاز بكونه لا يصطبغ بالصبغة الاقليمية والمحلية في الغالب وإنما له طابع اللغة المشتركة بين سائر أقطار العروبة . وماكانت له صبغة محلية فهو قليل من جهة وسرعان ما ينتشر عبر الكتب والمؤلفات فتزول عنه هذه الصفة من جهة ثانية ، ذلك أن التوليدات والاشتقاقات الجديدة التي تفرزها استعمالات الكتاب والشعراء والعلماء والمثقفين عادة ما تراعى فيها قواعد العربية الفصحى (المشتركة) ما أمكن ، ولا يضطر لتجاوزها أو اختراقها إلا نادرا وفي نطاق جد محدود . فهو تطور إذن يتم داخل القواعد والأقيسة القديمة وفي ظلها وتحت رعايتها ومباركتها .

وأعتقد أننا لو أردنا الآن تحديد ملامح وطبيعة الفصحى في مفهومنا الحديث ، لقلنا باديء ذى بدء : إن الفصاحة التي نقصد إليها ونتحدث عنها ليست مستوى بلاغيا متميزا يتبارى الناس من أجل اكتسابه أو تقليده ، ولكنها هي خاصية اللغة التي تحترم حدا أدنى من القواعد الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية المتفق عليها بين علماء العربية ، وتصلح لتكون أداة للتفاهم الجماعي والتواصل المشترك بين سائر المتكلمين بها أينما كانوا ومتى وُجدوا ، ووسيلة للتعليم والتثقيف ، وأساسا لتوحيد

الفكر وتحقيق الهوية . فاللغة التي تجتمع فيها هذه الخصائص نسميها «العربية الفصحى» أو «العربية المشتركة» ، وذلك في مقابل اللهجات المحلية .

وهذا التعريف الذي أعطيناه للفصاحة والفصحى في مفهومنا الحديث سمح لنا بأن نعتبر فصيحا كل لفظ أو استعمال توفرت فيه الشروط الثلاثة التالية(12) وهي :

1) أن يرد في نص مكتوب ، أي لابد من أن يكون بعض كبار الكتاب أو الشعراء أو العلماء قد استخدموه في مؤلفاتهم وأعمالهم المكتوبة . لأن الفصحى التي حدثت بعد عصر التدوين والجمع إنما نشأت وتطورت كما سبق القول – على أيدي هؤلاء الكتاب والشعراء والعلماء ، أي نشأت وتطورت داخل النصوص المكتوبة ، وليس على ألسنة العامة .

2) أن يكون قد شاع استعماله بين أكثر من كاتب أو مؤلف ، وإلا وجب عده من المفردات الخاصة بكاتب بعينه أو مؤلف بذاته وهذا لا ينبغي اعتباره من اللغة المشتركة حتى يتداوله أكثر من مستعمل واحد .

3) أن يكون جاريا ولو بوجه على قواعد العربية وأقيستها في أبنيتها وسننها في الاشتقاق والتوليد والتعريب . فما خالف وضعه وضع القواعد والصيغ والأبنية المعترف بها مخالفة تامة لم يعتبر من الفصيح ،(أي من اللغة المشتركة)اللهم إلا إذا أقره واعترف به مجمع من المجامع اللغوية العربية ، فاكتسب بذلك الاعتراف حق «المواطنة» وانضم الى عائلة أخواته .

— 5 —

والآن ، وبعد أن فرغنا من تعيين أحد أهداف القاموس العربي التاريخي ، بأن قلنا إنه يجب أن يقتصر – ولو مرحليا – على التأريخ للفصحى وحدها دون اللهجات والعاميات ، ثم خطونا خطوة ثانية وحددنا هدفا آخر لهذا القاموس فقلنا : يجب أن يشمل التاريخ الذي نريد كتابته كل عصور الفصحى ومراحلها منذ الجاهلية إلى اليوم ، وأعطينا أفكارا واقتراحات حول ملامح الفصحى المتأخرة وبينا المقصود بها عندنا ، علينا إذن أن نضيف خطوة ثالثة فنسأل : هل نريد لقاموسنا هذا أن يهتم بوضع تاريخ لكافة الألفاظ واستعمالات الفصحى القديمة والمتأخرة ، ولا يترك منها شاذا ولا مقيسا ولا عاما ولا خاصا(أي سواء كان من اللغة العامة أم كان من اللغة الاصطلاحية الخاصة بعلم من العلوم أو فن من الفنون) ، ولا حيا ولا ميتا (أي سواء كان اللفظ ما يزال جاريا في الاستعمال أم كان قد أهمل وعفي عليه النسيان) . .أم أن الاختيار سيقع على طريقة أخرى وهي الانتخاب من هذه الفصحى كلها قدرا معينا من الألفاظ والاستعمالات وترك الباقي ؟

وأعتقد أنه في الحالين معا لابد من توسيع مصادر هذا القاموس توسيعا يتجاوز حدود القواميس القديمة والحديثة يشمل كل المادة اللغوية الموجودة في تراثنا المكتوب بالعربية في سائر الأعصار والأمصار مهما كانت طبيعته ومهما كان نوعه . أي لابد من القيام بعملية مسح وتفريغ شاملة لكل تراثنا المكتوب بالعربية ابتداء من أقدم نص وصل إلينا وهو النقوش القديمة ، إلى آخر نص نريد الوقوف عنده ، ولا تقتصر على القواميس وكتب اللغة وحدها . فمن جهة لأن هذه القواميس والكتب اللغوية قد أهملت عددا كبيرا من الألفاظ والدلالات و لم تدونها كما مر . ومن جهة ثانية لأنه حتى هذه الالفاظ والدلالات

التي دونت في القواميس لم تدون معها تواريخ استعمالها وتغيرها وتطورها . فافرض أنك عثرت على كلمة في كتاب (العين) وهو أقدم قاموس لغوي شامل وصل إلينا ، فظهور هذه الكلمة في القرن الثالث الذي ألف فيه (العين) لايعني بحال أنها وليدة ذلك العصر ، فقد تكون في الغالب أقدم من ذلك بكثير ، وقد يكون استعمالها – قبل أن تستقر على الصيغة والدلالة اللتين وجدت عليهما في كتاب الخليل – عرف مراحل عديدة من التطور والتقلب والنمو ، وهذا ما يفرض الرجوع في التاريخ لتلك الكلمة إلى ماهو أقدم من (العين) من الوثائق والنصوص . ثم افرض أنك عثرت على كلمة أخرى في (القاموس المحيط) وهو كتاب ألف في بداية القرن التاسع الهجري ، ولم تعثر عليها في قاموس قبله ، فهذا لايقطع بأن بداية استعمالها كانت في ذلك العصر وهو القرن التاسع ، فربما استعملت قبله بأعصر وقرون لأن قواميسنا لم تتابع التطور اللغوي مرحلة بعد مرحلة وسنة بعد سنة وقرنا بعد قرن . ولذلك فإن القواميس (القديم منها والحديث) لن تفيدنا إلا في وضع المعالم الكبرى لهذا التاريخ ، أما حدوده الدقيقة أو القريبة من الدقة فلا بد فيها من مسح التراث وتفريغ النصوص .

ولاشك أن إنجاز هذه العملية : عملية المسح والتفريغ لكل النصوص المكتوبة بالعربية حتى ولو اقتصرنا على المطبوع منها دون المخطوط ، ليس من السهولة بمكان ، ولا سيما أن تراثنا العربي المكتوب ربما كان هو أغنى تراث تملكه الانسانية وأغزره في الوقت الحاضر . ولكن لامناص منه على كل حال مهما تطلب من وقت وجهد ومال . ولقد كان المجمع العلمي القاهري قد تهيب المشروع فتركه إلى حين يتم نشر وجمع وتحقيق كل تراثنا المكتوب(13) ، ونحن لا نرى هذا الرأي ، ولا نقول بضرورة هذا الانتظار ، وما لا يدرك كله لا يترك جله كما يقال . إذ بالامكان الاقتصار في عملية الجرد والمسح على النصوص المطبوعة دون انتظار المخطوط أولا ، وبالامكان ثانيا الاشتغال بالطبعات العادية للنصوص المنشورة دون انتظار تحقيقها مع إمكانية الرجوع إلى أصولها المخطوطة عند الحاجة والضرورة . **وبالجملة** يمكن البدء بما يتوفر لدينا حاليا من النصوص ، وهو أكثر من كثير ، بدل التوقف وانتظار الذي يأتي وقد لا يأتي ، لأن النقص سوف يظل موجودا في جميع الاحوال . ولو كان المجمع القاهري قد بدأ العمل بدل التوقف والانتظار لكان قد قطع مراحل كبيرة في المشروع . على أن هذا الكتاب الذي يراد وضعه ، سوف يظل – شأنه في ذلك شأن سائر القواميس – قابلا بصفة دائمة ومستمرة لعمليات متلاحقة من التنقيحات والمراجعات والتصويبات ، وسيضاف إليه عبر السنين اللاحقة كل ما يتم الوصول إليه من جديد تكشف عنه عمليات المسح والمتابعة التي من المفروض أن تستمر على أيدي باحثين مختصين موزعين على أقطار العالم .

اللغة والمهن – اللغة الخاصة ودورها في الاتصال(*)

بقلم هـ . فيلبر

ترجمة :

محمد حلمي هليل
جامعة الاسكندرية

سعد مصلوح
جامعة الكويت

مقدمة

في هذا العدد يسرنا أن نقدم الترجمة العربية لبحث وثيق الصلة بالمصطلحية وهو اللغة الخاصة (Special Language) . و*اللغة الخاصة* مصطلح يشير إلى التنوعات اللغوية التي يستعملها المتخصصون في كتاباتهم في الحقول الموضوعية المختلفة كما هو الحال في اللغة التي تكتب بها الفيزياء ، والطب ، والقانون ، والكيمياء واللسانيات مثلا . وتشمل دراسة اللغات الخاصة دراسة المصطلحات .

في الآونة الأخيرة ازداد الاهتمام بتحليل ودراسة اللغة الخاصة وجاء ذلك نتيجة التطور الذي حدث في حقل اللسانيات الاجتماعية ومن أجل أسباب تعليمية وعملية خاصة ، وجذبت اللغة الخاصة اهتمام مدرسي اللغات والمعجميين والمصطلحيين والمترجمين .

في هذا البحث يلقي الأستاذ فيلبر الضوء على نهج المصطلحية ونهج اللغة الفرعية اللذين يدور حولهما البحث العلمي في اللغة الخاصة كما يعرض بشكل سريع للبرامج التدريسية للغة الخاصة وللمصطلحية .

هذه البرامج هامة بالنسبة لعالمنا العربي وفي رأينا أن أي برنامج دراسي لأعداد المعجميين والمصطلحيين والمترجمين للنصوص المتخصصة لابد وأن يركز على اللغة الخاصة التي تعد المصطلحات جزءا منها . وقد احتفظنا بثبت المراجع كما جاء في بحث فيلبر وأضفنا مراجع أخرى لمن يشاء المزيد من المعرفة في هذا الحقل كما .وقد أضفنا قائمة ببعض الألفاظ المصطلحية لزيادة الفائدة .

(*) نشر هذا المقال في Taal & Beroep (1984), no. 2
Toegepaste taalwetenschap in artikelen 19 p. 17 - 30
بعنوان "Language and the Professions. The Role of Special Language in Communication."

المراجع :

Robinson, P. (1980) *ESP (English for Specific Purposes)*. Oxford : Pergamon

(يحوي الكتاب قائمة مراجع مستفيضة من كتب ومقالات تبحث في تحليل اللغة الخاصة كلغة العلوم والسياسة والقانون والطب والهندسة والرياضيات وغيرها).

Picht, H. and Draskau, J. (1985). *Terminology* :

An Introduction. The University of Surrey : Guildford Surrey.

(أنظر على وجه الخصوص الفصل الأول الصفحات 1 ــ 23 وبها معالجة ممتازة للتمييز بين لغة الأغراض العامة LGP ولغة الأغراض الخاصة LSP والمصطلحية.)

ومن المراجع التي لا غنى عنها لتفهم هذا الحقل اخترنا :

1. Sager, J.C. Dungworth, D. and McDonald, P.F. (1980).

English Special Langages. Wiesbaden : Brandstter.

2. كما تصدر مدرسة كوبنهاجن للعلوم الاقتصادية نشرة دورية بعنوان :

Unesco ALSED - LSP Newsletter

The Copenhagen School of Economics.

تعرض كل ما هو جديد في هذا الحقل الهام

3. Hoffmann, L. (1979) «Terminology and LSP.»

In : *Infoterm Series* 7, *Terminologies for the Eighties*,

K.G. Saur München, New York, London, Paris.

وهو مقال هام يوضح العلاقة بين المصطلحية ولغة الأغراض الخاصة.

ما كان للعلوم والتقنيّة والاقتصاد والثقافة أن تنمو إلاّ لأن البشرية تعلّمت استعمال اللّغات الخاصة كأدوات لا غنى عنها للاتصال من أجل تحقيق مهام معيّنة في العلوم والمهن والحرف . ومن أجل هذه الغاية ، نمت المفردات الخاصة لكل حقل موضوعيّ (Subject field) أو ناحية من نواحي الحياة المهنية وهذا ما يعرف عادة بمصطلحية (Terminology) الحقل المَعْني . وفوق ذلك نما وتدرج أسلوب خاص لم يحظ باهتمام فقهاء اللغة .

وفي العقدين الأخيرين بدأ اللسانيون أيضا يولون اهتمامهم للنصوص الخاصة التي تتميز بمصطلحياتها . وفي الوقت الحاضر ، تؤدي المصطلحيات دورا هاما في نقل المعرفة والتقنية . وفي كثير من لغات العالم لابد من وضع المصطلحات حتى نتمكن من اكتساب المعرفة والتقنية من مصادر لغوية أخرى .

وقد أدى ما أحرز من تطور وتقدم سريعين في كل مناحي النشاط البشري ، كالعلوم والثقافة والعمل الحرفي والمهني ، إلى تزايد سريع في عدد التصورات (concepts) الجديدة . وهذه التصورات الجديدة لابد وأن نعبر عنها إما بما هو موجود من المصطلحات أو بمصطلحات مخلقة من الكلمات الموجودة أصلا أو بالتأليف بين عناصر الكلمات . بيد أن عدد الجذور (roots) والزوائد (affixes) المتاحة في كل لغة يصل إلى بضعة آلاف على حين يربو عدد التصورات في كل حقل موضوعي على الملايين وذلكم هو جوهر المشكل . وبحكم هذا التطور سرعان ما سيصل النمو المصطلحي إلى منتهاه وسرعان ما يصبح من العسير إلحاق رمز لغوي بتصور من التصورات على نحو يؤمن اللبس . وسينشأ عن هذا التطور أن يزداد الاتصال بين الانسان والآلة وبين الآلة والآلة بل بين الانسان والانسان صعوبة على صعوبة . وسيئول الأمر في النهاية إلى انقطاع الاتصال . ومن ثم تستبين الحاجة الملحة إلى تنظيم العمل المصطلحي على المستويين القومي والعالمي . كما أصبح البحث في اللغة الخاصة وفي تطوير تعليم اللغات الخاصة من الضرورات الملحة .

ولكي يتحقق التطوير والتنسيق لأوجه النشاط المصطلحي أسِّس في فيينا عام 1971 المركز الدولي للمعلومات المصطلحية (Information Centre for Terminology) أو ما يسمى اختصارا (انفوترم Infoterm) وهو ملحق بمعهد المواصفات النمساوية(Austrian Standards Institute) ويعمل كمركز داخل إطار برنامج المعلومات العامة لليونسكو[1] (General Information Programme) وفي كنف الانفوترم نشأت شبكة دولية لأوجه النشاط المصطلحي تعيش الآن أطوار نموها وقد أصبحت تعرف بشبكة المصطلحات (Terminet)[2] .

نظرة إلى الماضي وإطلالة على المستقبل :

مع النمو المتزايد للعلوم والمهن والحرف في العالم اطرد نمو الحصيلة العلمية المتخصصة حتى تجاوز الحصيلة العلمية العامة ومع ذلك فقد أهملها فقهاء اللغة أما الفلاسفة والعلماء ورجال العلم والمهنيون فقد صرفوا جل اهتمامهم إلى اللغات الخاصة ومصطلحياتها .

وقد اقتضى النمو السريع للمعلومات وإنتاج السلع التقنية من الباحثين والعلماء والمهندسين وأصحاب الحرف معالجة اللغات ، فأصبح لزاما عليهم أن يتناولوا المبتكرات الحديثة والظواهر العلمية الجديدة بالتسمية والتعريف . وقد قام Linné عام 1735 بتطوير أنظمة (Systems) المصطلحات في

علم الأحياء كما طورها Morveau عام 1782 في علم الكيمياء . أما المجهودات التي بذلت في حقول أخرى كمجهودات Durer في الرياضيات فقد أخفقت . وفي 1977 كان Beckmann[3] أول من صاغ فكرة المقاربة المنظومية (Systematic approach) للعمل المصطلحيّ وفكرة توحيد المصطلحات (unification) .

وفي القرن التاسع عشر اقتضى التعاون الدولي في العلوم تطوير القواعد الموحدة لصياغة المصطلحات . وبدأ هذا العمل في المؤتمرات الدولية لعلماء النبات في عام 1867 ، ولعلماء الحيوان في عام 1889 وللكيميائيين في عام 1892 . واليوم ينشط عدد كبير من لجان المصطلحات في الحقول المختلفة لأعداد المصطلحيات - كل في مجال تخصصها - على المستويين القومي والعلمي .

ومع النمو السريع التقني في القرن العشرين أصبح من الضروري للمهندسين أن يصرفوا اهتمامهم إلى المشكلات اللغوية الخاصة بالمجالات التقنية . وكان من أبرز الباحثين Wüster (1898 - 1977) في النمسا . وهو مؤسس النظرية العامة للمصطلحية[4] وLotte[5] (1889 - 1950) في الاتحاد السوفيتي وهو مؤسس المدرسة المصطلحية السوفيتية .

تطلب التعاون الدولي بين التخصصات المختلفة في مجال العلوم والتقنية إرساء مبادىء للمصطلحية والتدوين المصطلحي (Terminography) يمكن تطبيقها على كل الحقول الموضوعية وعلى كل اللغات وأنجز Wüster[6] العمل الرائد التمهيدي وقامت المنظمة العالمية للتقييس[7] (International Organization for Standardization) بنشر هذه المبادىء في الستينات والسبعينات . ويتم الآن تنقيح هذه المبادىء الهادية بشكل منتظم .

كان أول من استعمل المصطلح «Angewandte Sprachwissenschaft» أو (اللسانيات التطبيقية) هو Steche عام 1925 ثم تبعه Wüster عام 1931 وMessing عام 1932 وKandler عام 1952 وهو الذي أسس حلقة اللسانيات التطبيقية في بون . أما اليوم فقد انتشرت أقسام اللسانيات التطبيقية في كثير من جامعات العالم .

وفي عام 1964 أسست الجمعية الدولية للسانيات التطبيقية (ALLA) وكان على رأس أهدافها تعليم اللغات . ثم تأسست بعد ذلك لجنة المصطلحية والمعجمية . وحتى الستينات كان العلماء والمهندسون في الأغلب هم الذين يكرسون أنفسهم للبحث في اللغات الخاصة . وظلت المفردات المتخصصة (Specialized Vocabulary) ولا سيما التصورات والمصطلحات الملحقة بهذه التصورات غالبا محور اهتمامهم حتى اليوم . ويعتقد المتخصصون أن اللغة الخاصة لا يضبطها إلا أهل الاختصاص كل في مجاله ، إذ يتطلب الضبط تمام المعرفة بالبنية التصورية (conceptual structure) لمادة الموضوع ، وإذا استخدمت اللغة الخاصة من غير متخصص انقطع ما بينها وبين الدراسة التخصصية من صلات .

وكانت الزيادة الملحوظة في الكتابات المتخصصة وأهمية اللغة الخاصة بالنسبة للمجتمع دافعا للسانيين في الماضي القريب إلى الاهتمام بمشكلات اللغة الخاصة . وكان اهتمام اللسانيين ولا يزال هو دراسة وحدات أكبر في حجمها من الوحدات المصطلحية نفسها . فاللغة الخاصة في رأيهم ، هي جملة الوسائل اللغوية المستعملة في حقل موضوعي محدد لتأمين الاتصال في هذا الحقل . واعتبرت اللغات الخاصة لغات فرعية (sub-languages) للغة بعينها .

وفي العقدين الأخيرين أقر مدرسو اللغات بحاجاتهم إلى أن يضمنوا تدريسهم معالجة اللغات الخاصة . وعقدت منذ بداية هذا القرن ندوات عالمية وقومية لمعالجة المصطلحيات في حقول موضوعية محددة وما اتبع في وضعها من قواعد . كما عقدت ندوات أخرى في الخمسينات وما تلاها حول أسس المصطلحية العامة وطرقها .

وأما أول ندوة أوربية عن لغة الأغراض الخاصة (Language for Special Purposes, LSP) فقد عقدت في فيينا عام 1975 . ثم تبعتها ندوات أخرى في Bielefeld في عام 1979 وفي Eindhoven في عام 1982 .

وبعد استخدام الحاسب الآلي في معالجة اللغة في السبعينات اجتذبت اللغات الخاصة اهتمام مجموعة أخرى من أهل الاختصاص في مجالي المعلومات ومعالجة النصوص (processing of texts) إذ إن مكانز التوثيق (documentation thesauri) أصبحت شائعة في الستينات بوصفها وسائل للتكشيف والاسترجاع .

المظاهر النظرية والعلمية في اللغة الخاصة :

ثمة مجال واسع للبحث في اللغة الخاصة ، وذلك أنها جديرة في ذاتها بأن تكون موضوعا متشابك المعارف (multidisciplinary) على نحو ما فعل Wüster في نظريته العامة للمصطلحية[8] ، كما يمكن اعتبارها لغة مشتقة من اللغة المشتركة (common language) ومن ثم تأتي صلتها باللسانيات . ويتبع أهل الاختصاص من علماء ومهندسين النهج المصطلحي (terminological approach) على حين يتبع اللسانيون ومدرسو اللغات وفقهاء اللغة والمترجمون الشفويون ما يعرف بنهج اللغات الفرعية (Sublanguage approach) .

وللبحث العلمي في اللغة الخاصة – بحسب ما يهدف إليه – وجهان على الأقل :

1 – فحص طبيعة التصورات والمصطلحات بغية وضع المصطلحيات متسقة أحادية أو متعددة اللغات يمكن توظيفها كأدوات للاتصال وتنظيم المعرفة ، ونقل المعرفة والتقنية .
ذلكم هو النهج المصطلحي .

2 – فحص اللغات الخاصة من جهة استعمالها أي نحويا وأسلوبيا ومعجميا وإحصائيا بغية تعليم هذه اللغات ومعالجة النصوص الخاصة وترجمتها .
ذلكم هو نهج اللغات الفرعية .

النهج المصطلحي :

هذا النهج ، وهو أوغل في القدم من نهج اللغات الفرعية ، يعني ضمنا أن المصطلحية مبحث خاص تجتاز حدوده اللسانيات وعلم الوجود والمعلومات والحقول الموضوعية وتفارق طرق البحث فيه ما يستخدم في اللسانيات من مثل التصوريات (conceptology) وتقييس التصورات والمصطلحات والتدوين المصطلحي .

وثمة كثير من النظريات المصطلحية ومن أنضجها النظرية العامة في المصطلحية التي وضعها Wüster وهي أساس لمدرسة فيينا المصطلحية . وتتضمن موضوعات البحث فيها : طبيعة التصورات وما بين هذه التصورات من علائق وأنظمتها ووصفها (أو تعريفها definition) وقصر مصطلح على تصور بعينه أو تصور على مصطلح بعينه كما تتضمن أيضا البحث في طبيعة المصطلحات وتقييمها (evaluation) وتقيم عناصرها وتقييس التصورات والمصطلحات وتوحيد التصورات والمصطلحات

دوليا ، وطرق التدوين المصطلحي الخاص بمعالجة البيانات المصطلحية مع الاستعانة بالحاسب الآلي أو بدونه ، وتجميع المفردات المتخصصة لتحقيق الاتصال المعرفي أو إعداد مكانز التوثيق لأنظمة المعلومات .

وتختص الدراسات الحديثة المصطلحية بوظيفة الرموز اللغوية أي *الكلمة* (Word) وعمادها السياق و *المصطلح* (term) وعماده النظام التصوري .

حظيت الدراسات النظرية في هذا المجال باهتمام المدارس المصطلحية في فيينا ، وبراغ والمدرسة السوفيتية وكثير من معاهد البحوث في كندا وأنجلترا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديموقراطية وغيرها . والنظرية القومية في المصطلحية هي أساس لا غنى عنه لضبط المبادىء المصطلحية المقيسة على المستويين القومي والعالمي .

أما النظرية الخاصة في مجال المصطلحيّات (specialized theory of terminology) فهي فرع من فروع البحث المصطلحي يقوم بفحص القوانين التي تضبط المصطلحيات في حقل موضوعي بعينه أو لغة بعينها . ويؤتي هذا البحث ثمرته في خطوط عريضة أو قواعد لصياغة مصطلحيات العلوم كعلم النبات أو الحيوان أو الطب أو الكيمياء وغيرها أو أنظمة تصورية مصطلحية في حقول موضوعية معينة .

نهج اللغات الفرعية :

وينشأ هذا النهج على أساس من اعتبار اللغات الخاصة لغات فرعية . وتبعا لهذا الرأي تعد المصطلحية وسيلة نقل للمعلومات المعجمية (lexical information) في كل من اللغات الخاصة . وهي جملة الوحدات المعجمية (lexemes) التي تشكل معانيها تصورات تكوّن نظاما في الحقل الموضوعي . والمصطلحية هي مجموعة فرعية من الرصيد المعجمي (lexicon) في اللغة الخاصة وهذا الرصيد بدوره هو جزء من نظام يتفرع من «الرصيد المعجمي للغة المشتركة» . ويشمل الدرس العلمي[9] :

المظاهر المعجمية والتركيبية والنحوية والأسلوبية في النصوص المتخصصة وصياغة الوحدات المعجمية المصطلحية (terminological lexical units) والأنساق (Syntagmas) والعبارات وبنية النصوص المتخصصة وتصنيف النصوص (أنواعها) .

أما نظرية الترجمة فهي حقل خاص من حقول هذا البحث .

ولا توجد حتى الآن نظرية متسقة في اللغات الخاصة[10] . وقد تحول اللسانيون من الاهتمام بالوحدات التقليدية للغات الخاصة إلى الاهتمام بوحدات مترابطة أكبر حجما تحقق الاتصال وتشكل الأساس لتأليف نصوص بأكملها . ذلكم هو اتجاه سائد في اللسانيات[11]، [12] .

وفي الوقت الذي يعمق فيه أهل الاختصاص من تفهمهم للجانب التصوري للوحدات الأساسية في اللغات الخاصة ، ألا وهي المصطلحات ، مستعينين في ذلك بمبادىء علم المنطق وعلم الوجود ونظرية المعرفة وعلم المعلومات وغيرها ، يتوسع اللسانيون في بحثهم للوحدات النصية الكبرى (textual units) ، لعلهم يتفهمون ترابط المعاني اعتمادا على أساس من بنية الشكل الخارجي . كما يتجه جانب كبير من بحثهم إلى تطوير التدريس للغات الخاصة .

اللغات الخاصة في المجال الصناعي والتطبيقي :

اللغات الخاصة هي أداة المتخصصين والمهنيين للاتصال داخل حقول نشاطهم ، ومن ثم فلابد

للبحوث النظرية والعملية في اللغات الخاصة أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار وأن تخدم هذا الغرض .

والمصطلحيات هي أساس :

- تنظيم المعرفة (ترتيب التصورات في شكل منظومات)
- نقل المعرفة والمهارات التقنية .
- صياغة المعلومات التقنية والمهنية (النصوص الخاصة)
- ترجمة النصوص الخاصة إلى اللغات الأخرى .
- تخزين المعلومات واسترجاعها .

ثمة حاجة ماسة في حقل الصناعة والتجارة إلى المصطلحيات المتسقة الأحادية اللغة أو المتعددة اللغات لخدمة الكثير من أوجه النشاط كالبحث العلمي ، والتطوير والادارة والتسويق والاتصال داخل الشركات والاتصال بالعملاء وموظفي الجمارك ونقل المهارة والتقنية ومعالجة المعلومات والنصوص (text processing) .

إن البحث والتنمية والانتاج الصناعي ولد الجديد من المعلومات والعمليات والمنتجات التي لابد لها من استحداث مصطلحات جديدة ، ذلك أن بعض الشركات لا يزيد عمر 40% من منتجاتها على خمس سنوات . ثم أن التعاون الدولي يتطلب المشاركة من أهل الاختصاص والمهنيين الصناعيين في جهود اللجان المصطلحية التي تؤسسها الهيئات العلمية أو التقنية أو المهنية من أجل إعداد مصطلحيات متوائمة أحادية اللغة أو متعددة اللغات . وفي عدد من المنظمات الدولية التقنية أو المهنية اكتسبت لغات مثل العربية أو الصينية صفة اللغة الرسمية مما يعني ضرورة العمل على تنمية المصطلحيات في هذه اللغات في فترة وجيزة . ذلكم هو وضع العربية مثلا في الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية (ITU) .

ويقوم تقييس المصطلحيات بدور هام في الصناعة[13] .

وبالنظر لأوجه النشاط هذه توصلت اللجنة الفنية (TC 37) للمنظمة العالمية للتقييس إيزو (ISO) إلى عدد من توصيات ومواصفات إيزو[14] تعالج :

- مبادىء المصطلحية وطرقها .
- التوحيد الدولي للتصورات والمصطلحات .
- المسالك والوسائل الواجب اتباعها في إعداد المعاجم المتخصصة المصنفة .
- الرموز المستخدمة في المعاجم .

ولقد أعدت الانفوترم ببليوجرافيات عالمية للمعاجم المتخصصة أحادية اللغة ومتعددة اللغات وكذلك للمفردات المقيّسة التي تداوم على تحديثها في شكل تسهل قراءته آليا[15]، [16] بغية التعريف بالألفاظ المتخصصة والمقيّسة وإذاعتها على نطاق واسع .

وبحكم التقسيم الدولي للعمل وبيع المعدات الكاملة ووسائل التصنيع أصبح لزاما على الصناعة أن تواصل نقل المعرفة والمهارات التقنية للبلاد الأخرى ، فاللغات الخاصة في هذه البلاد قد يكون نصيبها من التطور صفرا أوجد قليل . ومن ثم كانت حاجة الصناعات إلى معونة المصطلحيين واللسانيين ومدرسي اللغات الخاصة .

ويحضرني هنا مثال : ففي البرازيل وحدت بعض المؤسسات الصناعية الألمانية جهودها في مجال المصطلحية فكونت لذلك فريقا عاملا ليطور - بالتعاون مع معهد اللسانيات البرازيلي - المصطلحيات البرتغالية لخدمة أوجه نشاطها .

وفي حقل الصناعة والتجارة صدر عدد كبير متنوع من النصوص الخاصة التي تيسر الاتصال داخل الشركة وخارجها (دلائل ، إرشادات للاستعمال ، تعليمات ، قوائم بقطع الغيار ، قوائم تجارية) . وتلكم النصوص هي ما نحتاج إليه غالبا في الكثير من اللغات . ويبلغ حجم هذه النصوص في المؤسسات الكبيرة مئات الملايين من الصفحات في كل عام . ولخدمة هذا النشاط كان لابد وأن تعد العبارات المصطلحية المقيسة في اللغات المختلفة وأن تعالج وتختزن وتسترجع ولكي نواجه هذا الموقف علينا أن نقيم جهازا لمعالجة الكلمات (Word processing) . ومن ثم وجب أن تكون هذه النصوص موحدة على قدر الامكان . فجهاز معالجة الكلمات بالحاسب الآلي بتضافره مع بنوك البيانات المصطلحية (terminological data banks) هو الذي يتيح استعمال المصطلحات على نحو متسق وموحد .

إن التعاون الدولي مع الشركاء والحاجة للتصدير أديا إلى إنشاء أقسام للخدمات اللغوية (language services) في الصناعة وفي المؤسسات التقنية والمهنية الوطنية الكبيرة ، الاقليمية منها والعالمية ، الحكومية منها وغير الحكومية . وحتى نزيد من كفاءة عملية الترجمة أنشئت بنوك البيانات المصطلحية[17] ، وذلك أن الوقت الذي تستغرقه الترجمة كان جله منصرفا إلى جلاء المصطلحات . وهذه البنوك تيسر لنا إنتاج نصوص ذات مصطلحيات مُوَحَّدَة لاسيما عند الحاجة إلى عدد من المترجمين يقومون بترجمة نصوص هائلة الحجم في وقت واحد . ومن أمثلة بنوك البيانات المصطلحية في حقل الصناعة بنك TEAM (قسم سيمنز للخدمات اللغوية ، ميونيخ) المتعاون مع شركة فيليبس وغيرها من الشركاء الصناعيين[18] . أما بنك EURODICAUTOM[19] (يروديكاتوم) فقد أنشأته الخدمات اللغوية في الحكومة الكندية بنك «Terminum» .

والتدوين المصطلحي الآلي (computerized terminography) هو حقل من حقول النشاط السريعة النمو[20] ويجتهد هذا الحقل في تسجيل أكبر عدد ممكن من المصطلحيات في شكل يسهل قراءته آليا لتيسير نشرها واسترجاعها . وجوهر المشكلة في بنوك البيانات المصطلحية هو إعداد البيانات الحديثة الموثوق بها . ولذا شرعت الانفوترم تعد برنامجا في إطار شبكة المصطلحات (Terminet) تستهدف منه إعداد أهل الاختصاص في مصطلحيات الموضوعات المختلفة وتسجيل هذه المصطلحات في شكل يسهل قراءته آليا[21] .

وتعد المعرفة الخاصة بالشؤون العلمية والتقنية والانتاج وعمليات التصنيع والأسواق ... الخ مادة خاماً لأي شركة من الشركات . وبالاستعانة بالحاسب الآلي تتم معالجة البيانات في شكل معلومات . لذا فلابد من اختزان البيانات في شكل أنظمة معلومات (information systems) حتى يتيسر لمن هم في حاجة إليها سرعة استرجاعها . ويتطلب تخزين هذه البيانات واسترجاعها أدوات مصطلحية متطورة مثل مكانز التوثيق[22] .

وبقدوم الجيل الخامس من الحاسبات الآلية سيبدأ تطور جديد في المعلومات والتوثيق يتمثل في بناء أنظمة الخبرة (expert system) وبنوك المعرفة (knowledge banks)[23] . وفي المستقبل ومع نشأة فرع جديد في حقل المعلومات وهو هندسة المعرفة (knowledge engineering) ستحدث النقلة من معالجة البيانات (data processing) إلى معالجة المعرفة (knowledge processing) . وبما أن المعرفة وثيقة الصلة بالتصورات فإن النظرية العامة للمصطلحية ، تلك التي سبقت الاشارة إليها ، في إمكانها الاسهام جوهريا في هذا الفرع وذلك بفضل الدراسة العميقة

لطبيعة التصورات والعلائق القائمة بينها ولنظام التصورات وتشابكها[24] . وعلينا إذن أن نوجه بحوث المستقبل نحو التصورية[25] ونظرية المعرفة والمنطق وعلاقات ذلك كله باللغة الخاصة .

أود أن أضرب مثلا قريب العهد : في الولايات المتحدة الأمريكية يجري تنفيذ مشروع المصطلحيات الطبية وتصنيفها عن طريق الحاسب الآلي ، وقوام هذا المشروع هو نظام من التصورات المقيسة حيث ترتبط الحقائق المعرفية (أي المأخوذة عن كتب التدريس والمعرفة العامة في مجالي التشخيص والعلاج) المختزنة في ملف معرفي بالمعرفة العلاجية (أي التشخيص والعلاج) المختزنة في ملف علاجي[26] . وقد طلب الانفوترم المعاونة في تنفيذ هذا المشروع لما لها من معرفة وخبرة خاصة في تقييس المصطلحيات وتنسيقها .

تعليم اللغة الخاصة :

تعليم اللغات الخاصة حقل واسع من حقول النشاط . ففي العقدين الأخيرين ظهر عدد كبير من البحوث حول هذا الموضوع[27] ، [28] ، [29] ، [30] في الدوريات التي تعنى باللغة الخاصة والمصطلحيات والترجمة واللسانيات التطبيقية ، وهو موضوع يحتل مكانا في جدول أعمال المؤتمرات واللقاءات العلمية القومية والدولية . كما خصصت مؤتمرات ولقاءات لهذا الموضوع وحده كالمؤتمرات العلمية لكلية درسدن Dresden الفنية في عام (1971)[31] (اللسانيات التطبيقية والتدريب في اللغة الخاصة) .

(Angewandte Sprachnissenschaft und fachsprachliche Ausbildung)

أو الندوة العالمية للتمرن على المصطلحية .

(International Symposium on Terminology Training)

في كوبيك بكندا عام 1979 . وفي نطاق برنامج اليونسكو «الانثروبولوجيا وعلم اللغة للتطوير التعليمي» .

(Anthropology and language Science in Educational Development. ALSED).

أسس مركز لغة الأغراض الخاصة (LSP Centre) في مدرسة كوبنهاجن للعلوم الاقتصادية وهو محور اليونسكو شبكة ألسيد ALSED للغة الأغراض الخاصة[32] . وتعتزم الشبكة ربط كل المنظمات والمؤسسات المشتغلة بالبحث في اللغة الخاصة وتعليمها

وفي عام 1981 نشر دليل «عالم لغة الأغراض الخاصة (The World of LSP) وبه قوائم تشمل أوجه النشاط في مجالات البحوث والتدريس لثمانية وثلاثين بلدا[33] . وفي السنين الأخيرة أصبحت الحاجة أكثر إلحاحا إلى تدريس اللغة الخاصة . ويلزم لتدريس اللغة الخاصة الالمام بما يلي :

- من ذا الذي يحتاج لهذا المران ؟
- لأي نوع من النشاط المهني أو التأهيلي يحتاجه ؟

وندرج فيما يلي قائمة بالمتخصصين الذين يحتاجون تعلم اللغة الخاصة على نحو خاص وبدرجات متفاوتة من الشمول :

- أهل الاختصاص (العلماء ، المهندسون ... الخ)
- المصطلحيون (terminologists)
- الوسطاء اللغويون language mediators (المترجمون والمترجمون الشفويون)
- اللسانيون
- مدرسو اللغات
- المتخصصون في علم المعلومات (Information specialists)
- المحررون العلميون والفنيون

ويمكن للتدريس أن يتجه إلى المصطلحية أو الترجمة أو اللغة الفرعية . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة .

تعليم المصطلحية :

نما تعليم المصطلحية في السنين الأخيرة نموا كبيرا ونمت الحاجة لوضع المصطلحيات ومعالجتها من حيث المواءمة (harmonization) والتنسيق والتوحيد والتقييس داخل المؤسسات الصغيرة والكبيرة . ولقد قويت الحاجة إلى ذلك في مناطق لغوية برمتها كاللغة الصينية واليابانية والعربية ، واللغات الافريقية حيث تزداد الضرورة إلى نقل المصطلحيات للمعرفة والتقنية[34] ، [35] .

ولتحقيق هذا النشاط يصبح التدريب على تطبيق المبادىء المصطلحية وطرق التدوين المصطلحي ضروريا[36] . وفي السنين الأخيرة ركزت الانفوترم مجهوداتها على تدريب أهل الاختصاصات المختلفة لهذه الغاية . وعلى أساس من خبرة الانفوترم عقدت برامج تدريسية رائدة في Beijing[37] في سبتمبر 1981 ، وفي سبتمبر 1982 في بعض الجامعات في اليابان[38] ، وفي أبريل 1983 في Universidad Simon Bolivar في كراكاس (فنزويلا) ، وفي نوفمبر 1983 في مركز Hispanoterm في مدريد[39] ، وفي ديسمبر 1983 في مركز شرقي إفريقيا للبحث والتراث الشفوي واللغات الافريقية في زَنجبار (تنزانيا)[40] . أدت هذه البرامج وما حصلته الانفوترم من خبرة في التدريب داخل أروقتها إلى إعداد دليل للمصطلحية (مع إيلاء مبادىء المصطلحية ووسائلها عناية خاصة) . وقد أريد بهذا الدليل أن يكون مرجعا للبرامج التدريسية قومياً ودولياً . ويجري الآن تدريس برامج حول النظرية المصطلحية في جامعات مختلفة كالنمسا وكندا والمملكة المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية والاتحاد السوفيتي . وفي معهد اللسانيات العامة والتطبيقية في فيينا ومنذ عام 1972 يعقد برنامج في النظرية العامة للمصطلحية والمعجمية المصطلحية[41] (Terminological lexicography) .

أما ما يدعو للأسى فهو انعدام برامج التدريس في النظريات الخاصة بالمصطلحية أي النظريات المتعلقة بمصطلحيات الحقول الموضوعية مما يعين على تطوير العمل المصطلحي المنظومي (Systematic) .

تدريس المصطلحية الموجه للترجمة :

يحتاج المترجمون إلى مصطلحيات معينة تتجه نحو اللغات الفرعية وتستهدف مقارنة اللغات[42] . كما أن عليهم أن يعالجوا من الوحدات ما هو مصطلحي (أي المصطلحات والعبارات المصطلحية) ووحدات أخرى بعينها تختص ببنية النص .

وقد بدأ هذا النوع من التدريس في منتصف السبعينات في مدرسة العلوم الاقتصادية بكوبنهاجن[43] ويجري تقديمه الآن في كل بلاد الشمال . أما في قسم تدريب المترجمين والمترجمين الشفويين بجامعة فيينا فقد طور أنموذج فيينا لتدريس المصطلحية لهذه الأغراض[44] . وثمة تجربة مثيرة في مجال تدريس المتخصصين في معهد Hochschule Hildesheim بجمهورية ألمانيا الاتحادية[45] .

التدريس الموجه إلى اللغات الفرعية :

يقوم عدد كبير من الجامعات بتقديم برامج تدريبية في اللغات الخاصة بالنسبة لكثير من اللغات القومية (الانجليزية ، الفرنسية ، الاسبانية ، الروسية) إلى مجموعات ذات أهداف مختلفة منهم مدرسو اللغة وأهل الاختصاص ممن يعتزمون اكتساب معرفة القراءة والكتابة في لغة خاصة أجنبية بعينها وكذلك المترجمون واللسانيون . وقد تعنى مثل هذه البرامج بما تشتمل عليه لغة بعينها من لغات خاصة أو بلغة فرعية تستخدم لحقل موضوعي معين كالاقتصاد والكيمياء .

وهنا ننوه بما تمّ إنجازه في جمهورية ألمانيا الديموقراطية من بحث علمي مكثف في مجال اللغات الخاصة لا سيما ما تم على يدي L. Hoffmann من عمل[46] ، [47] .

مع «المعجم الوسيط»
في طبعته الثانية

بقلم
إدريس بن الحسن العلمي

«عباد» جمع من جموع «عبد»

في مادة «عبد» عند ذكر «المعجم الوسيط» لمختلف الجموع الواردة في اللغة لكلمة «عبد» لم يثبت الجمع التالي : «عباد» الذي أورده الفيروزبادي صاحب «القاموس المحيط» مع كون أصحاب «المعجم الوسيط» نقلوا عنه شرح كلمة «عبد» بالحرف ونصه : «الانسان حرا كان أو رقيقا» .

ونحن نأسف لاغفال مجمع اللغة العربية بالقاهرة جمع «عباد» الذي هو أكثر شيوعا وأكثر تداولا من غيره من الجموع لا سيما وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم سبعا وتسعين مرة ضمن 97 آية بينما لم ترد كلمة «عبيد» في القرآن إلا خمس مرات . ومن الآيات التي نصت على كلمة «عباد» آيتان اشتملتا على المفرد وجمعه أي على «عبد» و «عباد» في آن واحد وذلك ضمن الآية 65 في سورة الكهف وهو قوله تعالى : «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا» وضمن الآية 10 في سورة التحريم وذلك قوله سبحانه : «كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما» .

فالأمانة العلمية تقضي بالعمل على تدارك هذا الاغفال الخطير عند إخراج الطبعة الثالثة بدون أيما اعتبار .

ليست «المداهنة» هي «المداراة»

في مادة «دهن» جاء في شرح «المعجم الوسيط» لفعل «داهنه» ما يلي : «داراه ولاينه» .

وكل من له إلمام باللغة العربية واطلاع ولو يسير على الأحاديث النبوية وعلى ما وصلنا من الآثار يعلم أن المداراة فضيلة يامر بها الشرع وأن «المداهنة» رذيلة منهي عنها ويأباها الطبع الكريم . فالمداراة تصدر عن الحصافة والرزانة والتبصّر والمداهنة لون من ألوان النفاق والخداع فقد جاء في الأثر «رأس الحكمة بعد مخافة الله مداراة الناس» كما ورد في الأثر أيضا «داروا سفهاءكم» .

وقد نص على الفرق بينهما شيخ الاسلام سيدي محمد العربي ابن السائح في كتابه «بغية المستفيد لشرح منية المريد» بقوله رضي الله عنه :

«وتشتبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن

المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته رجاء إصلاحه واحتملت منه ما تكره. والمداهنة ما قصدت به شيئا من الهوى كطلب حظ وإقامة جاه فالأولى من أخلاق الأخيار والثانية من سمات الأشرار».

وأورد ابن منظور في معجمه (لسان العرب) في مادة «دهن» ما يلي بنصه:

— «والمداهنة والادهان: المصانعة واللين. وقيل: المداهنة إظهار خلاف ما يضمر والادهان: الغش ودهن الرجل إذا نافق. ودهن غلامه: ضربه ... الجوهري: والمداهنة والادهان كالمصانعة. وفي التنزيل العزيز (ودّوا لو تدهن فيدهنون). وقال قوم: داهنت بمعنى واريت. وأدهنت: بمعنى غششت. وقال الفراء: معنى قوله عز وجل: (ودوا لو تدهن فيدهنون): (ودوا لو تكفر فيكفرون). وقال في قوله: (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون): أي مكذبون. ويقال: كافرون. وقوله: (ودوا لو تدهن فيدهنون) أي ودوا لو تصانعهم في الدين فيصانعوك. الليث: (الادهان: اللين والمداهن: المصانع ... وقال بعض أهل اللغة معنى (داهن وأدهن): أي أظهر خلاف ما أضمر فكأنه بيّن الكذب على نفسه» (اهـ).

— وأورد ابن منظور كذلك في مادة «المداراة» ما يلي بنصه: «والمداراة: في حسن الخلق والمعاشرة مع الناس: المداجاة والملاينة ومنه الحديث: (رأس العقل بعد الايمان بالله مداراة الناس، أي ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم لئلا ينفروا عنك. (وداريت الرجل): لاينته ورفقت به». (اهـ)

وبإمعان النظر في شروح ابن منظور نجد أن لفظ «المداراة» لم يرد ولا مرة واحدة ضمن مختلف شروح «المداهنة» كما أن لفظ «المداهنة» لم يذكر قط ضمن شروح «المداراة».

وفي ذلك وفي غيره مما تضمنته الشروح من معاني ودلالات تأييد وتأكيد للتفرقة بين «المداهنة» و «المداراة» التي نص عليها جهبذ العلماء، ونابغة الشعراء والأدباء، المربي الناصح، والولي الصالح، سيدي محمد العربي ابن السائح، رضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا به آمين.

فنرجو من مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يتدارك هذا الخلط وألا يشرح في الطبعة الثالثة لـ «المعجم الوسيط» كلمة «داهنه» بـ «داراه» ولا «المداراة» بـ «المداهنة». فإن مثل هذا الشرح حتى ولو جاز صدوره عن معجم من المعاجم اللغوية القديمة التي كانت تأتي بالشروح على وجه التقريب لابقصد التحديد والضبط فإنه لا يسوغ وروده في أي معجم لغوي حديث لاسيما إذا كان صاحب هذا المعجم هو «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة الذي أولى مهامه تحقيق وتدقيق دلالة المفردات والمصطلحات.

«المِدْلَجة» (بكسر الميم) لا «المَدْلجة» (بفتحها) هي العلبة التي ينقل فيها اللبن أو الماء

في مادة «دَلَج» كرر «المعجم الوسيط» في طبعته الثانية خطأه في شرح كلمة «مَدْلَجَة» (بفتح الميم) الوارد في طبعته الأولى ونصه: «المَدْلَجة: المَدْلَج وكِنَاس الوحش. والعلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن». وقد سبق لنا أن نبهنا على هذا الخطإ في العدد الثاني من مجلة «اللسان العربي» بقولنا: أورد المعجم ضمن شرحه لكلمة «مَدْلَجة» (المفتوحة الميم) ما يلي: «العلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن» والصحيح أن هذا المعنى هو مدلول كلمة «مِدلجة» (المكسورة الميم) كما ينص عليه «أقرب

الموارد» و «تاج العروس» و «أساس البلاغة» .

واليوم نضيف إلى استشهادنا بالمعاجم الثلاثة المذكورة نص ما أورده الفيروزبادي صاحب «القاموس المحيط» في مادة «دَلَجَ» من شرح لكلمتي «مَدْلَجة» المفتوحة الميم و «مِدْلَجة» المكسورة الميم وذلك قوله : « ... والدالج الذي يأخذ الدلو ويمشي به من رأس البئر إلى الحوض ليفرغها فيه وذلك الموضع *«مَدْلَج»* و *«مَدْلَجة»* (بفتح الميم في كلتيهما) ... وكمِكْنَسَة (بكسر الميم) : *العلبة* الكبيرة ينقل فيها اللبن . وكمَرْتَبة (بفتح الميم) : *كِنَاس الوحش»* اهـ .

وكما نأخذ على «المعجم الوسيط» عدم تفريقه بين المفردتين «المَدْلجة» (المفتوحة الميم) «والمِدْلجة» (المكسورة الميم) نأخذ عليه إغفاله هذه الأخيرة بالمرة .

ولذلك نرجو من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عند إخراجه الطبعة الثالثة لـ «المعجم الوسيط» :

1) أن يصحح شرحه لكلمة «مَدْلجة» (المفتوحة الميم) كما يلي :

ـــ المَدْلجة والمَدْلج : ما بين الحوض والبئر الذي يمشي فيه الدالج بالماء .

ـــ المَدْلَجَة والدّوْلَج : كِناس الوحش .

2) أن يثبت المفردة «مِدْلَجة» المكسورة الميم على النحو التالي :

ـــ المِدلجة : العلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن أو الماء .

المستوى = Niveau

أصرّ المعجم على إغفال كلمة «مستوى» (بفتح الواو) إسم مكان من «الاستواء» التي تقابل اللفظ الفرنسي «Niveau» رغم تنبيهنا على هذا الاغفال في العدد الثاني من مجلة «اللسان العربي» بصدد ملاحظاتنا على الطبعة الأولى . ولذلك نلح على ضرورة إثباته في الطبعة الثالثة مع الشرح التالي الوارد قبالة اللفظ الفرنسي المذكور الذي ننقله مترجما عن معجم «بول روبير» الصغير :

ـــ المُسْتَوَى : درجة ارتفاع خط أو سطح بالنسبة لسطح أفقي يوازيه . وبالمجاز : المستوى التعليمي ، أو المستوى الثقافي : درجة العرفان أو الثقافة .

ـــ مستوى الحياة : مجموع الأمتعة والخدمات التي يساعد على تحصيلها أو اكتسابها الدخل الوطني المتوسط .

«كَفَّهُ» عن الأمر = صَرَفَهُ وَمَنَعَهُ

في مادة «كفف» أغفل المعجم عند شرحه فعل «كَفَّ» معنى : «كفّه عن الأمر : صرفه ومنعه» الذي نصت عليه أمهات كتب اللغة ونخص منها بالذكر «لسان العرب» لابن منظور و «أساس البلاغة» للزمخشري و «أقرب الموارد» إلخ ...

وقد تكرر هذا الاغفال في الطبعة الثانية مع أننا نبهنا عليه بصدد ملاحظاتنا على الطبعة الأولى للمنشورة في العدد الثالث من مجلة «اللسان العربي» الصادر في غشت من سنة 1965 .

مادتا «ذوف» و «ذيف»

أصر المعجم على إغفال مادتي «ذوف» و«ذيف» رغم تنبيهنا عليه في العدد الثالث من هذه المجلة منذ عشرين سنة . ونعيد التذكير بمفرداتها التي ننقلها عن (لسان العرب) لابن منظور فيما يلي :

الذّوف : مشية في تقارب وتفحج .

الفعل : ذاف ، يذوف قال :

رأيت رجالا حين يمشون فحجوا
وذافوا كما كانوا يذوفون من قبل

الذوفان : السم المنقع وقيل هو القاتل وسنذكره في الياء لأن الذيفان لغة فيه .

الذواف : الذوفان

الذئفان بالهمزة و ***الذيفان*** بالياء و ***الذيفان*** بكسر الذال وفتحها و ***الذواف*** كله السم الناقع وقيل القاتل يهمز ولا يهمز ... وأنشد ابن السكيت لأبي زجزة :

وإذا قطمتهم قطمت علاقما
وقواضي الديفان فمن تقطم

« ... ابن الأثير في حديث عبد الرحمن بن عوف :

«يفديهم ، وودوا لو سقوه
من الديفان مترعة الملايا»

« ... وحكى اللحياني / سقاه الله كأس الديفان / : بفتح أوله «وهو الموت» .

«المبزغ» و «المشرط» و «المبضع» و «المفصد» «المرهم» – «الحرج» – «الصن»

ـــ أبقى المعجم على الغموض والفراغ في شرح كلمات «المبزغ» و«المشرط» و«المبضع» و«المفصد» التي فسر بعضها ببعض ويؤسفنا أنه لم تأخذ بعين الاعتبار ملاحظاتنا والشروح التي اقترحناها لهذه المفردات في العدد الثالث من مجلة «اللسان العربي» الصادر منذ عشرين سنة .

ـــ لم يتدارك المعجم إغفاله كلمة «مرهم» التي نبهنا عليها بصدد طبعته الثانية في العدد الثالث من هذه المجلة مع افتقار الاصطلاح الطبي إليها ومع ورودها في أمهات كتب اللغة مثل «لسان العرب» و «تاج العروس» بمعنى «طلاء يطلى به الجرح» .

ـــ عند شرحه كلمة «حرج» لم يتدارك كذلك إغفاله المعنى الوارد في «تاج العروس» بالنص التالي : «سرير يحمل عليه المريض أو الميت وذلك رغم تنبيهنا عليه في العدد الثالث من هذه المجلة .

ـــ في مادة «صنّ» لم يتدارك المعجمَ إغفاله مفردة «الصن التي ورد شرحها في «تاج العروس» وفي «متن اللغة» وفي «أقرب الموارد» وفي «المنجد» بالمعنى التالي :

«شبه السلة المطبقة يجعل فيها الطعام أو الخبز» والتي يقابلها في اللغة الفرنسية لفظ «Porte-manger» و ذلك رغم تنبيهنا عليها .

عسى الله أن يوفق مجمع اللغة العربية بالقاهرة لأن يتدارك في الطبعة الثالثة ما أغفله في الطبعة الثانية لمعجمه مثلما تدارك غيرها من المغفلات التي نبهنا عليها من قبل والله ولي التوفيق .

توصيات مؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته السادسة والخمسين

(القاهرة : 1989 – 1990 م)

1 – يوصي المؤتمر أن يعنى في مرحلة التعليم الاساسي بحفظ قدر كاف من القرآن الكريم مع تفسيره في صفوف هذا التعليم ، وأن تتلو الناشئة مجموعة من أجزاء القرآن موزعة على الصفوف حتى ترسخ الملكة اللغوية في نفوسهم ، ويتمثلوا قيم القرآن الجمالية والسلوكية والاجتماعية .

2 – يؤكد المؤتمر توصية الدول العربية التي لم يتم فيها تعريب جميع الادارات والمؤسسات أن تستكمل ذلك لضرورته في التعامل مع أفراد شعوبها ، ولأن ذلك جزء لا يتجزأ من عروبتها الخالدة .

3 – يوصي المؤتمر الدول والحكومات العربية أن لا تعمل على إحياء اللهجات المحلية حتى لا تغض من العناية بالعربية لغتنا القومية والدينية ، ولغة ثقافتنا على مر التاريخ ولغة هويتنا وشخصيتنا وإذا كتبت أي لهجة محلية أو جعلت صحيفة لسانا لها ينبغي أن لا تكتب بأبجدية سوى الأبجدية العربية .

4 – يدعو المؤتمر الصومال حكومة وشعبا إلى العودة إلى الأبجدية العربية حتى تظل الأواصر قائمة بينها وبين شقيقاتها من البلدان العربية بحيث لا يمسها أي انفصام أو انفصال ، ويهيب المؤتمر بالدول والحكومات العربية أن تعمل بشتى الوسائل على هذه العودة المنشودة .

5 – يوصي المؤتمر ببذل الجهود العلمية لوضع معجم كبير للعامي الفصيح المشترك في البلدان العربية والذي يرجع إلى أصول فصيحة ، حتى تتقارب تلك البلدان بعضها من بعض وتتعاون بلغة مشتركة . ويقرر المؤتمر أن يظل هذا الموضوع مفتوحا في المؤتمر القادم .

6 – يدعو المؤتمر علماء العربية كل في وطنه إلى محاصرة العامية وبيان الفروق الدقيقة بينها وبين الفصحى وما دخل الكلمات الفصيحة فيها من إبدالات في الحركات والحروف وتغيرات في البنية والهيئة ، لعرض ذلك على الناشئة والاذاعيين حتى يتحاشوه في كتابتهم ونطقهم .

7 – أخذ مؤتمر المجمع علما بقرار وزراء الصحة العرب بتعريب كليات الطب في الوطن العربي وهو ما أوصى به مؤتمر المجمع مرارا ، وإن مؤتمر المجمع إذ يحيي هذا القرار يوصي الحكومات العربية بإصدار التشريعات اللازمة لتعريب التعليم الجامعي والعالي في مختلف الحقول والتخصصات العلمية .

8 - يدعو المؤتمر اتحاد المجامع والهيئات العلمية إلى توحيد المصطلحات في جميع العلوم، حتى تنمحي انمحاء تاما البلبلة في وضع هذه المصطلحات، فلا تكون في أي بلد عربي مصطلحات في علم تغاير مصطلحاته في البلاد العربية الاخرى، وحتى يتعاون علماؤنا جميعا في نهضة العلوم ببلادنا نهضة جماعية عربية قويمة.

9 - يوصي المؤتمر بزيادة عدد الساعات في تدريس قواعد العربية مع العناية في النصوص بالضبط والشكل الكامل، ومع تيسير القواعد على الناشئة والاستضاءة في ذلك بما قرره مؤتمر الدورة المجمعية الخامسة والاربعين من تبسيط لتلك القواعد، ولدى المجمع كراسة توضح هذا التبسيط وترسل لمن يطلبها من وزارات التعليم في الوطن العربي.

10 - يوصي المؤتمر أن يعنى في التدريس للناشئة وفي جميع وسائل الاعلام وفي الاذاعتين المسموعة والمرئية ومسلسلات التليفزيون باستخدام الفصحى ومراعاة قواعدها وصياغاتها مراعاة دقيقة وينبغي إعداد المذيعين والمذيعات لغويا بواسطة دورات تدريبية لهم تعرفهم - في دقة النطق العربي الفصيح، مع تصحيح ما يتردد في ألسنتهم من أخطاء لغوية.

11 - يوصي المؤتمر بما دعا إليه في مؤتمرات سابقة - حفاظا على الهوية العربية والقومية - من إصدار تشريعات تحظر كتابة اللافتات على المحال التجارية والشركات والفنادق بغير العربية كما تحظر كتابة الاسماء الاجنبية - عليها جميعا - بحروف عربية.

12 - يدعو المؤتمر رجال الدولة وجميع المسئولين في الوطن العربي أن تكون خطبهم وبياناتهم الموجهة إلى الجماهير بلغة عربية سليمة، لما لذلك من تأثير عميق في نفوس الجماهير وتمثلها القويم للبيان العربي.

13 - تبلغ هذه التوصيات للمؤتمر إلى المجامع اللغوية والعلمية والجامعات والصحف العربية وإلى وزارات التعليم والاعلام والثقافة في الوطن العربي.